جوهرة إفريقيا
نيلسون مانديلا

اسم الكتاب : نيلسون مانديــــــلا

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران - دار الراوي

رقم الايداع : 15479 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-088-1

---

سلسلة شخصيات غيرت مجرى التاريخ

# جوهرة إفريقيا
# نيلسون مانديلا

18 يوليو 1918م - 5 ديسمبر 2013

يوسف أبو الحجاج الأقصري

مكتبة زهران

# تقديــم

في إطار سلسلة شخصيات غيرت مجري التاريخ لا يمكن أن ننسي أو نتناسي (نيلسون مانديلا) ذلك السياسي الثوري الذي ناهض نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا بل وشغل منصب رئيس جنوب افريقيا في الفترة (1994 - 1999م) وكان أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا كما شغل منصب رئيس المؤتمر الوطني الافريقي في الفترة من 1991 حتي 1997 كما شغل دوليا منصب الأمين العام لحركة عدم الانحياز في الفترة (1998 - 1999).

- ولد في قبيلة (الهوسا) ودرس في جامعة فورت هير وجامعة ويتواترسداند حيث درس القانون، عاش في جوهانسبورج وانخرط في السياسة المناهضة للاستعمار وشارك في تأسيس منظمة (رمح الأمة) عام 1961 وألقي القبض عليه عام 1962 وأدين بالتخريب ونم الحكم عليه بالسجن مدي الحياة.

- مكث في السجن 27 عاما وانتشرت حملة دولية من أجل إطلاق سراحه الأمر الذي تحقق في عام 1990 وسط حرب أهلية متصاعدة صار بعدها رئيسا لحزب المؤتمر الوطني الافريقي وقاد المفاوضات لالغاء الفصل العنصري وإقامة انتخابات متعددة الأعراق عام 1994.

- فاز بالرئاسة وشكل حكومة وطنية وأسس دستورا جديدا لجمهورية جنوب أفريقيا.

- تلقي أكثر من 250 جائزة منها جائزة نوبل للسلام عام 1993 وميدالية الرئاسة الأمريكية للحرية ووسام لينين في الاتحاد السوفيتي.

- يوصف في جنوب افريقيا بأنه (أبو الأمة).

إنها حياة حافلة بالكفاح تستحق منا الاحترام والتقدير

**المؤلف**

**يوسف أبو الحجاج الأقصري**

## الفصل الأول

# كفاح مانديلا ابن القرية

نبدأ قصة كفاح الجوهرة السوداء (نيلسون مانديلا) الأسطورة مع ميلاده ونشأته.

نيلسون مانديلا الأسطورة كان أسطورة في كل شيء بداية من ميلاده ومسقط رأسه الذي كان في قرية بسيطة هي جزء من أجزاء جنوب إفريقية التي تبعد عن الحياة المدنية وتقع وراء ترانسكي، التي تقع علي مسافة 600 ميل جوهانسبورغ.

إنها واحدة من أجمل مناطق البلاد وأكثرها فقراً. فالآفاق الشاسعة من التلال المتموجة والعشب الأخضر الشاحب والأكواخ الدائرية المسقوفة بالقش، والرعيان يسوقون قطعانهم بينها، تقدم صورة من العهد القديم عن الحياة الريفية الأزلية بأبهى صورها. إلا أن هذا الجمال سطحي فحسب، فالأرض تضيق بالسكان بشكل يائس، والتربة الرقيقة متآكلة لدرجة لا يمكنها الإبقاء على أكثر من مجموعات مبعثرة من الأبقار. والأغنام العجفاء ورقاع متفرقة مزروعة بالذرة.

في هذا المكان ولد نيسلون مانديلا وترعرع، وهنا بني البيت الذي كان يرجع إليه في أعياد الميلاد والإجازات، والذي كان ينوي أن يتقاعد فيه.

إنه بيت ريفي كبير من طابق واحد سقفه من القرميد الأحمر، له أقواس على النسق الإسباني، مجاور للطرق العامة التي تصل دوربان بكيب تاون، على بعد بضعة أميال إلي الجنوب من أمتانا أكبر قرى ترانسكي.

يقع البيت الذي بناه مانديلا في نهاية شارع تحف بجانبيه أشجار السَّرو، ويحيط به سور وحديقة غناء تعزله عن الريف المفتوح، تصور مانديلا البيت في آخر سنة قضاها في سجنه، ووضع مخططه الطابقي على نمط بيت الحارس في مجمع السجن إلي كان نزيلاً فيه. لقد اختار الموقع المطل على وطنه الأم في «كونو»، اعتقاداً منه بأن «الإنسان يجب أن يكون قرب المكان الذي ولد فيه».

يقع مسقط رأس مانديلا الحقيقي على بعد بضعة أميال إلي الجنوب في قرية مقيزو الصغيرة، على ضفة نهر باشي المتعرج، حيث ورث والده مجموعة أكواخ العائلة، أو ما يسمي «كرال»، ففي سنة 1988، عندما كان مانديلا في السجن، طلب من محام محلى البحث عنها، لكنه لم يجد لها أي أثر. ولد روليهلاهلا مانديلا في مفيزو في 18 تموز (يوليو) 1918 في وقت، على ما ذكر فيما بعد، كانت فيه الحرب العالمية الأولي تضع أوزارها، وكانت الثورة البلشفية في روسيا ترسخ دعائمها، وكان المؤتمر القومي الأفريقي الذي أسس آنذاك يرسل وفداً مفوضاً إلي لندن ليطالب بحقوق أبناء جنوب إفريقية السود.

وكانت مستعمرة الكاب البريطانية، التي تضم «محمية ترانسكي الوطنية» قد ضمت إلي اتحاد جنوب إفريقية في سنة 1910. وبعد

ثلاث سنوات طرد «قانون الأرض الوطنية» مئات الآلاف من المزارعين السود؛ هاجر معظمهم إلي ترانسكي، المنطقة الكبيرة الوحيدة التي يستطيع الإفريقيون امتلاك الأرض فيها، وقد أنجبت ترانسكي من القادة السود أكثر من أي منطقة أخرى في جنوب إفريقية، وفي ظل تلك الظروف ترعرع فيها.

## والد مانديلا

تعرض هنداري مانديلا والد وليهلاهلا، للطرد أيضاً. ففي السنة التي أعقبت ولادة ابنه استدعاه القاضي المحلي الأبيض ليردَّ على شكوى أحد رجال القبيلة حول ثور. رفض هنداري القدوم، فأتهم بالعصيان، وطُرد من منصبه كشيخ للقبيلة، مما أفقده معظم أبقاره وأرضه ودخله. وانتقلت العائلي من «كرال» الأجداد في مفيزو إلي قرية كونو المجاورة، حيث قضي مانديلا الصبي سنوات قليلة هناك.

ورغم انحسار ثروتهم المفاجئ فقد تمكنوا من البقاء متماسكين معاً دون صعوبة كبيرة. اقتسموا الغذاء والمتع البسيطة مع أبناء العم والأصدقاء، ولم يشعر مانديلا بالوحدة أبداً.

تتذكر شقيقتا مانديلا، ميبل وليبي، بنشوة حياتهما الريفية البسيطة في كونو، التي تدور حول الأكواخ الدائرية الثلاثة المحاطة بالأعمدة في كرال والدتهم كان لديهم كوخ للنوم، وآخر للطبخ، وثالث لتخزين الطعام. كانت الأم هي انتي بنت الأكواخ من آجر صنع من الطين، وكذلك الموقد وهو عبارة عن حفرة في الأرض. لم يكن هناك أسرة ولا طاولات، وإنما

حصير فقط. كانت الأسقف مصنوعة من العشب المجدول بالحبال. كانوا يقتاتون بالذرة التي كانت تخزن في حفر في الكرال. كان الصبيان يمضون نهارهم في رعى الماشية، فيما تقوم البنات ونساء الأسرة بتحضير الطعام وهن مجتمعات في أحد البيوت. كُنَّ يطحن الذرة بالرَّحى، ويطبخنها بالحليب الحامض في قدور معدنية سوداء ذات ثلاث أرجل. كانت الأسرة تتناول وجبتها الرئيسية مجتمعة في المساء، والكل يجلسون على الأرض، ويأكلون من طبق واحد.

كان لوالد مانديلا ثلاثة أبناء من زوجات أخريات غير أنهم كانوا قد غادروا المنزل في وقت مبكر. كان مانديلا الغلام يتمتع بحرية أكبر بكثير مما حظيت به أخواته. وكان قريباً من أمّة ولكنه كان يقيم غالباً مع إحدى زوجات أبيه التي كانت تشعره بالأمان والحب ذاته الذي تشعره به (نوسيكيني فاني). أمه كان في جميع مراحل حياته يشعر بالراحة مع النساء خاصة النساء القويات القادرات على إقامة علاقات مجزية.

وعاش مانديلا في حضن أسرته الكبيرة من أبناء العم وزوجات الأب والأشقاء والشقيقات، كان مانديلا يدعو زوجات أبيه بلفظه «أمهاتي» وقد قال يوماً: «كانت لدى أمهات تدعمنني كثيراً ويعتبرنني ابنهن، وليس ابن الزوج، كن أمهات بالمعني الصحيح للكلمة». هذه السعادة التي أحاطت به كابن تحبه أربع أمهات جعلت طفولته زاخرة بالأمان. ويتحدث أحياناً بحنين عن تعدد الزوجات في ذلك الزمان، وهو يرفضه في ظروفه الحالية، ويقول «إنه غير مبرر، وهو شيء لا أشجعه».

كثيراً ما يحن مانديلا، في رسائله ومذكراته، إلي الأيام التي عاشها ريفياً، وكتب من سجنه بحماسة عن روعة التلال والجداول، وعن متعة السباحة في البرك وشرب الحليب من ضرع البقرة أو أكل الذرة مشوية على الفحم.

أدرك كثير من قادة العالم سياسيات القوة في العواصم، ولعبوا على أوتار جذورهم الريفية، مثل لويد جورج، عندما قام بزيارة قريته في ويلز، أو ليندون جونسون في حنينه إلي مزرعته في تكساس. إلا أن الرئيس مانديلا كان أكثر إصراراً في تسمية نفسه «ابن القرية»، ولسبب أقوي، وهو أن الأمان والبساطة اللذين ميَّزا نشأته الريفية لعباً دوراً حاسماً في تكوين ثقته السياسية.

لقد شدت في عضده معرفته بأجداه. فقد كان والده حفيد نغوبنغكوكا، ملك شعب التمبو الذي توفي في سنة 1832، قبل أن يتمكن البريطانيون من فرض سلطتهم على تمبولاند، الجزء الجنوبي في ترانسكي. وقد احتفظت عائلة تمبو المالكة، رغم فقرها، بهيبة خاصة في ترانسكي، حيث كانت تحظي بإخلاص الشعب واحترامه، ولم يكن مانديلا من أفراد الدرجة الأولي في العائلة المالكة، بل كان دائماً يؤكد أن ليس له أي حق في الوصول للعرش. كان مجرد واحد من عشرات الأحفاد للملك نغوبنغكوكا، هو من فرع صغير. غير أن والده كان صديقاً صدوقاً ومحل ثقة الملك داليندبيو الذي تولى عرش تمبو، وبعده ابنه الملك جونغيليزوي. كان هنداری أشبه برئيس وزراء، وكان مانديلا الفتى

يحظى باحترام جماعته.

## مانديلا الصبي

وفي سنة 1927، عندما كان مانديلا في الخامسة من عمره، ازداد قرباً من الوصي علي العرش. كان والده يعاني من مرض رئوي، وكان عندئذ يقيم في منزل والدة مانديلا، وكان صديقه جونخينتابا الوصي على عرش شعب تمبو، صديقا للعائلة وقد سمعت مابيل شقيقة مانديلا والدها يقول له: «سيدي، سوف أترك ابني اليتيم بين يديك لتعلمه، وإني أراه يتقدم ولديه طموح. علمه أن يحترمك». أجاب الوصي: «سآخذ روليهلاهلا وأعلمه». ومات هنداري بعد ذلك بفترة قصيرة، وحُمل جثمانه على نقالة إلي منزل زوجته الأولى، وذبحت بقرة في هذه المناسبة، لكن مراسم دفنه وجنازته كانت مسيحية، قام بمراسمها الأخوة مبيكيلا ودفن في المقبرة المحلية.

واصطبحت والدة مانديلا ابنها في رحلة طويلة على الأقدام من كونو إلي القصر الكبير في مكيكيز حيث كان الوصي يترأس شعبه كقائم بأعمال الملك لأن الوريث ساباتا كان أصغر من أن يستطيع إدارة شؤون البلاد. كان جونخبيتنابا، زعيماً لقبيلة كاديبا أيضاً، وكان مديناً بالفضل لوالد مانديلا الذي رشحه وصياً على العرش، مما يفسر سبب موافقته على تبني مانديلا كما لو كان ابنه. إلا أن عادات الأسرة الكبيرة في المناطق الريفية كانت أقوي بكثير مما هي في المدن، الأمر الذي لم يصرف مانديلا عن الولاء لها واحترامها.

القصر الكبير في مكيكيزويني لا يكاد يمت بأي شبه للصورة الأوروبية لقصر ملكي. ومازال الوصول إليه عسيراً إلي يومنا هذا، ولا تصل إليه سيَّارة. حيث يتفرع عن الطريق الرئيسي شعب ترابي ضيق ووعر يتعرج خلال المناطق الريفية، يهبط ثم يصعد عبر ضفاف صخرية، ويمر قرب تجمعات من الأكواخ، وكما يمر قرب محطة مهجورة للسكة الحديدية.

قد يبدو القصر الكبير لعين الزائر الغربي اليوم صغيراً ونائياً، ولكنه كان بالنسبة لمانديلا الشاب في سنة 1927 مركز العالم، وكانت فترة ميكيزويني هي سنوات تكوينه واكتسب منها سمات ملكية أثرت على حياته كلها. ولم ينسي أبداً اللحظة التي رأي فيها الوصي لأول مرة يصل في سيارة مذهلة وشعبه يرحب به بهتافات «آه... جونخينتابا». هذا المشهد الذي تكرر بعد سبعين سنه عندما قوبل الرئيس مانديلا بهتافات «آه ... داليبونغا».

لم يكن مع الصبي مانديلا في عامه التاسع سوى قروي، وكان يرتدي قميصاً قديماً وبنطالاً كاكياً قصيراً من بنطال أبيه القديم المخصص لركوب الخيل، ويذكر ابن عمه نتومبيزودوا، الذي يكبره بأربع سنوات، أنه كان خجولاً ووحيداً لا ينبس ببنت شفه، وسرعان ما رحب به جونخينتابا وزوجه نو انكلاند. شارك مانديلا ابنهما جسيتس روندا (في غرفة تضم سريرين وطاولة ومصباحاً زيتياً. وعومل مانديلا معاملة فرد من العائلة، مع نومافو ابنه جونجينتابا، ثم مع نزيكسو الأخ الأكبر لساباتا ولى عهد المملكة. رأى نفسه عضواً في أسرة مالكية، تعيش حياة أفخم

بكثير من حياة كونو، غير أنه لم يكن يشعر بالانتماء التام إلي تلك الأسرة، الأمر الذي ربما يكون قد شحذ مطامحه.

أصبح الوصي، جونخينتابا، الذي يعرف باسم دافيد داليندييبو، يمثل شخص الوالد بالنسبة لمانديلا وكان رجلاً وسيماً، دائم الأناقة، وكان مانديلا يكوي له بنطاله بحب، مما خلف لديه احتراماً طيلة حياته. كان جونخينتابا ميثوديا ملتزماً – رغم أنه كان يستمتع بالشراب – وكان يصلي كل يوم في الكنيسة القريبة التي يديرها أحد أقربائه وهو الكاهن ماتيولو. كان ابنه جستيس، الذي يكبر مانديلا بأربع سنوات، مثلاً يُقتدي به، كان مثال الشجاعة والأناقة، وكان رجلاً رياضياً، شديد التأنق وكان زير نساء. كان جستيس ماهراً في كل شيء، متفوقاً في الرياضة الجماعية كالكريكيت.

## الفصل الثاني

# مانديلا في شبابه
# من 1934 حتى 1940

مانديلا الشاب لم يختلف كثيراً في طباعه عن مانديلا الصبي وعندما بلغ (أي وصل السن البلوغ) ذهب مع وفد من قبيلة تمبو بقياد جستيس، ابن الوصي، إلي وادٍ ناءٍ على ضفاف نهر باشي، الموقع التقليدي لختان ملوك المستقبل من التمبو. ولا يمكن لأي من الكزوسا الريفيين أن يتبوأ موقع القيادة دون هذه الطقوس.

ويتذكر مانديلا الاحتفال الذي أعلن فيه بلوغ الرجولة: كانوا يومها يغنون ويرقصون مع نسوة من تلك المنطقة في الليلة التي سبقت الاحتفال؛ كانوا يستحمون في النهر عند الفجر؛ ويعرضون شجاعتهم أمام الشيوخ والوصي ذاته، الذي كان يراقبهم ليرى أنهم يتصرفون بشجاعة.

طلع عليهم الخاتن العجوز ومعه رمحه الحاد. وكان الواحد من الصبية إذا حان دوره في الختان صاح وفاقه جميعاً «أنا رجل»! كان مانديلا متوتراً وقلقاً. إنه يذكر اللحظة التي ختن فيها ويصفها؛ كأن رصاصاً مصهوراً كان ينساب في عروقه. وللحظات نسى كلماته، بينما

كان يضغط برأسه على العشب قبل أن يصيح هو أيضاً: «أنا رجل»! لكنه كان يعي أنه لم يكن شجاعاً بطبيعته وقال: «لم أكن صريحاً وقوياً مثلما كان بقية الصبية».

وعندما انفضَّ الاحتفال، طلوا وجوههم بمادة بيضاء ثم غسلوها في النهر، كان مانديلا فخوراً بحاله الجديد كرجل، وقد اتَّخذ اسماً جديداً – داليبونغا، ويعني مؤسس المجلس – وكان يشعر في قرارة ذاته أنه جزء من قبيلة عظيمة. وقد صدمته كلمات الزعيم مليغكيلي إلي صبية القبيلة، أنهم لن يكونوا حقيقة رجالاً لأنهم شعب مهزوم مسترق في وطنه.

أدرك مانديلا بعد عشر سنين أن الزعيم كان رائداً لسياسيين شجعان مثل (الفرد كزوما ويوسف دادوو وجيمس فيليبس ومايكل هارمل).

كان مانديلا يقدم على نقله اجتماعية جذرية في غمرة النظام المدرسي التبشيري الصارم. لقد كان الوصي عازماً على أن يقدم له الثقافة اللائقة، كمرشح لأن يكون المستشار الخاص له. لذلك فقد أرسله إلي المؤسسة الميثودية الكبرى في كلاركبري. عبر نهر باشي، حيث تعلَّم هو وابنه جستيس، فقد أسست سنة 1825، في عهد الملك نغوبنغكوكا جد مانديلا الأكبر، الذي قابل رائد الميثوديين وليام شو ووعده أن يقدَم له أرضاً ليقيم عليها بعثته.

وقد انشأ البعثة الكاهن ريتشاردهادي، على بعد أميال من قصر الملك الكبير. وقد سميت باسم عالم لاهوت بريطاني معروف، هو

الدكتور آدم كلارك.

ولقد كان الميثوديون أكثر المبشرين مغامرة وأعظمهم نفوذاً حيث تغلغلوا خلال الكاب الشرقي في ذات الوقت الذي دخله الجيش البريطاني أما غالبية المواطنين الكزوسا فإنهم يعتبرون التبشيريين عملاء للحكومة البريطانية، التي استعملتهمً لذر الخلاف بين الزعماء المتصارعين ولتجريدهم من سلاحهم: فقد كتب الكاتب التروتسكي نوزيغو كاجيكي سنة 1952 أن الإرسالية الويزليانية كانت دائماً على أتم الاستعداد للتعاون مع الحكومة، وكانوا قادرين على محاصرة الملك العظيم هنتسا، بتأليب بقية زعماء القبائل عليه. لكن معلمو البعثات التبشيرية كانوا يعارضون إدارة البيض، وقد لعبوا دوراً محايداً في تطوير شعب الكزوسا. فقط سجلت مدارس البعثات التبشيرية في سنة 1935 في جميع أنحاء جنوب إفريقية342181 تلميذاً.

قد يحتفظ مانديلا باحترام لتعاليم البعثات التبشيرية، بينما ينتقد نهجها وصلاتها بالإمبريالية. وقال «لقد مارست بريطانيا نفوذاً هائلاً على جيلنا، على أقل تقدير، لأن البريطانيون المتحررين وإرساليات التبشير هم الذين باشروا الثقافة في هذا البلد. وفي كلمة ألقاها في جامعة أكسفورد بعد مضي ستين سنة على أيام دراسته يوضح قائلاً: «لم تبد حكومة بلادنا حتى وقت قريب جداً، أيَّ اهتمام بتعليم السود. لقد أنشأت المؤسسات الدينية، وجهزتها، ووظفت المعلمين ودفعت لهم أجورهم؛ لذلك فإن الدين يجري في دمنا. ولولا المؤسسات التبشيرية

لما كان روبيرت موغابي ولا سيرتسي خاما، ولا أوليفر تمبو. وفي السجن أصبح أكثر وعياً بالنفوذ السياسي لكل من زعماء القبائل والمبشرين فكتب: «كنت دائماً أعتقد أن من الخطورة بمكان الاستخفاف بنفوذ كل منهما على الناس. ولهذا السبب كنت دائماً أحثُّ على الحذر في التعامل معهما».

## مانديلا في الجامعة

عند قبول مانديلا في الجامعة سنة 1934 كانت كلاركبوي قد أصبحت أكبر مركز تعليمي في تيمبولاند، وتفتخر بعراقتها في التدريس، ومعظم أساتذتها من المبشرين البريطانيين. وتوسعت، فغدت مجموعة مهيبة من الأبنية الحجرية الراسخة، تضم كلية لإعداد المعلمين، ومدرسة ثانوية، وأماكن تدريب على دورات عملية، وفيها سكن للصبيان وآخر للبنات، وباحات للرياضة ولعب التنس. كانت مستوطنة متكاملة تحتل أحد السفوح المنعزلة في منطقة إنغكوبو، ولها جاليتها الخاصة الناشطة، وأصبحت إنجازاتها بالغة الأهمية إثر إدخال تعليم البانتو سنة 1935، وعندما خسرت أموالها وأصبحت، ليس فيها سوى مدرسة صغيرة وكنيسة ميثودية، وسقوف منهارة وقاعات للدراسة متآكلة، أحرقها الطلاب المتظاهرون ضد الحكومة البانتوستانية الترانسكية. ومازال هناك بعض ما يُذكر بمجدها الغابر، ويتضمن لوحة تذكارية نقش عليها اسم مدرسة داليندييو التبشيرية بنيت سنة 1929. وقد أعيد بناء بعض المباني، لتكون مدرسة حديثه، ويقول مدير المدرسة

إنها ستقوم بتدريب الكزوسين على إحداث فرص عمل، بدل البحث عن تلك الفرص، وإن مانديلا حث السكان المحليين على أن يدركوا أن الجاليات الصغيرة تستطيع أن تنجب قادة كبار. وكان مانديلا يزور كلاركبوري ويتحدث ويكتب عنها بحرارة، وقد اختارها لتكون الموقع الذي يطلق منه نسخة جديدة من سيرته الذاتية.

كانت كلاركبوي سنة 1934 في قمة إنجازها تقريباً. كان يديرها تربوي رائع هو الأب سيسيل هاريس، الذي كان وثيق الصلة بالجماعات الكزوسية المحلية وزعمائها. نبَّه الوصي مانديلا كي يعامل هاريس بما يليق به من الاحترام لأنه «تمبووي القلب» وصافحه مانديلا باحترام، كانت أول يد بيضاء يصافحها. وكان هاريس كلاركبوري بقبضة حديدية، كان أشبه بقائد عسكري منه بمدير مدرسة. كانت له طبيعة أرستقراطية، يمشي مشية جندي، كما كان في الحرب العالمية الأولي. يذكر مانديلا أنه كان صارماً جداً في تعامله مع الطلاب. «كان قاسياً دون طيش». غير أن مانديلا لمس جانباً أكثر إنسانية وودأ في هاريس وزوجته عندما عمل في حديقتهما. وبعد سنوات، وعندما كان في السجن، استقصي عنوان مافيس نييبي ابنة هاريس، التي كانت طفلة يوم كان هو في كلاركبوري. و«صعقت» الابنة حين وصلتها رسالة من سجين مشهور هو (مانديلا)

وذكرها مانديلا كيف كانت والدتها تقدم له كعكة بالزبده أو خبزاً بالمربي، كانت بالنسبة لصبي في السادسة عشر أشبه باحتفال ملكي. وطلب منها بعض المعلومات عن أسرة دليندييو: وقال «في عمرنا يصبح

الإنسان بالغ الاهتمام بالحقائق والوقائع التي لم نولها ما تستحقه من الاهتمام يوم كنا شباباً».

في المدرسة كان مانديلا يتوقع معاملة محترمة من الطلاب الآخرين لأنه سليل أسرة ملكية وقد أسس جده المدرسة. غير أنه كان موضع هزء إحدى الطالبات لأنه يمشي بحذائه الجديد مثل «حصان بمهماز».

وجد نفسه بين جماعة تحترم الذكاء والموهبة أكثر من الوضع العائلي الموروث. فقد استعاد رباط جأشه بعد الصدمة الأولي، واستطاع بفضل ذاكرته القوية الحصول علي شهادة جونيور سيرتيفيكت (الدراسة المتوسطة) خلال سنتين. كما أقام علاقات صاداقة دائمة مع أونوربرزك بالا الذي أصبح فيما بعد طبيباً انضم إلي صفوف المعارضة في ترانسكي، وكان يراسل مانديلا في سجنه. (وآرثر داماني) الذي أصبح صحفياً في صحيفة الغارديان الراديكالية. عندما دخل مانديلا السجن في بويتوريا سنة 1960.

بعد سنتين في كلاركبوري، أُرسل مانديلا إلي هيلدتاون، وهي مؤسسة ميثودية أكبر، حيث سار أيضاً عن طريق جستيس ابن الوصي. كانت هيلدتاون بعيدة مثل كلاركبوري، ولكي يصل إليها عليه السير عشرة أميال من فورت بوفورت على طريق ترابي يتعرج عبر الوادي قاطعاً جداول وجداول، إلي أن يصل إلي أبنية جميلة على الطراز الفيكتوري ذات أسقف حمراء متموجة، تشرف على وادٍ شديد الإنحدار، واليوم لم يبق من المدرسة سوى أطلال، وقد أعيد بناء المبني المركزي الجميل الرائع.

كان لهيلدتاون المدينة التي تصغر كلاركبوري بثلاثين سنة، تاريخ أعمق رجعاً. فقد أسست سنة 1855 بعد أن أخضع السير هاري سميث قبائل الكزوسا المحاصرين في وسط مناطق المعارك. كانت موقعاً بريطانياً متميزاً أسفل الجرف الكبير لجبال آماتولا حيث لجأ الكزوسيون المهزومون، وتحيط بها نقاط حدودية عسكرية قديمة (فورت بوفورت، وفورت هاري، وفورت براون) وكانت تتبع المذهب الميثودي بصرامة، وقد سمى الموقع باسم جيمس هيلد البريطاني الوليزياني الميثودي الذي كان عضواً في البرلمان البريطاني، غير أنها بنيت أيضاً لتكون تجربة عملية في تدريب المسيحيين الفينغو على الحرف والصناعة. لقد فشلت تلك التجربة الأولي، غير أن الكلية وسعت مجالها واستيعابها لتصبح كلية لتدريب المعلمين ومدرسة ثانوية مهمة. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين كانت تضم أكثر من ثمانمائة طالب داخلي. وكانت قريبة من المراكز التعليمية التبشيرية مثل لوفديل وسانت ماثيو وفورت هاري.

قدمت هليدتاون، مثلها مثل كلاركبوري، تعليماً بريطانياً متشدداً مع بضعة تنازلات لصالح الثقافة الكزوسية. وكثيراً ما كانت الطقوس التبشيرية والإمبريالية تندمج ببعضها، وبخاصَّة في أيام الآحاد، عندما كان طلاب المدرسية الصبيان والبنات يسيرون في صفوف منفصلة إلي الكنيسة بقمصانهم البيضاء، وستراتهم السوداء وربطات العنق الكستناوية المذهبة. يرفعون راية يونيون جاك.

وينشدون جميعاً «ليحفظ الله الملك» بصحبة_ فرقة المدرسة

للموسيقي النحاسية وتحت أنظار الزوار المعجبين الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب. كان الكاهن آرثر ويلنغتون مديراً للمدرسة منذ سنة 1927 - والذي طالما استمتع مانديلا بتقليده - وكان بطل إنكليزي محافظ كان يفخر بانحداره من نسل بطل ووترلو - ويلنغتون الأدب والتاريخ البريطاني في أذهان تلاميذه بمساعدة طاقم إنكليزي، وقام بالدعاية للمدرسة بدعوة بريطانيين بارزين لزيارتهما، منهم اللورد كلاريندن، الحاكم العام لجنوب إفريقية، الذي أرسى، قبيل وصول مانديلا، حجر الأساس لمهاجع جديدة وقاعة للطعام. كان ويلنغتون مستبداً نشيطاً - رغم أنه كان يتهم نفسه بالكسل - يدعي أنه يدير أكبر مؤسسة تعليمية جنوب الصحراء الكبري (في الحقيقة كانت لوفديل أكبر منها). منع شرب الكحول في هيلدتاون. وكان طاقم العاملين معه يسمونه «البطة»، ويعتبرونه رجل دوبة تبشيري. كتب جاك دوغارد، الذي كان يدير مدرسة تدريب المعلمين بعد سنة 1932 «بعد فترة من تولي ويلينغتون تحولت البعثة العتيقة إلي مركز تعليمي مرموق».

لم تترك ميثودية هيلدتاون وكلاركبوري أثراً ديناً عميقاً في مانديلا. فما كان له أن يصبح مؤمناً حقيقياً، رغم أن كثيراً من أصدقائه في الفترة اللاحقة ومنهم زوجته قد تلقوا تعليميهم لدى الميثوديين. إلا أنه كان يتأثر دائماً بجو المدرسة البيوريتاني (التطهري المتزمت)، والنظام الصارم والتدريب الذهني، والتركيز الويزلياني على تجريد الأفكار إلي جوهرها الأصلي، وتفادي التكلف والنزاع. كان دائماً يشجب الإفراط

في الشراب أو الشتم، كما أن الاعتماد على الذات الذي تعلمه في هذه المدرسة الداخلية زاده تماسكاً وصلابة في ما بعد.

لم يكن مانديلا مستغرقاً في الميثودية فحسب وإنما أيضاً في تاريخ وجغرافية بريطانيا، إذ يذكر وهو في سجنه قائلاً: «عندما كنت يافعاً في الريف كنت أعرف عن لندن وغلاسكو بقدر معرفتي بكيب تاون وجوهانسبورغ» وذلك في معرض مراسلاته مع عمدة غلاسكو، حيث ذكر أبطالاً اسكوتلنديين مثل (ويليام والاس) وروبرت البروس و إيرب آرغايل إلا أنه كان يرفض أن يصبح «الإنكليزي الأسود»، وكان يفخر بشكل كبير بتراثه الكزوسي، بتشجيع من أستاذ التاريخ (ويفر نيوانا) الذي كان شخصاً محبوباً، وكان يضيف تاريخه المحكي إلي قصص الحرب الكزوسية في عام 1938. وشعر بنشوة كبيرة عندما قام الشاعر الكزوسي الشهير (كروني مكواي) بزيارة للكلية بلباسه التقليدي (الكاروس) المصنوع من جلد الحيوان، حاملاً رمحين، ليلقي قصائده الجياشة في مديح الكزوسين.

أقام مانديلا صداقات متينة مع العديد من الفتيان الكزوسيين الذين انضموا فيما بعد إلي المؤتمر الإفريقي، ومنهم (جيمي نجوتغوي) الذي ذاق معه الجوع والمعاناة في جوهانسبورغ، والذي أصبح طبيباً ثم منظماً رئيسياً لحملة التحدي في ما بعد.

كما أقام صداقات خارج قبيلته مع الناطقين بالسوتو مثل (زكريا موليتي، الذي رافقه في ضاحيةآليكساندرا في جوهانسبورغ، وأستاذ

علم الحيوان (فرانك لينتليل) كما تأثر مانديلا تأثراً عميقاً بصاحب بيته الكاهن (سيث موكيتيمي) الذي كان يتحدث بالسوثو أيضاً، وأصبح فيما بعد أول رئيس أسود للكنيسة الميثودية. وقد أدخل موكيتيمي إصلاحات تعطي الطلاب حرية أكثر وطعاماً أفضل.

انعزل الأساتذة البيض في هيلدتاون عن الأساتذة السود، وكانوا يتناولون طعامهم لوحدهم، حتى أن واحداً منهم اضطر إلي الاستقالة عندما اشتكي الأساتذة الآخرون من أنه يصادق السود. وقد كتب (فيليس نتانتالا) الذي كان تلميذاً حتى عام 1935، والذي انضم ابنه (بالو جوردان) إلي حكومة مانديلا، كتب قائلا «إن أكثر مكان عنصري كانت هيلدتاون ومازالت». إلا أن قلة من الأساتذة البيض الأصغر سناً بدأوا بمصادقة زملائهم، وبعض الطلاب.

كانت المدرسة مختلطة، مثلها مثل (كلاركبوري) إلا أن البنات والصبيان كانوا يفصلون عن بعضهم بصرامة خارج غرف الصف، ولكن بحلول عام 1935 كان الكاهن موكيتيمي قد رسخ عادة إقامة حفلات عشاء مختلطة أيام الآحاد. حيث كان الصبيان والبنات يجلسون سويا ويرتدون أفضل ثيابهم. وكان الطلاب الأكثر حذلقة ويحبون التباهي، حيث كتب فيليبس نتانتالا «كانوا يذهبون إلي حفلات العشاء تلك مجهدين من شدة التأنق».

ولكن بالنسبة للقادمين من بيوت أكثر بساطة كانت آداب المائدة الأوروبية التي تعتمد على الشوكة والسكين متعبة. ويقول مانديلا في

هذا الصدد: «كنا نغادر المائدة جائعين ومكتئبين».

ولم يكن الدوق وطاقمه الأبيض يعرفون أنهم يعلمون قادة المستقبل من السود. كانوا يستاؤون من احتياجات الطلبة وإضراباتهم، التي تبدأ عادة بسبب الطعام الردئ، ولكنها كانت، فيما يعتقدرون، تمت إلي نزاعات بين القبائل، أو بين الريف والمدينة. وشهد عام 1937 احتجاجات سياسية أكثر خطورة عندما نصّت قوانين هيرتزوغ الجديدة التي أصدرتها الحكومة على إستبعاد السود من قوائم الناخبين العاديين وأبطلت سندات التمليك التي بحوزة الفينغو المحليين، الذين ذهلوا لتقاعس أفراد البعثة التبشيرية عن الدفاع عن مصالحهم.

ولم يكن مانديلا آنذاك يلم إلماماً كافياً بالجوانب السياسية من حياة المواطنين السود. وفي هيلدتاون سمع لأول مرة بالمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أسس في عام 1912. وكان ملك (تمبو) قد دفع ثلاثين بقرة ليسجل قبيلته في المؤتمر. ولكنه، بالنسبة لمانديلا، كان شيئاً غامضاً من الماضي السحيق. كان أساتذة البعثة يعزون أي احتجاجات سياسية إلي «محرضين» تحركهم الشيوعية.

كان مانديلا ممزقاً بين وجهين للتواجد البريطاني في جنوب إفريقية، الإخضاع العسكري الوحشي للكزوسيين، والتأثير التنويري للتعليم الإنكليزي الليبرالي. هذا التناقض لخص في قصيدة «أمير بريطانيا» التي كتبها شاعر مانديلا المفضل مكواي احتفاءً بزيارة أمير ويلز (للسيسكي) في عام 1925:

أرسلتم لنا الحقيقة، وأنكرتم علينا الحقيقة،

أرسلتم لنا الحياة، وحرمتمونا الحياة،

أرسلتم لنا النور، ونحن نعاني الظلام

نرتجف وقد دهمنا الليل في شمس الظهيرة المشرقة

تخرج مانديلا من هيلدتاون في عام 1938، ثم ذهب في العام التالي إلى الجامعة في(فورت هير) التي تبعد بضعة أميال عن هيلدتدون وميلاً واحداً عن المدرسة التبشيرية الكبرى في (لوفديل) التي كانت مرتبطة بها. أحضر له الوصي بزة من ثلاث قطع، وقال (نتومبيزودوا) ابن عم مانديلا: «لقد ظننا أنه سيكون أكثر الشباب أناقة في فورت هير».

كانت جامعة «جنوب إفريقيا الأهلية» في فورت هير جامعة صغيرة للسود، وكانت الوحيدة من نوعها في جنوب أفريقيا، إلا أنها كانت تربة خصبة للثورة. وفي عام 1939 لم تكن قد تجاوزت بعد عامها الثالث والعشرين، حيث أنشئت في منتصف الحرب العالمية الأولى، وافتتحها (لويس بوثا) رئيس الوزراء بنفسه. وإعتمد (ألكسندر كير) أول رئيس للجامعة، واعتبرها استرضاء، أو إيماءة للسود في وقت الحرب، عندما كان البيض يخشون «متاعب أهليه». ولكن بعد أن شددت الحكومات البيضاء مواقفها من السود في العشرينات من القرن العشرين كان وجودها الشاذ أكثر إثارة للانتباه. لم يقلق رئيس الوزراء التالي الجنرال (جان سموتس) كثيراً من كوامن الثورة الدفينة فيها، ونظر إلى فورت هير ضمن إطار سياسة الوصاية. وعندما خاطب خريجي الجامعة عام

1938، في العام الذي سبق قدوم مانديلا، قال «لقد أتى الأوروبيون إلي هنا كحملة الثقافة الأعلى، وكانوا بشكل أو بآخر عرقا تبشيرياً، ولكن إذا كان لشعوب جنوب إفريقية الأهليين أن يعرفوا الخلاص فإن عليهم أن يأتي في النهاية من لدنهم».

كانت انطلاقة الجامعة متواضعة جداً، حيث كان فيها عند إنشائها عشرون طالباً يحضرون لامتحان القبول.

وعندما وصل مانايلا كان عدد الطلاب أقل من مائتين (ستة وسبعون منهم كانوا من الناطقين الكزوسية)، من ضمنهم عشرة هنود وستة عشر من الملونين. إلا أن تأثير فورت هير كان أكبر بكثير من عدد طلابها. فقد أصبحت، بدعم من المدارس المحيطة بها، قبلة النخبة المثقفة من سود جنوب إفريقيا. وكان طلابها من الأرستقراطيين والنخبويين، أي أنها جمعت بين الأسر الملكية والأسر التبشيرية. ولم يكن مؤسسوها من المبشرين البيض فقط وإنما من دعاة الثقافة السود من أسر تبشيرية رائدة، منها أسرة (جايافو) و (ماكيوين) ويرتبطون جميعا بصلة النسب. كان المدرس الكبير (جون تينغو جابافو) رئيس تحرير جريدة (إيمفو) الناطقة بلسان السود، من مشجعي فورت هير وكان ابنة جيلي أول أستاذ أسود فيها، وتزوج ابنة الكاهن (تينسون ماكيوين) وفيما بعد انضم أستاذ آخر إلي جيلي جابافو هو (ز. ك متشيوز) ابن أحد المشتغلين بالتعدين في (كيمبرلي) الذي أصبح أول خريجي فورت هير.

هذه النخبة الصغيرة تلقت تعليماً جيداً لأن فورت هير قبلت نساء

بين طلابها منذ البداية. ولقد احتج المدير أول الأمر، إلا أن الأعضاء الإفريقيين أعربوا عن «عدم جدوى تعليم شبابهم إذا لم تكن زوجاتهم قادرات على تقديم الصحبة والاهتمامات المشتركة التي لا تستطيع أن تقدمها سوى المرأة المتعلمة» في أواخر الثلاثينات، عندما وصل مانديلا، لم يكن في فورت هير سوى بضع طالبات، كن يقمن في نزل منفصل في بيت زراعي قديم. كانت الحاجة إليهن كبيرة، وكن غالباً أكثر مهارة من الرجال، مما سبب صدمة لمانديلا، إلا أنه كان يعرف أن هناك نساء قويات بين أسلافه الكزوسيين، ومنهم والدته التي أسست عشيرته. وقال فيما بعد: «شغلت النساء مناصب القادة والملوك في بعض الأوقات الأكثر حرجا في تاريخنا».

واستطاعت أجيال الطلبة من فورت هير ولوفديل، أن تنشئ شبكات عائلية رائعة، وغالباً ما كانت مسيحية قوية، لا تقرب الخمرة إلا قليلاً، تشبه الشبكات البريطانية الفيكتورية الأولى مثل (طائفة كلافام) وقد قالت (نوني) ابنة جيلي جابافو، التي أمضت بضع سنوات في بريطانيا في وصف شبكة أسرتها الواسعة بأنها تنطلق من فورت هير ولوفديل، وتذكرها بالروابط المدرسية الإنكليزية القديمة. لكن تلك الشبكة انقطعت أوصرها بشكل مأساوي أثناء سنوات التفرقة العنصرية وذلك بسبب التمييز السياسي والطبقي. إلا أن الطبقة الوسطى المهنية السوداء، بما لها من نفوذ تبشيري، لم تدمر أو تهمش، كما حدث في أجزاء أخرى من إفريقيا مثل غانا أو اوغندة. حتى أن بعض أبنائها،

ومنهم بالو جوردان، ابن فيليس نتانتالا وإيه سي (جوردان)، (استيلا سيغكاو)، ابنة ملك بوندولاند الشرقية، انضموا إلي حكومة نيلسون مانديلا عام 1994.

لم يكن مانديلا يوماً في قلب هذه النخبة المثقفة، إلا أنها كانت تضم كثيراً من أصدقائه وأقربائه. وكان دائماً يكن الاحترام ل.ز.ك. ماثيوز، الذي كانت تربطه به أواصر القربى. كان الأستاذ الضخم القوي البنية الذي درس أجيالاً من الطلاب السود في فورت هير وكان يثير حنق كثير من الثوار لاعتداله السياسي، إلا أنه كان يؤثر فيهم عادة بقوة إقناعه ونقاشه الهادي.

إزداد مانديلا إعجاباً بماثيوز بعد أن وضع ميثاق الحرية للمجلس الوطني الإفريقي في الخمسينات وقد كتب لأرملة ماثيوز بعد وفاته في عام 1970 «هناك أشخاص داخل وخارج الحركة ينتقدون موقفة الحذر، ولكني لا أستطيع الآن أن أجزم بأنهم لم يكونوا متهورين».

كانت فورت هير التي التحق بها مانديلا في عام 1939 معهداً صغيراً يتألف من أبنية محيطة بساحة رباعية الزوايا من الأبنية الإيطالية البسيطة تحيط بها بيوت سكن الطلاب. كانت ما تزال خاضعة لسيطرة مديرها الأول ألكسندر كير، الاسكتلندي الصارم الذي كان يتفادى الجدل المقام ولكنة كان ملتزما بتطوير وتحسين المستويات الأكاديمية للجامعة دون تحيز للون. حيث قال ز. ك. مأثيوز إنه كان يتعامل مع كل طالب كما هو، ولم يكن للون دخل في العلاقة». كان كير مدرساً متحمساً

للغة الإنكليزية، يشرب طلابه حب آدابها، وخاصة شكسبير، الذي كان يدرسه بحيوية، جعلته وثيق الصلة بإفريقيا.

ولكن التحررية (الليبرالية) التي كان يتمتع بها كير والأستاذان الإفريقيان جابافو وماتثيوز شدت عضد الطلاب في المراحل التالية من ثورتهم. بالإضافة إلى الطلاب الملونين والهنود. كانت فورت هير تضم قلة من البيض المحليين، ولكن الإفريقيين كانوا الأكثرية، وفيما بعد قام أكاديمي أمريكي - إفريقي هو (رالف بانش) الذي أصبح فيما بعد نائب الأمين العام للأمم المتحدة، وفاز بجائزة نوبل، قام بزيارة لفورت هير في عام 1938، وقال «إن الطالب المحلي الجيد يعادل أي طالب هندي أو ملون».

كان مانديلا فخوراً لكونه في فورت هير، وكان الوصي سعيداً لانتساب أحد أبناء عشيرته إلى تلك الكلية الذائعة الصيت. وكان الأساتذة يقولون لتلاميذهم إنهم سيصبحون قادة شعبهم، وعندما وصل مانديلا كطالب مستجد في الحادية والعشرين من عمره أرهبته الثقة والثقافة الرفيعة لدى متقدميه. بقي صديقه جاستيس في هيلدتاون، إلا أن مانديلا وجد حليفاً جديداً صدوقاً في شخص (قيصر ماتانزيما) ابن أخته من أسرة تمبو الملكية.

فمثل مانديلا كان (قيصر) الذي عرف باسم (كي دي) وهو ينحدر من أسرة الملك (نغوبنغكوكا) ولكن من الخط الأعلى مقاماً، من «البيت الكبير»، وكان مستقبلة مقرراً كملك أو زعيم ذي سلطة عليا، كان ابن

أخت مانديلا إلا أنه كان أكبر سناً وأكثر ثقة كقائد ومثقف. مما جعله أول زعيم يحمل شهادة عالية، وقد أصبح المعلم الناصح لمانديلا وشجعه أثناء قيامه بدوره في المستقبل كمستشار ملكي. وفيما بعد أصبح كل منهما خصماً سياسياً للآخر. إلا أنهما كانا خير صديقين في فورت هير. كانا يعيشان في بيت الطلبة الميثودي. ويذهبان إلى الكنيسة معاً، ويلعبان كرة القدم، ويذهبان للرقص، ولا يشربان الكحول. كانا طويلي القامة، يتحليان بعادات الريف. يقول قيصر «كنا شابين على درجة كبيرة من الوسامة جعلتنا محط أنظار كل النساء»، وحتى الاسمان اللذان أطلقا عليهما عند ختانهما في القبيلة كانا كاسمين لتوأمين (داليبونغا) و (داليوونغا) وبعد ستين سنه، كان قيصر يستعيد ذكرى تلك الصداقة الشابة وهو في قصره الكبير في ترانسكي ويقول: «كنا متلازمين دائماً. وعندما كان أحدهم يجدني وحيداً كان يسأل: أين نيلسون؟ ... كنا نشعر بدفء الود والألفة». حتى أن مانديلا هو الذي وجد لقيصر زوجاً هي (أغرينث) ابنة الزعيم (سانغوني)، الأمر الذي كان بالغ الأهمية. وبالرغم من خلافاتهما السياسية التالية لم يكن مانديلا يوماً لينكر إعجابه المبكر (بماتانزيما).

بالرغم من أن مانديلا كان أقل عظمة من (كي دي) إلا أنه كان يعتبر أميراً شاباً، وكان للأسر المالكة موقع خاص حتى في المحيط الثقافي في فورت هير، يوحي بالاحترام والتحفظ. قال جو ماثيوز، «كان الأمراء الكزوسيون يعتقدون أن العالم ملكهم. كان بعضهم يركل رجال القبيلة

ليبعدهم عن طريقه، من منطلق أن كل مَنْ هو سواهم غير ذي شأن، الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يصدقوا أنك ستخالفهم، مثل النساء في محلات هارودز في بريطانيا اللاتي يتجاهلن الجميع».

لم يتصرف مانديلا يوماً بمثل ذلك الغرور وكان دائماً يحترم عامة الناس الذين كانوا أمهر منه مثل أوليفر تمبو، لكنة أعتاد أن يعامله الناس معاملة الأمراء.

تفتح مانديلا في فورت هير، وأحب موقع الجامعة الجميل على ضفاف نهر (تيومي) أسفل جبال (آماتولا) وكان مانديلا يستعيد فيما بعد ذكريات الرحلة على خط سكة القطار المتعرج جانب الجبل، والمشهد الرائع من الشجيرات الخضراء والجداول المتدفقة بعد أمطار الصيف، والمرج الفسيح والهواء النقي. وتفوقه في سباق الضاحية والملاكمة، وكان أبطال هذا السباق من الرياضيين أكثر مما كانوا من المثقفين. وعندما كان في سجنه، كتب يسأل عن منافسة في سباقات الأميال (سوميثز موغواكونغ)، كان يستمتع بالرقص في قاعات الرقص وبالمشاركة في المسرح حتى أنه مرة أدى دور(جون ويلكزبوث) قاتل إبراهام لينكولن. وقد أقام صداقات كثيرة من مختلف المشارب في هذا المكان الذي يجمع السود من كافة أرجاء البلاد.

كان بعض أصدقاء مانديلا ناشطين في السياسة منذ ذلك الوقت المبكر مثل بول ماهاباني الذي كان يقضي أيام العطل معه، وهو ابن رئيس سابق للمؤتمر الوطني الإفريقي (ونتسو موخيهلي)، والعالم

الفذ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لحزب مؤتمر باسوتولاند، و (نياثي خونغيزا) الذي حرك الطلاب بمهاجمته سموتس رئيس الوزراء كونه عنصرياً وتمنى علنا لو أن ألمانيا النازية تهزم بريطانيا كي يستطع الإفريقيون الإطاحة بالهيمنة الأوروبية. وانضم (لينكولن مكينتاني) وهو سلسل أسرة ترانسكية كبيرة أخري إلي المؤتمر الوطني الإفريقي وسجن، وكان أوليفر تمبو، المثقف المتميز في العلوم والأدب ماهراً في المناظرات السياسية إلا أن مانديلا نفسه لم يكن ناضجاً سياسياً إذ ذاك. لم يكن قريباً من تمبو، وكان يشعر بالحرج إزاء النزعة الثورية لأصدقاء مثل ماهاباني.

معظم الطلاب لم تكن لديهم ميول سياسية أيضاً. وكانوا يتوقعون أن يصبحوا موظفين أو على الأغلب مدرسين، مما آثار قلق مجلس إدارة الجامعة الذي أفاد في عام 1940 بأنه «لا يمكن أن نتوقع أن مهنة التدريس ستستوعب جميع الخريجين». ومر وقت كانت فيه فورت هير أكثر ثورية. ففي أوائل عقد الثلاثينات من القرن العشرين كان الشيوعي الشاب (أيدي روكس) قد نصب خيمة على التل قرب الجامعة، ونظم دورات في الماركسية - اللينينية سحرت الطلاب الإفريقيين ومنهم (غوفان مبيكي) الشاب فيما كان الأمريكي الأسود (ماكس بيرغان) يدرس المادية الجدلية. أما في أيام مانديلا فقد كان الشغل الشاغل لمعظم الطلاب هو مستقبلهم المهني، وكانت الخيمة الحمراء قد خبا بريقها عقب تحالف استالين مع هتلر في آب (أغسطس) 1939. وبعد

وصول مانديلا إلى فورت هير أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وأعلن رئيس الوزراء (جان سموتز) فوراً عن دخول جنوب إفريقيا الحرب إلى جانب بريطانية. وعندما أتى سموتز ليتحدث إلى الطلاب في فورت هير صفقوا له كلهم تقريباً - بما فيهم مانديلا، الذي سره أن سموتز يتحدث الإنكليزية بلكنة ركيكة كلكنته هو. وقد دعم مانديلا بحماسة موقف بريطانيا ضد هتلر، وظل مأخوذاً بونستون تشرسل.

بدت فرص النجاح مشرقة في مستقبل مانديلا، إلا أن نزعته الثورية أطاحت بتلك الآمال. ولم يكن الأمر وقتها يتعلق بالسياسية، ولكن بقضية أكثر إلحاحاً هي قضية الطعام. كانت الوجبات في فورت هير تتسم بالبساطة والتقشف، وشعر الطلاب الإفريقيون بالغبن عندما اكتشفوا بأن الطلاب البيض في جامعة رودوس، التي زاروها لإجراء مباريات رياضية ومناظرات، كانوا يغذون بشكل أفضل بكثير. وفي عامه الثاني انتخب مانديلا لعضوية مجلس تمثيل الطلبة، إلا أن ربع الطلاب الذين يحق لهم الانتخاب فقط أدلوا بأصواتهم فقط إذ قاطعت الأغلبية الانتخابات وطالبت بتحسينات في النظام الغذائي للكلية ومزيد من السلطات للمجلس. وقدم مانديلا وخمسة آخرون من الممثلين المنتخبين استقالتهم، وأصدر المدير الماكر الدكتور (كير) أوامر بإجراء انتخابات جديدة، تجري وقت العشاء، حيث يكون جميع الطلاب حاضرين. ولكن مرة أخرى لم يدل سوى ربع الطلاب بأصواتهم. وانتخبوا الممثلين الستة أنفسهم .

واتفق الخمسة الآخرون على البقاء في المجلس إلا أن مانديلا شعر أنه لا يستطيع أن يتجاهل آراء الأغلبية، فاستقال مرة أخرى. وشجعه في موقفة قيصر ماتانزيما الذي سبق أن كان في المجلس.

استدعى الدكتور كير مانديلا، وحذره بتعاطف لا يخلو من صرامة من أنه إذا استمر في المقاومة فإنه سيطرد. لم ينم مانديلا ليلته تلك، إذ كان ممزقاً بين طموحه وواجبه تجاه أخوته الطلاب. وأكد في اليوم التالي أنه لن يمتثل. فأعطاه كير فرصة أخيرة ليعيد التفكير، وطلب منه أن يعود إلى دراسته. رفض مانديلا، من زاوية اعتقاده بأن كير ينتهك حقوق الطلاب، وطرد إثر ذلك. وعاد مانديلا إلي القصر الكبير، قال له الوصي، الغاضب لأنه أضاع مستقبله، أن عليه أن يعود ويعتذر ويعود إلى فورت هير، إلا أن عناد مانديلا كان في أوجه.

وسرعان ما القي الوصي مفاجأة مذهلة أوصلت علاقتهما إلى الأوج. إذ تملكته فكرة. ورتب لزواج جاستيس ومانديلا واستقرارهما كل مع أسرته. روّع ذلك مانديلا فالفتاة التي اختيرت له كانت أقرب إلى السمنة ولم يشعر بميل إليها، كما كان يعرف أنها تحب جاستيس.

كانت تلك نقطة القطيعة. كان مانديلا يعرف أنه مدين بالكثير للوصي، الذي تبناه كما لو كان ابنه ومول تعليمه، إلا أنه كان مصمماً على التمسك بحريته. فقرر الهرب سريعاً مع جاستيس ليجرب حظه في جوهانسبورغ.

وقد كتب فيما بعد أن الحياة تعرف كيف تفرض قراراتها على

المترددين». هذا كان خياره هو، الذي أنهى بشكل قاطع آماله القبلية ومستقبله الجامعي: وقال مانديلا: «فجأة تداعت جميع أحلامي الجميلة، والفوز الذي كان يناديني تبخر كالثلج تحت شمس الصيف» إلا أن قراره كانت له تبعات أكبر مما كان يتخيل. حيث فكر بعد أربعة عقود وهو في سجنه لو أنه استجاب لتغيرت الأمور وقال: «لربما نجوت من جميع العواصف ألتي عصفت بي وحملتني من مكان لآخر على مدى السنوات الثلاثين الماضية، فقد وجد نفسه في خضم بحر يزخر بالأخطار. إلا أنه بدأ يفتح أمامه ببطء آفاقاً أوسع. أستطاع من خلالها أن يرى تاريخ وتراث شعبة ضمن إطار التاريخ والتراث الثقافي للجنس البشري كله».

## الفصل الثالث

# نيلسون مانديلا في العاصمة جوهانسبرج

وبدأت رحلة أخرى من رحلات تنقل مانديلا من مكان لآخر غادر مانديلا في نيسان (أبريل) 1941 القصر الكبير متجهاً إلي جوهانسبورغ من جاستين وكان وقتها في الثانية والعشرين. كان واحداً من آلاف السود القرويين الذين يصلون كل عام إلي مدينة الذهب، معظمهم يلتفون ببطانات أو بثياب رثه، يأملون أن يجدوا عملاً كعمال مناجم أو خدم أو شغيلة. كان مظهرهم مألوفاً بالنسبة للبيض في جوهانسبورغ وكان وصولهم مثلاً حياً للنقلة من فقر الريف إلي تكلف العاصمة، وخاصة الصورة المتكررة لقبلي حائر يحملق ذاهلاً في ناطحات السحاب، والسيارات السريعة والأنوار البراقة لمدينة الرجل الأبيض، إلا أنها صورة مضللة: فالأفريقيون القرويون القادمون من بيوت أصلية ذات جذور قد يشعرون بأمان أكبر وطموح أوضح في غابة المدينة من سكان المدن ممن ليست لهم جذور، وأخذوا فوضى المدينة على أنها من المسلمات. وقلة من البيض أدركوا أن هؤلاء الريفيين البسطاء يضمون شباباً طموحين على مستوى عال من التعليم ولديهم عاداتهم الأصلية، وسيثبتون مقدرتهم على هزيمة تفوق البيض في سنوات معدودة.

لم تكن جوهانسبورغ قد تجاوزت عامها الخامس والخمسين، إلا أنها كانت واحدة من المدن الرئيسية في إفريقيا، فيها مركز تجاري متكامل يضم

فنادق كبيرة وكاتدرائية من الحجر، ولها ضواح غنية تنتشر نحو الشمال وتتصل بها سلسلة غير منتظمة من القرى السوداء إلي الجنوب الغربي.

كانت الحرب العالمية الثانية تحرك اقتصاداً ناشطاً في جنوب إفريقية، فقد أدي تخفيض الاستيراد إلي تنشيط الإنتاج المحلي، كما أصبحت الحاجة ملحة لإحلال قوة عمل سوداء محل العمال البيض الذين كان كثير منهم يحارب وراء البحار. وفي الإحصاء الرسمي للسكان ما بين عامي 1936 و 1946 ازداد عدد السكان السود في مدن جنوب إفريقية بمعدل حوالي 50% وعندما اكتسح الجفاف المناطق القبلية الريفية تحول النزوح إلي جوهانسبورغ إلي فيضان، وتخلت الحكومة لمدة عامين عن ضبط حركة السكان عن طريق فرض قوانين تقيد التنقل. أدي هذا التدافع إلي ظهور بلدات عشوائية فقيرة من الأكواخ على أطراف المدينة، إلا أنه أوجد أيضاً آمالاً وفرصاً جديدة للشباب السود الطموحين. وأثار تطلعات سياسية جديدة شجعتها الحرب.

كانت حكومة جنوب إفريقية بحاجة إلي دعم السود أيام الحرب، وقد جندت القوات المسلحة 120.000 إفريقي وملون كسائقين وخدم وحراس كانوا مسلحين بالرماح، بدل البنادق، ولكنهم كانوا يشعرون أنهم يشاركون في القتال ضد النازية والعنصرية. وفي منتصف الحرب بدأت الحكومة بالتراخي في تطبيق سياستها التقليدية بالعزل العرقي (التمييز العنصري) حيث حاصرت السود في قراهم ومدارسهم وحافلاتهم الخاصة. وفي خطاب رئيسي أدلى به رئيس الوزراء (سموتس) في شباط / فبراير 1942 تحدث عن الفشل الذريع الذي آلت إليه الآمال الكبيرة

التي علقها البيض على العزل العرقي، إذ تحرك العالم في الاتجاه المعاكس: «لقد ذهبت العزلة وآتت التفرقة العنصرية ثماراً رديئة»

توجه مانديلا وجاستيس إلي مناجم الذهب أولاً للبحث عن عمل. وكانت المناجم، تشكل لب اقتصاد جوهانسبورغ، وتخضع للفصل العرقي بشكل صارم، حيث تم حصر العمال السود، الذين يشكلون أغلبية القوة العاملة، في مجمعات وأماكن إقامة مطوقة مفصولة عن بقية المدينة... وحافظت شركات التعدين على علاقات وثيقة مع زعماء المناطق الريفية، الذين كانوا يساعدون علي تأمين اليد العاملة الرخيصة، ويؤكدون هرمية السلطة ويعززون الانقسامات داخل المناجم مما أدي إلي ترسيخ الانضباط وتعزيز التبعية. وكان الوصي قد أرسل كتاباً قبل بضعة أشهر ملتمساً توفير عمل لجاستيس ككاتب في مناجم (التاج)، وهو أحد أكبر المناجم وأقدمها. وأقنع جاستيس رئيس العمال بإعطاء مانديلا عملاً أكثر تواضعاً كشرطي منجم، مع وعد بعمل مكتبي بعد ثلاثة أشهر.

عمل مانديلا بعض الوقت حارساً ليلياً، يعتمر خوذة، ويحمل صفارة وهراوة يحرس مدخل المجمع الذي علقت عليه ملاحظة تقول «السكان المحليون يعبرون من هنا» في ذلك الوقت كان عمال المناجم يتميزون من الغيظ حيال أوضاعهم وأجورهم، وقد تفجر هذا الغضب فيما بعد في إضراب المناجم عام 1946. وبقى مانديلا بعيداً عن السياسة، ولكنة بقى دائماً فخوراً لكونه من عمال المناجم، كما قال فيما بعد.

كان مانديلا يشعر بالأهمية إلا أن جوهانسبورغ لم توله أي أهمية. وسرعان ما وجد نفسه يواجه مشكلة لأنه تباهى بأنه هرب من البيت

وخدع الوصي. فأمر هو وجاستيس بالعودة إلى البيت، وطرد من المنجم. وأضطر مانديلا، الذي لم تكن لديه أي رغبة بالعودة إلى الريف، إلى البحث الحثيث عن عمل. فأرسله أحد أبناء عمه لمقابلة سمسار أراض أسود هو (وولتر سيسولو) الذي كان يملك مكتباً في (بيركلي آركيد) في وسط المدينة.

كان وولتر سيسولو رجلاً قصيراً نشيطاً في الثامنة والعشرين من العمر، فاتح البشرة، أسنانه مفرقة، يضع نظارة على عينيه وقد اعتاد أن يمضغ شفته، لم يكن ذا شخصية آسرة، ولكن كانت لدية ثقة داخلية غير عادية كان يسميها «ثقة خارقة» وكان له الأثر السياسي الأكثر أهمية في حياة مانديلا.

وكان يتسم بمرونة غير عادية، فهو، مثل مانديلا، أتى من منطقة فقيرة في الترانسكي - هي مقاطعة (إنغكوبو) - لكنة لم يكن في موقع مانديلا.

فقد كان والده قاضياً أبيض اسمه (فيكتور ديكينسون)، أحب والدته في أنغكوبو، ولكنة تركها مع طفلين. كانت والدته تتحدث باحترام عن أبية ولكن وولتر كان يدرك أن أباه لم يقم بواجبه تجاه أسرته.

قامت والدة وولتر وخالة رئيس العمال بتربيته على خشية الملة واحترام البيض. كان يحب قراءة الإنجيل ويتعاطف مع المضطهدين، إلا أنه تمرد على تحفظ أساتذته المبشرين وأسرته، التي حذرته.

كان والد سيسولو الأبيض فيكتور ديكنسون قد أصبح قاضياً في المحكمة العليا في جوهانسبورغ. وكان سيسولو يراه أحياناً هناك دون

أن يلحظه. كما أنه كان رئيس جمعية إعمار، وعندما بدأت وكالة سيسولو تواجه صعوبات ذهب إليه طالباً العون. لم يكشف سيسولو صلة القرابة بينهما فقد أراد أن يعطي والده فرصة «ليتذكر أن له ابناً مثل هذا»، إلا أنه لم يبد ما ينم عن معرفته به. وتذكر سيسولو أنه كان مهذباً وحنوناً، ولكنة لم يعرض عليه أي مساعدة مادية وكانت مقابلة مؤثرة.

أعجب مانديلا كثيراً بإتقان سيسولو عادات أهل المدينة، كما أعجب برطانته الانكليزية، وقال لا شك أنه جامعي. كما أعجب سيسولو بالروح القيادية لمانديلا، ولقد قال فيما بعد: «عندما دخل مكتبي شعرت بأنه رجل لديه إمكانيات كبيرة، وأنة لا شك سيكون له دور مهم».

وكانت تلك بداية شراكة بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل مانديلا السياسي.

رأى مانديلا في سيسولو تفوقاً ثقافياً، كان معلماً له عقل تحليلي. فهو سيكون صانع الملك ولكنة لن يكون ملكا أبداً، كان المدرب وليس الملاكم. وقد وفر لمانديلا وبمحض الصدفة السعيدة أول دعامة حاسمة في عجلة حياة المدينة التي عاشها مانديلا.

كان طموح مانديلا الحقيقي هو أن يكون محامياً، فاصطحبه سيسولو لمقابلة (لازار سايدلسكي) من مؤسسة (وتيكين، سايدلسكي وايدلمان) التي كان لها عملاء سود إضافة إلى العملاء البيض. كان سايدلكي محامياً يهودياً شاباً نشيطاً لا يقرأ السياسة ولكنة يؤمن بمعاملة السود معاملة لائقة، وكان يتهم مؤسسات قانونية كبيرة بأنها «تمتص دماء زبائنها من السود». كان يظهر الاحترام لسيسولو الذي كان

يأتيه بالإفريقيين الذين يريدون رهن عقاراتهم.

وافق سايدلسكي على توظيف مانديلا كاتباً بعقد وسرعان ما لمس إمكانياته: «كان مانديلا حي الضمير، لا يعرف المخادعة، مرتباً بشخصه وعقلة «فاهتم سايدلسكي بالشاب واقرضه 50 جنيهاً - وذلك مبلغ كبير - وأعطاه بزة قديمة، وحث مانديلا على الابتعاد عن السياسة، وقال له: تستطيع أن تخدم شعبك بشكل أفضل إذا استطعت أن تثبت أن هناك محامياً واحداً أسود شريفاً وناجحاً».

لم ينس مانديلا يوماً أن سايدلسكي، كما قال عنه، «أول رجل أبيض عاملني معاملة البشرى وهو الذي دربني كي أخدم بلدي. وبعد بضع سنوات عندما عرف مانديلا الغنى لفترة وجيزة وكان يقود سيارة الودزموبيل رأى سايدلسكي، الذي ساءت أحواله، ينتظر على موقف الباص، فأوصله إلى بيته، وفي اليوم التالي أرسل مانديلا إليه حواله مصرفية تسدد الـ 50 جنيهاً. وبعد أربعين سنة زار سايدلسكي وابنته مانديلا في السجن، وذكره، مازحاً، بنصيحته بالابتعاد عن السياسة قائلاً: «لم تأخذ بنصيحتي، انظر أين انتهى بك الأمر».

لكن السياسة كانت تحدق بمانديلا من كل جانب. كان يشترك في مكتب واحد مع محام أبيض أسمة (نات بريغمان) وهو أحد أبناء عم سايدلسكي، وبريغمان، كان يعمل جزئياً كممثل كوميدي، استمتع بصحبة مانديلا، الذي اعتبره متحفظاً حسن الفهم والتقدير.

فأصطحب مانديلا إلى معاضرات شيوعية وأحزاب متعددة الأعراق حيث أجتمع بأشخاص بيض يساريين ودودين، منهم الكاتب الشيوعي

الشاب (مايكل هارميل) وذهل مانديلا بما يتمتع به هارميل من ذكاء وبساطة في العيش - فقد كان يرفض أن يرتدي ربطة عنق.

في مكتب المحاماة حذر سايدلسكي مانديلا من شيوعي أسود هو (غور راديبي)، وهو رجل قوي البنية ألمعي، أكبر من مانديلا بعشرة أعوام، يتقن خمس لغات، وكان يساعد في تأسيس نقابة جديدة لعمال المناجم الإفريقيين.

وقد قال أحد الزملاء لمانديلا: «ابتعد عن غور، سيسمم عقلك. فهو يجلس كل يوم في ذلك المكتب يخطط لثورة عالمية» لكن راديبى صادق مانديلا، وقال لرئيسه الأبيض إنه زعيم حق.

حثه راديبي على الانضمام إلى الشيوعيين، إلا أن مانديلا كان يعمل كثيراً في المساء استعداداً لامتحاناته في الحقوق، وبعد عشرين عاماً كان الرجلان قد تبادلا مواقعهما تقريباً حيث انضم راديبي، بعد أن فصل من الحزب الشيوعي في عام 1942، وانضم إلى المؤتمر الإفريقي المقام المناوئ للشيوعية، فيما كان مانديلا يدافع عن الشيوعيين ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي.

كان مانديلا يعيش إذ ذاك في أحد أحياء الفقراء السود في منزل يشاركه إياه قس هو الأب (مابوتو) في المنزل رقم 46 في الشارع الثامن في الكساندرا، وهي ناحية فوضوية تبعد ستة أميال شمالي المدينة، لا تصلها الكهرباء، ويسمونها: المدينة المظلمة، لكن ألكساندر كان لها حيوية القرية وإحساس بالجماعة لا تعرفه تلك القصور، كانت مرجلاً تتقد فيه آمال السود ومواهبهم. ومرآة تعكس إحباطاتهم».

في ألكساندر كان مانديلا من الأشخاص الأكثر فقراً، كان يضطر أحياناً إلى السير اثني عشر ميلاً في اليوم ليوفر أجرة الباص من والى المكتب في مركز المدينة. ويذكر كم كان يشعر بالذل عندما تلاحظ الفتيات ثيابه المهلهلة، وكان ينظر بحسد إلى الشبان الأمريكيين الأكثر تألقاً، وهم يجذبون النساء بما يرتدونه من بزات صارخة وقبعات عريضة وساعات لماعة، غالباً ما تكون مسروقة. لكنة بقي على أسلوبه الرصين. وساعده أصدقاء يعيشون في المنزل نفسه. وشعر فيما بعد بالذنب لأنه «لم يفكر يوماً أن يرد جميلهم».

وسرعان ما وجد طريقة كإفريقي ريفي، قادر على إعالة نفسه، ولم يعد بحاجة إلى دعم الوصي الذي كان منه في مقام الأب. وقد زاره الوصي في أواخر عام 1941، ولم يعاتبه لعصيانه السابق. وبعد ستة أسهر، عندما مات الرجل الكبير ذهب مانديلا ليحضر جنازته في ترانسكي، وندم لأنه لم يكن أكثر امتناناً للطف الذي أغدقه عليه الوصي في السابق.

أكمل مانديلا دراسته الجامعية بالمراسلة، لكنة سرعان ما أدرك أنها ليست مفتاح النجاح: وقال «لم يكن لأي شيء تعلمته في الجامعة أي علاقة ببيئتي الجديدة» وعاد إلى فورت هير ليتسلم شهادته. كان يرتدي بزة جديدة اشتراها بقرض من سيسولو. وحثه ابن أخته (قيصر ماتانزيما)، الذي كان يسعى إذ ذاك ليصبح زعيماً، إلى العودة كمحام، لكن مانديلا كان يزداد اهتماماً بالساحة الوطنية.

وسرعان ما غادر الكساندرا. ولتوفير المال عاش فترة قصيرة في

مجمع وينيلا للتعدين الذي كان يقدم مساكن خاصة لزعماء القبائل الزائرين. وهناك اجتمع بكبار رجال القبائل، ومن ضمنهم وصي مملكة باسرتولاند ثم انتقل إلى (أورلاند) كانت أورلاند تمتد على أرض زراعية تظللها أبراج عملاقة لمحطة طاقة. وهي عبارة عن مجموعة أزقة ضيقة تضم منازل من غرفتين بلا أرضيات ولا سقوف تصل بينها ممرات ترابية وعرة كانت أكثر نظافة ولكن أقل ألفة من ألكساندر: كان مانديلا يحب أن يقول أنه لم يكن لديه منزل في ألكساندر، أما في أورلاند فكان له منزل، وليس مسكنا. لكنة أصبح قريبا من وولتر سيسولو الذي كان يعيش مع والدته في بيت يضج بالسياسة، وكان قدر أورلاند أن تحدد مسار جنوب إفريقية السوداء كلياً.

كان على مانديلا آن يتابع دراسته ليعمل كي يحصل على إجازة في الحقوق هذه المرة. وفي أوائل عام 1934 انتسب إلى جامعة (ويتزوترسراند)، التي كانت ترتفع بأعمدتها المهيبة على هضبة إلي الشمال من جوهانسبورغ، كانت جامعة (ويتز) خلاف جامعات الأفريكان، تسمح لقلة من الطلاب السود بالدارسة فيها إلى جانب البيض، بالرغم من أنه لم يكن يسمح لهم باستخدام باحات الرياضة، والتنس وحوض السباحة. كان بعض المحاضرين البيض يشجبون بشدة وجود الطلاب السود، ومنهم البروفيسور (هاهلو) المحامي اليهودي الألماني الذي كان يعتبر (القانون) من العلوم الاجتماعية التي لا يملك السود ولا النساء الإمكانية الذهنية والخبرة التي تمكنهم من دراستها. إلا أن محاضرين آخرين في القانون مثل (جوليوس ليوين) وريكس ويلش

كانوا كرماء، كما أن عدداً كبيراً من الطلاب البيض عادوا من الحرب يحملون الكراهية للتفرقة العنصرية. وكان بينهم العديد من الشيوعيين، ومنهم (جو سلوفو) وزوجته (روث فيرست) و(هارولد وولبي) تذكر روث فيرست، التي أصبحت فيما بعد صديقة حميمة وزميلة لمانديلا، إن مانديلا كان «وسيماً، فخوراً بنفسه، يتمتع بعزة نفس وحساسية زائدة، حتى أنه كان متكبراً، أما الانطباع الذي خلفه لدى جوسلرفو فكان أنه «رجل أسود على قدر كبير من الكبرياء وضبط النفس، ولديه إحساس واضح بأنه أسود وحساس جداً لفكرة أنك عندما تعمل مع رجل أبيض، فإنه هو المسيطر».

وقدّر لمانديلا أن يمضي ستة أعوام في (ويتز)، من 1943 إلي 1949 دون تميز كبير. كانت له ذاكرة ممتازة، ولكنة كان مضطراً لحشر دراسته بين عملة ككاتب متعاقد والتزاماته السياسية. كان البروفيسور هاهلو بالغ القسوة معه أحياناً يقول له «هل تسمي هذه مقال؟» «ألا تعرف ما أتوسمه فيك؟». وعندما رسب في أخر الفصل المدرسي طلب من البروفيسور هاهلو السماح له بإعادة الامتحان في بعض الأوراق، قائلاً إنه كان في معظم الأيام يصل إلى بيته في أورلاند بعد الثامنة مساء مرهقاً وجائعاً بشكل لا يسمح له بالتركيز على دراسته.. وقال «ولو أني قمت بعملي في ظروف أفضل، لحصلت إلى نتائج أفضل». لكن هاهلو، المتمسك بالأنظمة بصرامة، رفض طلبه، واضطر مانديلا إلي مغادرة ويتز دون الحصول علي شهادة البكارليوس في القانون.

عانى مانديلا كثيراً من الإذلال في ويتز. فقد جلس مرة إلي طاولة

في مكتبة الحقوق، وإذا بأحد الطلاب البيض يتركها.. كما ذهب مرة إلى مقهى مع بعض الطلاب البيض فأبقوه خارجاً.

لكن مانديلا لم يحمل ضغينة. وبعد خمسين عاماً، عندما أصبح رئيساً للجمهورية، دعا جميع الطلاب الذين كانوا معه عام 1946 إلي اجتماع في ويتز. وقال لهم «أنا ما أنا عليه الآن بفضل الأشخاص الذين احترموني وساعدوني، وكذلك بفضل أولئك الذين لم يحترموني وأساءوا معاملتي».

في أورلاند كان مانديلا يعتبر إنساناً لاهياً، وقال فيما بعد «لابد لي في أن النساء يلحظن وجودي، وما كنت لأحتج أو أرفض». كان يمضي معظم وقته مع وولتر سيسولو ووالدته في بيتهما الصغير في أورلاندو. وفي عام 1944 تزوج وولتر من (ألبرتينا ثيثوي) وهي ممرضة شابة من ترانسكي تلقت تعليماً كاثوليكياً. إلا أنها سرعان ما أصبحت دعامة المسكن، كما كان سيسولو يصفها. إنها كانت قوية بما يكفي ليجعلها أماً وسياسية. وفي الوقت نفسه توفر لزوجها أرضاً صلبة».

لكن سرعان ما بدأ مانديلا يستقر، ففي دفء جو بيت سيسولو التقى (بافيلين ميز)، ابنة عم وولتر، التي تصغر مانديلا بأربع سنوات، وكانت قد وصلت مؤخراً من ترانسكي، لتعمل في التمريض، وهي المهنة الأكثر احتراماً بالنسبة للنساء الإفريقيات - وكانت تعمل في المستشفى العام في جوهانسبورغ مع ألبرتينا.

ووصفها جارهم (أزكيا مفاهليلي) فيما بعد بأنها فتاة متواضعة، ذات عينين ناعستين وابتسامة لطيفة خجول، سرعان ما مال مانديلا لإيفلين وبعد بضعة أشهر عرض عليها الزواج. وتزوجا ببساطة في عام

1944 في محكمة المفوض الأهلي. دون أن تقرع أجراس الكنيسة أو يقام حفل رواج.

عاشا في البداية في غرفة واحدة في بيت صغير في أورلاندو لشقيق (أيفلين)، ثم انتقلا فيما بعد إلى بيت زوج أختها (مغودلدا) الذي كان يعمل كاتباً في أحد المناجم.

تذكر إيفلين أن «كل من كان يعرفنا كان يقول إننا زوجان مثاليان» كانت تحب الأعمال المنزلية وتقضي الوقت دائماً بين تلميع الأثاث والعناية بالحديقة والطبخ، كما كانت تعني بمانديلا أيما عناية. قال مانديلا: «كانت سيدة هادئة تحسن التصرف، وقد كرست نفسها لأسرتها ولزوجها».

كانت متدينة نشأت في بيئة أكثر تدينا من بيئته. وتذكر أنها لم تكن تراه كسياسي وإنما كطالب» وقد لاحظت (ليبي) أخت مانديلا الصغرى التي لتسكن معهما أن «ايفلين لم تكن تريد أن تسمع شيئاً عن السياسة» إلا إنها كانت تؤيد وتدعم زوجها الطموح. وقد كتب (فيليس نتانتالا) الذي كان صديقاً للاثنين «خلال السنوات التي قضاها مع إيفلين نما مانديلا سياسيا وتفتح وأصبح الشخصية الوطنية التي هو عليها.

بعد سنة من زواجهما أنجبت إيفلين أبنهما (ثيمبي). وانتقلا بشكل مؤقت للسكن في المنزل رقم 719 شرقي أورلاندو، ومنة انتقلا إلى المنزل 8115 في أورلاندو، وهو واحد من مئات البيوت المتماثلة المؤلفة من ثلاث غرف وتشبه علب الكبريت، وليس فيها كهرباء ولا مرحاض داخل المنزل. كان الزوار كثيراً من ضمنهم (ماتانزيما) ابن أخو

نلسون. كانوا يأتون للإقامة في البيت الصغير، وغالباً ما كانوا ينامون على الأرض. وفي السنة التالية أنجبت إيفلين ابنة هي (ماكازيوي) التي ماتت بعد ستة أشهر.

كانت إيفلين غالباً تلقي المساعدة من والدة نيلسون، التي أتت من ترانسكي. وتعايشت المرأتان بشكل جيد. كما كان مانديلا يساعد في التسوق وحمام الطفلين، حتى أنه أحياناً كان يتولي مهمة الطبخ. تذكر (أديلايد) زوجة (أوليفر تامبو) أن «كثيراً من الزوجات كن يحسدن إيفلين على رجلها الذي كان ملتزماً بالعائلة ويشتري الطعام من المدينة ويحمله البيت». كان شخصاً منظماً جداً له عادات ثابتة، قالت إيلفين إنه كان «ينهض مع انبلاج الفجر، ويمارس رياضة الجري بضعة أميال. ثم يتناول إفطاراً خفيفاً ويمضي اليوم خارج المنزل».

خلال أربع سنوات في جوهانسبورغ كان مانديلا قد ابتعد كثيراً عن الحياة الريفية الهادئة في ترانسكس. لقد استطاع العيش في الأماكن المزدحمة، واشتغل في مكتب للمحاماة، ودرس في الجامعة وتزوج. كان ما يزال يشعر شعور ابن الريف أمام الأفارقة وأبناء المدن الذين يتحدثون الإنكليزية بطلاقة إلا أنه كان يستمد الأمان من قيمة الريفية ونشأته. وكان يشعر أنه من سلالة ملكية. قال سيسولو «في كل ما كان يقوم به كان دائماً يفكر أنه سيصبح زعيماً وشخصاً مهماً من سلالة ملكية وعندما انخرط في العمل السياسي الجاد كان ذلك التصور لا يفارقه».

كان غور راديبي، الزميل المناضل لمانديلا في المكتب، هو أول من أدخله عالم السياسة في بلدة ألكساندرا. ففي آب (أغسطس) 1943

ساعد راديبي في تنظيم مقاطعة لاستخدام الباصات الموصلة إلي المدينة — وكانت تلك ثالث مقاطعة خلال ثالث سنه — وذلك بعد رفع أجرة الركوب من خمسة بنسات إلي ستة بنسات. انضم مانديلا إلي المقاطعة وإلي مسيرة شارك فيها 10.000 أسود وبقيت الباصات فارغة لمدة تسعة أيام إلي أن أعيدت أجرة الركوب إلي السعر السابق. وكان ذلك درساً مشجعاً في قوة المقاطعة.

كما كان ذلك أول تماس مباشر لمانديلا بالمؤتمر الوطني الإفريقي، الهيئة السياسية السوداء الرئيسية، التي كانت قد بدأت تستفيق من نوم طويل. وكان المؤتمر الوطني الأفريقي قد أسس في عام 1912 من قبل محام من (الزولو) هو الدكتور (بيكسلس كاسيمس) كرد مباشر على إحداث اتحاد جنوب إفريقية في عام 1910، الذي ضم الأفارقة والبريطانيين في اتحاد واحد. كان الرئيس الأول للمؤتمر الوطني الإفريقي الدكتور (جون دوبي) وهو مثقف زولي، وكان الأمين العام هو (سول بلاتجي) وهو مترجم وكاتب من (كيمبرلي)، وعندما رأي قادة المؤتمر الوطني الأفريقي أسوأ ما كانوا يخشونه من فوقية البيض نظموا وفوداً ومظاهرات واحتجاجات، إلا أنهم كانوا يخشون العمل الجماعي، أو المجابهة، كان المؤتمر الوطني الإفريقي هيئة رسمية وقورة تضم أعضاء كثيرين من أسر ملكية، ممثلة في مجلس الزعماء — وهو يشبه مجلس اللوردات — وعندما حرم الإفريقيون في مقاطعة الكيب من حق الانتخاب في عام 1936. وافق قادة المؤتمر على الانضمام إلى «مجلس الممثلين الأهلي»، الذي كان يفترض فيه أن يقدم النصح والمشورة للحكومة. على

أنهم سرعان ما اكتشفوا أنه لم يكن أكثر من «هاتف لعبة» كما أسماه واحد منهم وفي أواخر الثلاثينات بدأ المؤتمر الوطني الأفريقي يدخل في سبات وفوضى تنظيمية، وضغت على أصوات الاحتجاج فيه العناصر الشيوعية والتروتسكية، وفقد مصداقيته إذ عّول على وعود من البيض كان من السهل عليهم نقضها.

في عام 1940 كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد أنتخب رئيساً أكثر نشاطاً هو (ألفريد زوما)، وهو طبيب صغير البنية كثير المشاغل متزوج من أمريكية سوداء، وقد كان في صباه راعي ماشية في (إنغكوبو) مثله مثل سيسولو، وكان يعيش في بيت مريح علي تخوم (صوفيا تاون) وهي ضاحية متعددة الأعراق قرب جوهانسبورغ. وسرعان ما أعاد الدكتور زوما الحياة إلى الجسم الخامد. «لم تكن العضوية موضع فخر، ولم يكن هناك أية سجلات، وكانت الخزينة فارغة» كما قال. فقام بجولة في البلاد وأنعش الفروع واستقطب من صفوف السكان هناك كثيرا من الأعضاء الجدد. لقد جلب روحاً وحدوية جديدة إلى المؤتمر، وقضى على انقساماته القبلية وتخلي عن مجلس الزعماء، ولكن ظل قوامة بشكل رئيسي من أبناء الطبقة الوسطى والعمر المتوسط، ولم يكن له أتباع كثيرون إذ لم يسمح بدخوله لغير الإفريقيين. كان زوما شديد الحرص على كرامته وكان فخوراً بأصدقائه البيض، بما فيهم المسئولون الحكوميون.

في منزل سيسولو في أورلاندو عام 1943 التقى مانديلا لأول مرة بالزولي الشاب المتحمس (أنطون لمبيدي) الذي كان في التاسعة والعشرين إذ ذاك، وقد تخلى لتوه عن مهنة التدريس ليعمل في مكتب

محاماة للدكتور سيمي، الذي أسهم في تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي - وكان لمبيدي ابن العامل الزراعي كاثوليكيا متديناً. وقد أثار التردي الأخلاقي المتفشي في البلدات الإفريقية ذعره، واعتقد أن البريطانيين كانوا يعلمون عملاً منظماً بهدف تثبيط ومحو جميع الاتجاهات الوطنية بين أتباعهم الغرباء، وأنهم كانوا يختارون من النخبة الشابة السوداء أعضاء يجعلون منهم أدوات في أيديهم. وتلك تهمة شعر مانديلا بأنها قد تطاله.

كان للمبيدي لمسة شعبية قوية، إلا أنه كان مثقفاً أيضاً، متعمقاً بالأدب الإنكليزي (بما فيه شكسبير). ويثير حماسته قادة أمريكيون سود.

أصبح (لمبيدي) قائداً لجماعة صغيرة من الشباب السود، من ضمنهم سيسولو ومانديلا، أرادت أن تشكل رابطة شباب داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. كان هدفهم هو الضغط على المنظمة باتجاه عمل جماعي من النوع الذي لاقى نجاحاً كبيراً في ألكساندرا لدى مقاطعة الحافلات. وفي الوقت الذي كانوا فيه يدعمون المؤتمر الوطني الإفريقي فقد كانوا يشجبون تخبط زوما. كما شعروا بتحدي الحزب الديموقراطي الإفريقي الجديد. بقيادة (بول موزاكا) الذي انشق عن المؤتمر وأصبح بإمكانه (كما أراد) أن «يصول ويجول» في البلاد. وشجعتهم المثالية الأنغلو - أمريكية التي تجلت في الحرب ضد هتلر، وخاصة الراديكالية التي أظهرها ميثاق الأطلسي الذي وقعة تشرشل وروزافلت في آب (أغسطس) 1941. هذا الميثاق ألزم الموقعين «باحترام حقوق جميع الأفراد في اختيار شكل الحكومة التي سيعيشون في ظلها». وسرعان

ما بدأ تشرشل بعد ذلك بالتراجع عن المضامين المعادية للاستعمار في الميثاق، وقال (لليو آميري) وزير الدولة الهندي إنه لم يكن يعني بكلمة «الشعوب» أن تتضمن أهالي نيجيرية وإفريقية الشرقية، إلا أن مانديلا واصدقائه أخذوا الميثاق بمعناه الظاهري وأعجبوا بتشرشل من أجل ذلك، شكل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة برئاسة البروفيسورد (زد. كي. ماثيوز) لتفسير ميثاق الأطلسي. فقدمت اللجنة وثيقة سميت «مطالب الإفريقيين باختيار حكومتهم. وقالت الوثيقة إن الامتحان الحاسم للميثاق هو في تطبيقه على القارة الإفريقية».

كان مانديلا وهو في الخامسة والعشرين، ملتزماً بسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، وفي عام 1943 انضم إلى وفد برئاسة لمبيدي من أجل طرح فكرة رابطة الشباب أمام الدكتور كزوما في مكتبة بيتة في صوفياتاون. كانت مواجهة تاريخية لكنها شائكة. أعجب مانديلا بكزوما لإعادته المؤتمر الوطني الإفريقي إلي الحياة، وتأثر بأصدقائه الدوليين مثل (تشيكيدي خاما) من بيتشوانالاند و (الملك سوبهوزا) من سوازيلاند. إلا أنه لم يحب أسلوب زوما الإنكليزي المتسم بالغرور، وهوسه بالوفود والبرقيات. كان زوما من جهته بحاجة ماسة إلى دعم المثقفين الشباب. وكانت زيارة «أطفال الحضانة»، كما كان يسميهم، تشبع غروره، إلا أنه حذرهم من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مستعداً لتصرف جماعي. إلا أن مانديلا وسيسولو وسواهما واصلوا مساعيهم لتشكيل لجنة مؤقتة، تعمل على إعداد بيان رسمي بالأهداف في مكتب المؤتمر الداكن في (روزنبرغ أركيد) في وسط مدينة جوهانسبورغ.

في نيسان (أبريل) 1944 انطلقت لجنة الشباب رسمياً في مركز (بانتو) الاجتماعي للرجال في جوهانسبورغ، حيث كان (لمبيدي) رئيساً وسيسولو وتامبو ومانديلا في اللجنة التنفيذية. افتتح البيان المفعم بالحيوية والنشاط بتحديد (لمبيدي) الفارق بين مفاهيم البيض والسود وقال في البيان:

«الرجل الأبيض يعد الكون آله عملاقة تنطلق بقوة عبر الزمان والمكان نحو دمارها النهائي. والأفراد ضمنها ليسوا سوى كائنات حية لها حياتها الخاصة التي تؤدي إلى موت خاص.

أما الإفريقي فهو يعدُّ العالم وحدة واحدة، كياناً عضوياً، يتوجه باضطراد نحو مزيد من الانسجام والوحدة، والأفراد فيه يشكلون أوجهاً مستقلة لكل واحد...»

ومضى البيان ليرفض أي إدعاء بأن الرجل الأبيض كان يساعد في تحضر الإفريقيين، وليؤكد أن الإفريقي «يقترع كي يحدد مستقبلة بجهوده الخاصة» وأقر البيان المؤتمر الوطني الإفريقي، مع بعض التحفظات، ووعد بدعم لجنة الشباب الجديدة كونها «خزينة الأدمغة ومولد الطاقة للروح الوطنية الإفريقية». وجاء في نشرة إعلانية أصدرتها اللجنة المؤقتة في أيلول (سبتمبر)، من نفس العام 1944 أن «ساعة الشباب قد دقت» واختتمت النشرة بأبيات من مسرحية (يوليوس قيصر)

«الخطأ ... ليس في طالعنا»

وإنما في أنفسنا، أننا تابعون.

يذكر مانديلا أن هذه كانت المرة الأولى التي طرحت فيها فكرة القومية الإفريقية بشكل واضح. إلا أن الخط السياسي كان مازال متردداً. هل كانوا فعلاً يهدفون إلى رمي الرجل الأبيض في البحر، كما يقول الراديكاليون؟ أخيراً ساد رأي أكثر اعتدالاً، كان مانديلا من أنصاره، وهو أن للجماعات العرقية الأخرى أن تبقى في جنوب إفريقيه، ولكن يجب التخلي عن فوقية البيض.

منظمة سياسية أخرى حصدت أيضاً بعض الدعم. إذ بدأ الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، الذي التقاه مانديلا أول مرة في (ويتز)، بدأ لأول مرة يكسب شعبية بين صفوف الإفريقيين بعد عشرين سنة من الاضطراب.

تأسس الحزب في عام 1920، بقيادة مجموعة صغيرة من المهاجرين اليهود والبريطانيين المنشقين عن كنيسة بريطانية. وعمل بموجب القوانين الصارمة للكومينتيرن في موسكو. وقد أثارت جنوب إفريقية، بموارد التعدين العالية الكثافة فيها، اهتمام كثير من المنظرين الماركسيين، ومنهم لينين لكونها مسيرة اقتصادية ورأسمالية احتكارية، لكن عند التطبيق خلط كثير من قادة الشيوعيين بين النزاعات الطبقية والعرقية. في البداية لم يظهر الشيوعيون كبير اهتمام باستقطاب قادة أو أعضاء سود. حتى أنهم في عام 1922 دعموا بشكل فعلي حزب العمل الأبيض الصرف في إضراب المناجم، تحت شعار «اتحدوا من أجل جنوب إفريقيه بيضاء» وقطع الشيوعيون علاقاتهم مع حزب العمل الأبيض عندما انضم إلى ائتلاف تهكمي مع حكومة الوطنيين الأفارقة بعد ذلك بعامين.

وبحلول عقد الثلاثينيات كان الشيوعيون يضمون مزيداً من الأعضاء السود، كان بينهم شابان نشيطان بارعان هما جي بي ماركس وموسى كوتاني اللذين تلقيا تدريبهما في معهد لينين في موسكو وعادوا للمساعدة في تنظيم نقابات للسود. لم يكن للشيوعيين حظوة كبيرة لدى المؤتمر الوطني الإفريقي الذي كان مازال واقعاً تحت تأثير الزعماء التقليديين. وفي عام 1939 عارض الحزب الشيوعي الحرب انطلاقاً من ولائه للحلف بين هتلر وستالين. وأصبح الشيوعيون مقبولين أكثر، كما ازداد اهتمامهم بالدفاع عن حقوق السود. وبحلول عام 1945، وبمساعدة مخصصات إضافية لورق الصحف وصل توزيع الصحيفتين الجنوب إفريقيتين المتأثرين بالشيوعية، وهما (الغارديان) وإنكلولوليكو إلي 67.000 نسخة. تأثر مانديلا بأصدقاء بيض مثل نأت بريغمان ومايكل هارميل، وبالتعددية العرقية للشيوعيين، الذين وضعوا السود بمحاذاة البيض على قدم المساواة. وكتب مانديلا فيما بعد أن الشيوعيين فقط هم الذين كانوا مستعدين لمعاملة الإفريقيين معاملة البشر الأنداد، وهم الذين كانوا مستعدين ليأكلوا معنا، ويتحدثوا معنا، ويعيشوا معنا ويعملوا معنا. إنهم الجماعة السياسية الوحيدة التي كانت مستعدة للعمل مع الإفريقيين لتحصيل الحقوق السياسية والموقع الاجتماعي.

اعتقد الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي من 1936 إلى 1949، القس (جيمس كالاتا) أن «الشيوعيين ليس لهم تأثير يستحق القلق» ورأى أن الحياة الوطنية الإفريقية ما زالت مبنية على نظام الارتباط، وإن الشيوعية؛ التي هي نظام مادي بحت، لا تستطع أن تحول قلوب

الإفريقيين نحوها إلي أن يشعر ذلك الإفريقي بالذات أنها هي الطريق الوحيد للخلاص من الاضطهاد».

إلا أن الوطنيين الشباب في لجنة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يناصبون الشيوعيين العداء، إذا رأوا فيهم تأثيرات غريبة تفسد القومية الإفريقية، واعتبروهم مروجي طريقة أجنبية. وقد هاجمهم (لمبيدي) بضراوة، وفض اجتماعاً شيوعياً في أورلاندو بتقريع مطول ومتوعد.

وعلى الرغم من أن لمانديلا أصدقاء شيوعيين إلا أنه وتامبو شاطرا (لمبيدي) شكوكه، ورفع الثلاثة اقتراحاً بأن «أعضاء المنظمات السياسية، يجب أن يستقيلوا من المؤتمر الوطني الإفريقي». ورفض المؤتمر الوطني الاقتراح، إلا أن حملة لجنة الشباب ضد الشيوعيين استمرت.

كان النزاع جزءاً من تنافس أكبر بين القومية والشيوعية ضمن حركات التحرير في إفريقية وآسيا. كان الوطنيون يستطيعون الاعتماد على الكبرياء التاريخي لشعوبهم ومنحها تقديراً جديداً للذات. فيما كان الشيوعيون، الذين يدعمهم الاتحاد السوفيتي المنتصر، كانوا قادرين على تقديم التنظيم والتمويل، والنقد الثقافي للإمبريالية. لكن جنوب إفريقية كانت ساحة معركة إيديولوجيه خاصة. فقد عانى الإفريقيون من السيطرة والإذلال، مما أعطى دفعا لوطنيتهم. لكن الأقلية البيضاء في البلاد كانت كبيرة إلي حد لا يمكن معه إعادتها إلى أوطانها، على نحو ما كان ينادي به في مناطق أخرى من إفريقية. قال غوفان مبيكي «لقد تحدثوا عن الاستقلال، ونحن تحدثنا عن الحرية، والفارق كبير».

كان الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية الحزب الوحيد الذي ضم جميع الأعراق، وكان على وشك أن يصبح، متعدد الأعراق أكثر من أي حزب شيوعي آخر، هذان القطبان المغناطيسيان: الوطنية والشيوعية، تجاذبا مانديلا كل من جهة.

## الفصل الرابع

# نيلسون مانديلا والعمل السياسي في جوهانسيورج
# 1950 - 1951

يتحدث هذا الفصل عن نضال وكفاح نيلسون مانديلا خلال أعوام (1950 - 1951)

كانت الأحياء الإفريقية في جوهانسبورغ مفتاح العمل السياسي. كانت كالمغناطيس تجتذب جميع السود في جنوب إفريقية، فهي تمثل انفتاحهم على عالم غربي جديد من الأفلام، والجاز والرياضة، هنا تعرض القرويون السود، المشبعون بالإنجيل وشكسبير على أيدي أساتذة البعثات، لتأثيرات أوسع تفجر المواهب الإبداعية في الموسيقى والكتابة والدراما. تأقلم الإفريقيون المتعلمون مع حياة المدينة باستعداد أكثر من الأفارقة الذين ما زالت ثقافتهم مزروعة في الريف.

هذه النهضة الثقافية لـ «الإفريقي الجديد» تشبه نهضة حي هارليم في نيويورك في عقد العشرينات من القرن العشرين، التي عكست النوع نفسه من التعبير المشبوب بالعاطفة على الحدود الفاصلة بين الثقافتين. ولكن جوهانسبورغ كانت لديها الثقة الأوسع لأغلبية سوداء وراءها قارة بأكملها».

بالنسبة للبيض القلائل الذين عبروا الخط كانت جوهانسبورغ السوداء، في عقد الخمسين، بحفلاتها التي تمتد طوال الليل، وحاناتها غير المرخصة ء وحلقات الجاز، كانت تقدم نقيضاً كاملاً للحياة الاجتماعية الرسمية التي تميز الضواحي الشمالية الأنيقة، حيث يقوم خدم إفريقيون يرتدون قفازات بيضاء على خدمة حفلات العشاء الكبيرة.

كان لسوويتو حيوية وأصالة متفجرة تشع من سير الكتاب السود الشباب في ذلك الوقت مثل كان تيمبا ونات ناكاسا أو القصص القصيرة للروائية الشابة البيضاء نادين غورديمر.

احتشد السياسيون والمثقفون مع عمال المعامل والأساتذة ورجال العصابات، كل كان يشعر أنه جزء من العالم الغربي عالم ما بعد الحرب، الذي تعرفوا عليه بواسطة المجلات والأحلام السينمائية والإعلانات. وسحرهم استعراض مواهب أبطال الرياضة الأمريكيين السود والنجوم الشعبيين أو منظمي الحملات الانتخابية ، بوحي من المثالية الدولية للأمم المتحدة الجديدة و «أسرة الإنسان». عكست أحاديث الجاز والموضة في جوهانسبورغ مزيجاً من الإيقاعات والتعابير الغربية والإفريقية بأسلوبها الأصلي.

إلا أن هذه الثقافة النابضة بالحياة والنشاط لم تلق اهتماماً يذكر بين أوساط البيض في جوهانسبورغ. كان العرقان يمتزجان في مركز المدينة كل يوم كسادة وخدم. ويفترقان كل مساء حيث يستقل البيض سياراتهم ويتجهون شمالاً، بينما يركب السود باصاتهم إلى الجنوب وراء

نفايات المناجم. كان البيض لا يرون في السود سوى الخدم والعمال أو القرويين القبليين، الذين يلمون بالقراءة ويعتمدون على وصاية البيض، وبدا أن السماح لهم بترسيخ قوتهم السياسية أمر غير مسئول، إن لم يكن خطيراً.

وقد كتب المؤرخ الجنوب إفريقي الكبير (سي دبليو دي كيويت) عام 1956 أن «التفاؤل الأكثر صدقاً في جنوب إفريقية هو في التجمعات المدنية المزدحمة، والزاخرة بالأمراض والجرائم. إنها تمثل قبول الرجل الأسود للحياة الجديدة لعالم الغرب، واستعداده لتحمل الترويض والتمهن القاسيين.

كان الريفيون الإفريقيون محافظين عموماً، يسلب الغرب ألبابهم، ويتأثرون كثيراً بالكنائس المسيحية، وكلهم تفاؤل بالمستقبل. وقد كتب الشاب (لويس نكوسي) يصف ما أسماه «العقد الخرافي» في عقد الخمسين، «كان وقتاً من الأمل والاحتمالات غير المحدودة. ولم يبد من المبالغة في شيء أن تتوقع إذ ذاك أن الحكومة الوطنية سرعان ما تتداعى». «كانت تلك أفضل الأوقات، وأكثرها سوءاً» كما أحب الكاتب (كان ثيمبا) أن يقتبس من (ديكنز).

كان نيلسون مانديلا الأسود في جوهانسبورغ نموذجاً واستثناء في آن واحد، فقد كان يتحرك بثقة متزايدة بين معاصريه في غرب أورلاندو، معقل السود الأكثر غنى. كان يحب عالم الموسيقى والرقص وكان قريباً من أبطال الموسيقى مثل الأخوين (مانهاتان) بيتر ريزانت من فرقة

الشحارير المرحة، والملحن والكاتب (ماتشيكيزا) وقد بدأ يكسب المال كمحام متمرن، وتقمص أسلوب عظماء الشأن، يقود سيارته من طراز أولدزموبيل ويأكل في المطاعم القليلة في المدينة التي تسمح بدخول الإفريقيين، وكان يشتري حاجياته من دكان مجاور يبيع الأطعمة المعلبة، فوجئ (جوماتثيوز) الابن الرفيع الثقافة لبروفيسور فورت هير أن يجد أحد أبناء الريف من الترانسكي يتمتع بذلك الذوق الرفيع. فقد كان مانديلا يعني بثيابه أيما عناية مثل الزعيم جونجينتابا الذي كان يكوي بنطاله وهو صغير. وقد التقي (جورج بيزوس) صديق مانديلا الذي دافع عنه أبان محاكمته التقاه مرة قرب نادي (راند) في وسط جوهانسبورغ، يقوم بالبروفة النهاية عند الخياط العصري (الفرد كاهن) الذي كان يخيط أيضاً لزعيم المال المليونير (هاري اوبنهايمر) وذهل بيزوس لرؤية كاهن يثني ركبته ليأخذ مقاس الرجل الأسود من الناحية الأنسية. وقد أعجب أحمد كاثرادا بسترة تحمل شعاراً إفريقياً خاصاً صنعها كاهن لمانديلا لدرجة أنه أوصى بصناعة واحدة لنفسه، لكنه ذعر لما رأى الحساب (الفاتورة).

كان مانديلا يشعر بثقة الثري المتبطل، بحضوره القوي وفتنته وابتسامته العريضة. إلا انه بقي على كبرياء تليق بارستقراطي أكثر مما تليق بواحد من العامة. وحتى (نثاتو موتلانا) الذي أصبح طبيبة الخاص، وجد أسلوب مانديلا ملكياً، وشعر أن عليه انتقاء كلماته بحذر عندما يكون برفقته، بدا مانديلا مختلفا كل الاختلاف عن أبناء المدن الذين

يتحدثون بسرعة والذين نشأوا في جوهانسبورغ وحافظ على أسلوبه الرسمي في كل من الكزوسيه والإنكليزية. وكان غالباً يتناول غذاءه في المركز الاجتماعي للرجال في بانتو، حيث يلتقي السود المحترمون من أبناء الطبقة الوسطي. وكان يحوي ملاعب تنس، وكرة المضرب، ويقيم الحفلات الموسيقية والرقص، والاتصالات بالأمريكيين من خلال (راي فيليبس) الأبرشاني الذي كان يدير مركز جان هوفمير الاجتماعي في الطابق العلوي.

ابتعد مانديلا عن جلسات الشراب التي شوشت كثيراً من معاصريه.

كان مانديلا صاحب بنية جسدية مرموقة، يحرص على الحفاظ عليها وكان ملاكماً من الوزن الثقيل، طوله ستة أقدام وإنشين، يقضي تسعين دقيقة أيام العطل الأسبوعية في قاعة الألعاب في أورلاندو حيث كان يتدرب منذ عام 1950. كانت تنقصه القوة والسرعة ليكون بطلاً. لكنة تخلى عن مهاراته في الملاكمة من المراوغة، والتراجع، والرقص، والدوران، ورأى في الرياضة وسيلة لتنمية القيادة والثقة. أصبح الملاكمون رمزا لقوة السود ومنجزاتهم، في جنوب إفريقية كما في أمريكا. كان (جو لويس) بطل العالم الأمريكي في الوزن الثقيل من عام 1937 إلى عام 1949، وكان السويتيون يفخرون كثيراً بأبطالهم المحليين مثل (جيري مولوي) و (جيك ترلي) الذي أصبح بطل الإمبراطورية البريطانية لوزن الذبابة. كان مانديلا يحب أن يستعيد المباراة الأخيرة لبطل الوزن الثقيل (كينغ كونغ) الذي بدأ بالسخرية

بخصمه وانتظر حتى الجولة الثالثة ثم سدد ضربة بيسراه وفوق اليمين وانتهت المباراة.

كان مانديلا يرى الملاكمة - من زاوية السياسة - كسباق كان في الأصل متكافئاً وأعمى الألوان، يستطع الإفريقيون الانتصار على التمييز العنصري. كان أحياناً يتحدث عن مسيرته السياسية بتعابير الملاكمة، ففي عام 1955 شعر أنه كان في فئة الوزن الثقيل الخفيف. وأسهمت استعراضية المقاتل وتفرده، بالإضافة إلى قوته الجسدية، في أسلوب مانديلا السياسي كفرد مناهض يدرك جيداً أهمية الأداء.

إلا أن السياسة هي التي أصبحت لعبته الرئيسية. كانت رابطة الشباب تتفجر توقاً إلى التحرك، وكان مانديلا يفكر في كيفية تحقيق ذلك. فشرح لمجلة الرابطة (أفريكان لود ستار) أن المنظمة يجب أن تبقى على اتصال حيوي بالسود العاديين وقال: «لدينا أيديولوجية قوية قادرة على شد اهتمام الجماهير. وواجبنا الآن هو أن تطبق تلك الأيديولوجية بشكل كامل عليهم».

لكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مجهزاً بما يلاءم التنظيم الجذري. وكان بطيء الاستجابة. فبعد عام من مؤتمر كانون الأول (ديسمبر) 1949، قال سيسولو من موقعة كأمين عام: «الجماهير تسير بشكل متقدم كثيراً على القيادة» وتذمر من «الإهمال العام للواجب من قبل مسئولي المنظمة، وقلة الإيمان بالنضال ونقص أجهزة الدعاية مثل الصحافة» وأصر أنه «إذا كان للكونغرس أن يكون قوة تحرير الشعب

الإفريقي في هذا البلد، فلابد له من ترتيب آلته».

كانت الحكومة تستغل مخاوف البيض من مؤامرة شيوعية عالمية حتى قبل أن يبدأ السناتور جوزيف ماكارثي حملة مطاردة السحرة في أمريكا. وما من شك في أن القانون نجح في كبح نشاطات بعض الأعداء الألداء للحكومة، إلا انه سرعان ما قارب بين كثير من الشيوعيين الممنوعين وبين الناشطين الشباب في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنهم مانديلا، ودفعهم معاً باتجاه عمل مشترك.

كان الحظر تهديدا حقيقياً لحرية التعبير، وفي آذار (مارس) 1950 تواطأ الحزب الشيوعي في جوهانسبورغ مع المؤتمر الوطني الإفريقي الترانسفالي والكونغرس الهندي من أجل تنظيم «ميثاق الدفاع عن حرية الحديث» الذي جلب 10.000 شخص إلى (ساحة السوق) كما اقترحوا إضراباً ليوم واحد يوم أول أيار (مايو) احتجاجاً مع القادة الشيوعيين. وسرعان ما أدرك سيسولو أن الخطر الذي يتهدد الشيوعيين يتهدد جميع قوى المعارضة، لكن مانديلا وكثيرين غيره من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الإفريقي لم يثقوا بالمبادرة الشيوعية، التي سبقت الاحتجاج الذي كانوا يخططون لتنفيذه. وهاجمت جريدة الأفريكان لود ستار استغلال العمال السود من قبل منظرين أجانب، قائلة: «إن نبتة الشيوعية الدخيلة لا تستطيع أن تنمو وتزدهر على التراب الإفريقي». وأمضي (جو سلوفو) المحامي الشيوعي الشاب من ليثوانيا ساعات طويلة يناقش مع مانديلا خطة الحزب للإضراب، ورأي أن مانديلا

يحاول حلَّ نزاعه الداخلي «بين التراث العاطفي الذي خلفته تجارب العنصرية المؤلمة، وبين التكنيكات الرمادية الباردة التي تقتضيها السياسة».

كان مانديلا ما يزال مناهضاً حاداً للشيوعية، ولجأ هو وأعضاء آخرون في رابطة الشباب إلي تشويش الاجتماعات الشيوعية التي تعد للاحتفال بأول أيار (مايو)، بالإكثار من الأسئلة التي كانت تؤدي أحياناً إلى فض تلك الاجتماعات. وفي (نيوكلير)، إحدى ضواحي جوهانسبورغ قام مانديلا بجر القائد الهندي (يوسف كاشاليا) من فوق المنصة. وقال (راستي بيرنشتاين) مهندس العمارة الشيوعي الذي التقى مانديلا أول مرة هناك: «لا يمكن أن تخطئة، لأنه كان طويلاً جداً» ويتذكر أن مانديلا «بدا مشوشاً وزعيماً لمثيري الشغب.. لقد وقف بعيداً عن مجموعة الساخرين، وسيطر علي أعضاء رابطة الشباب بمجرد حضوره الطاغي وبالسلطة الهادئة التي بدا أنه يمارسها عليهم».

واستطاع مانديلا أن يكون مثير شغب حاد. ففي إحدى الاجتماعات ألقي الشيوعي الإفريقي جي بي ماركس خطاباً منطقياً واضحاً يشرح فيه كيف يمكن الإحاطة بفوقية البيض، وقد قوطع الخطاب عدة مرات بالتصفيق. لكن مانديلا الذي كانت لديه تعليمات من رؤسائه في رابطة الشباب بفض الاجتماع، توجه بزهو نحو ماركس وأصر على مخاطبة الجمهور قائلاً: «يوجد ثوران في هذا الكرال. ثور اسود وثور أبيض، يقول جي بي ماركس أن الثور الأبيض يجب أن يحكم الكرال. وأنا أقول

إن الثور الأسود يجب أن يحكم. فماذا تقولون؟».

ألتفت الأشخاص الذين كانوا منذ دقيقة يستحسنون ماركس وقالوا: «الثور الأسود، الثور الأسود» واستمتع مانديلا برواية تلك القصة بعد أربعين سنة».

كان احتجاج الأول من أيار (مايو) ناجحاً، بالرغم من معارضة رابطة الشباب، إذ لزم نصف العمال السود على الأقل في جوهانسبورغ منازلهم. ذلك المساء عاش مانديلا لحظة حقيقة. إذ كان يسير إلى بيته في أورلاندو بصحبة سيسولو، يرقبان مسيرة احتجاج سلمية تحت ضوء القمر، عندما لحظا وجود بعض رجال الشرطة على مبعدة خمسمائة ياردة. بدأت الشرطة تطلق النار باتجاههم. وانطلق ضباط على صهوات الخيل داخل الحشد وأعملوا فيه هراواتهم.

لجأ مانديلا وسيسولو إلى مهاجع مخصصة للممرضات، حيث كانوا يسمعون صوت الرصاص يضرب الجدران، كانت حصيلة تلك الليلة مقتل ثمانية عشر من السود في أورلاندو وثلاث ضواح أخرى في الريف.

استشاط مانديلا غضباً، ويذكر فيما بعد أن «ذلك اليوم كان نقطه تحول في حياتي، إذ أدركت بالخبرة المباشرة مدى وحشية الشرطة، كما تأثرت بشكل كبير بدعم العمال الإفريقيين لنا.

مع بداية عام 1950 بدأ مانديلا يكشف عن براغماتية أساسية ستجعله معلماً في فن السياسة. فحذر في جريدة أفريكان لودستار من أن قانون حظر الحزب الشيوعي لم يكن في الحقيقة يستهدف

الحزب الشيوعي الذي كان حزباً ليس بذي شأن كبير وليس له أتباع كثر، وإنما كان يستهدف حزب المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي اجتماع في الكونغرس نادي بالعمل المشترك، وسرعان ما اقترحت لجنة مشتركة «يوم حداد» بإضراب الاعتكاف في المنازل يوم 16 حزيران (يونيو)، احتجاجاً على إطلاق النار والقانون الجديد. وطلب سيسولو من مانديلا تجهيز مكتب صغير لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ حيث كان القادة الإفريقيون والهنود والبيض يغدون ويروحون. وصار مانديلا في الأوج، شخصية مهمة في احتجاج وطني رئيسي، يعمل جنباً إلى جنب مع ناشطين من أعراق أخرى.

كان يوم الحداد هبوطاً مفاجئاً، وكانت الاستجابة ضئيلة جداً في الترانسفال، وقالت الراند ديلى ميل إن الحدث كان إخفاقاً ذريعاً. يتذكر مانديلا فيما بعد قائلاً: «الإضراب السياسي أكثر مغامرة من الإضراب الاقتصادي» وأنتقد بعض الزملاء الخسارة غير الضرورية في الأرواح.

ووصف الكاتب الأسود (بلوك موديسان) الذي كان وقتها في رابطة الشباب، الأهوال التي ارتكبتها الشرطة في صوفيا تاون قائلاً: «كانت البنادق والمدافع الرشاشة تفرقع الموت وتبصقه على أي شيء يتحرك! أي شيء أسود».

ومرر قمع القانون الشيوعي في المجلس النيابي بدعم من معارضة الحزب الوحدوي الناطق بالإنكليزية. لكن الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية لم يكن أبداً تلك المنظمة الحصينة التي صورتها الحكومة.

وصوتت اللجنة المركزية في كيب تاون على حل الحزب، بمعارضة أثنين فقط. وفي جوهانسبورغ، حيث كان الحزب أقوى من أي مكان آخر، أجتمع الأعضاء في منزل وسط المدينة مقابل عيادة يوسف دادو. ودهشوا لسماع موسى كوتان يعلن القرار الذي اتخذ في كيب تاون. قال جو سلوفر «صعق كثير منا». وقال راستي بيرنستاين «كنا واثقين بأن هذه ليست القصة الحقيقية»، وانتظروا على مدى الأشهر التالية تعليمات سرية، لكنها لم تأت. فقاموا بتأليف جماعات صغيرة منفصلة، أتحدت مع بعضها بمنتهى الحذر.

وفي نهاية عام 1950 انتخب مانديلا، بما كان لديه من شكوك حيال الهنود والشيوعيين، رئيساً لرابطة الشباب خلف (لبيتر مدا)، الذي استقال إثر معاناته من متاعب قلبية وقرحات هضمية. وعندما اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي في حزيران (يونيو) 1951 قال إن الإفريقيين يجب أن يمضوا بمفردهم، وذلك نقيض الأغلبية في اللجنة إلا أنه في قرارة نفسه كان يغير آراءه. وفي حزيران (يونيو) 1951 قادة سيارة فولكسفاغن باليه إلى ناتال برفقة آخرين من رابطة الشباب هما (هو ماثيوز وديليزا مجي) وعلى الطريق نوقش التواطؤ مع الشيوعيين المحظورين، وكم دهشاً عندما اخترق مانديلا ما أسماه مواقفهما الوطنية والعاطفية وطلب منهما أن ينظرا إلى المنجزات الحقيقية لشيوعي جنوب إفريقية، الذين شعر كثير منهم بشعور السود وضحوا بكل شيء من أجل قضيتهم. وفيما بعد قال ماثيوز: «اعتقد

أن ذلك الحوار قلب التوجه الكامل داخل رابطة الشباب نحو الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي».

انجذب مانديلا نحو الشيوعيين لالتزامهم الشخصي أكثر من انجذابه نحو أيديولوجيتهم وقال لي فيما بعد: «عندما كنت أجتمع بشيوعيين مثل إسماعيل مير وجي أن سينغ في الجامعة لم يكونوا أبداً ليتحدثوا عن الأفكار وإنما عن البرامج السياسية. أنت ترتبط بالناس كما هم يرتبطون بك. لقد تأثرت بأن رجلاً مثل داود، طبيب من أدنبرة، كان يعيش حياة بسيطة، ويرتدي قميصاً كاكياً، وحذاء ضخماً ومعطفاً من معاطف الجيش».

إلا أن مانديلا كان، يفكر بشكل جدي بالنظرية السياسية، فهو لم يكن يعتبر نفسه مثقفاً مثل تامبو، أو سيسولو، ولكنة كان يقرأ بنهم وتركيز أدهش أصدقاءه، فيؤشر على مقاطع، ويدون ملاحظات، ويجري مقارنات. وقد تفوق في شهادة الـ بي أيه (إجازة في الفنون) في مواد السياسة والإدارة الأهلية. وقرأ لكثير من الفلاسفة الغربيين ومنهم (هاورلد لاسكي) (وبرتراند راسل) وبرنارد شو بالإضافة إلي ليبراليين جنوب إفريقيين مثل (إدغار بروكس) وجوليوس ليوين كما قرأ مطبوعات معهد العلاقات العرقية في جوهانسبورغ التي رآها بالغة الأهمية، وبحث عن روايات عملية أكثر لنضالات التحرر، فقرأ أعمال وطنيين سود مثل (نامدي أزيكيوي) من نيجيرية، وكوام نكروما من غانة، جورج بادمور من جامايكا، وبعد حملة المقاومة السلبية الهندية قرأ لغاندي ونهرو.

وجد مانديلا أن الكتابات الماركسية تعطيه أدراكاً أوسع. لكنه تأثر

بالبيان الشيوعي وبالسير الذاتية لماركسيين جنوب إفريقيين مثل بول بانتينغ وبيل أندروز وصدمه دعم الاتحاد السوفياتي لحركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وبالمنطق الحثيث للمادية الجدلية الذي شعر أنه يكتسح الخرافات والمعتقدات الموروثة الراسخة في طفولته. مثل «منارة قوية في ليلة مظلمة، تسمح للمسافر أن يرى كل ما حوله، وأن يحدد النقاط الخطرة والطريق إلي الأمام».

ما من شك في أن مانديلا لم يكن قديساً، ولم يكون لديه في يوم من الأيام معتقد ديني قوي. ولكنة كان قد بدأ يظهر نفسه كسياسي أبعد نظراً من جميع معاصريه. فقد تعلم كيف يكبح غرائزه الوطنية الفجة، ليسمع نداء عقلة قبل قلبه، وليوسع رؤيته للنضال، وأدرك أن المؤتمر الوطني الإفريقي بحاجة إلي حلفاء، وأن الهنود والشيوعيين هم الحلفاء الوحيدون المتاحون. فانتهز فرصة الانضمام إليهم في أول حملة مقاومة رئيسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي.

## الفصل الخامس

# نيلسون مانديلا يقبل التحدي

في كانون الأول (يناير) 1951 عقد حزب المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمره السنوي الخامس والثلاثين في الضاحية السوداء خارج بلرمفونتين معقل الأفارقة وكان هذا الحدث نقطة انعطاف تاريخية، ولكنة لم يلق أي اهتمام من البيض أو من العالم في حينه.

بدأ المؤتمر متأخراً ساعتين عن وقت انعقاده بثلاثمائة وفد كانوا يزحفون على القاعة. وجهزت طاولة صحافة من اجل الصحافيين الخمسة الحاضرين، وكان بينهم روث فيرست من صحيفة نيوايدج Neweage اليسارية، ومحررين محليين من جريدة فريند البلومفونتية وهنري كزومالو. ورفض معظم الوفود أن تؤخذ صورهم.

وعلى المنصة كان رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي الدكتور موروكا المحافظ اللبق، وقربة جلس شخص صغير الحجم له وجه ذاو. كان ذاك مانيلال غاندي Manilal Gandhi، ابن المهاتما الذي كان يعيش في مستوطنة أبية القديمة في ناتال وكان يعتبر نفسه راعياً للروح النقية للمقاومة السلبية.

بدا كل من موروكا وغاندي بعيدين جداً عن مهيجي رابطة الشباب، وبينهم نلسون مانديلا في عامه الثالث والثلاثين.

استمر الاجتماع ثلاث أيام طويل النفس وقليل الأهمية، ثم في اليوم الأخير قدم الأمين العام وولتر سيسولو تقريره حول برنامج مشترك من المقاومة السلبية أو «العصيان المدني». الذي يهدف إلى التحدي المتعمد للقوانين العنصرية للحكومة كانت الخطة مبنية تقريباً على الحملة الهندية في دوريان عام 1946. وطالب المؤتمر الوطني الإفريقي من الحكومة إلغاء «ستة قوانين جائرة»، وهي تلك التي تفرض جوازات المرور، وتحدد رأس المال، وقانون مناطق المجموعة Group Areas Act، وقانون سلطات البانتو Bantu Authorities act، وفي حال رفضت الحكومة فإنهم سيمضون في «حملة التحدي».

ودعم الدكتور موروكا الخطة بخطاب مفوه بشكل لافت، ضاعفه المفسرون، وأكد أن المؤتمر الوطني الإفريقي مستعد للعمل مع الأوروبيين والهنود والملونين شريطة الموافقة على شروط متكافئة.

كان مانديلا قد ألزم نفسه نهائياً هنا بالتعاون مع البراغماتية الراسخة. فقد بدأ في المؤتمر بالإلحاح ثانية على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يمضي بمفرده، دون الهنود، إلا أنه سرعان ما أحس أن الأغلبية تفضل التعاون، وفي حديثة كرئيس لرابطة الشباب التف التفافة كاملة بقناعة ظاهرية، كما لو أنه لم يكن يعتقد عكس ذلك أبداً. ونادي بجبهة لا أوروبية ضد الفاشية التي قال إنها تهرب إلى جنوب إفريقية من وراء ستار الخوف من الشيوعية. يجب أن يكون الإفريقيون رأس حربة النضال المنظم.

تجلى التأثير الهندي في فكرة المقاومة السلبية، لكن كان هناك كثير من النقاش حول طبيعتها. احتج مانيلال غاندي أن قادة المؤتمر لا يتحلون «بروح التضحية الحقيقية»، وأكد أن المقاومة السلبية مسألة صفاء خلقي أكثر مما هي سلاح سياسي. وشاركه قلقة هنود جنوب أفريقيون أكبر سناً تأثروا بالماهاتما. لكن معظم القادة كانوا يأخذون على المهاتما قلة اهتمامه بالقضية الإفريقية عندما كان في جنوب إفريقية.. كتب جو سلوفو: أن غاندي لم يظهر ما يدل على أنه «استوعب الدرس الأزلي بأن الحرية لا تجزأ». ورأى الشيوعيون في المقاومة السلبية محض وسيلة لتعبئه الجماهير أكثر مما هي - قوة روحية - ورأى بعض أعضاء رابطة الشباب أن الحملة برمتها يعوزها العنف. وقال بيتر مدا فيما بعد أن حملة التحدي كانت ضد الثورية. بمعنى أنها كانت مقاومة سلبية: «أي لا يمكنك أن ترد الضربة».

كان مانديلا أكثر براغماتية. كان حتماً دون غاندي زهداً. وقد قالت صديقته فاطمة مير: «قال بعض الهنود إنه مثل غاندي». فقلت لهم: «غاندي خلع عنه ثيابه. أما نيلسون فيهوى ثيابه». أعجب مانديلا بغاندى «كواحد من رواد حركة التحرر الجنوب أفريقية»، وصدم صدمة عميقة عند اغتياله في شباط (فبراير) 1948. إلا أنه لم يكن يشاطره الرأي حول الجانب النقائي من الصراع. وقال فيما بعد: «لم أكن أعتبر اللاعنف على طريقة غاندي مبدأ ثابتاً وإنما هو تكيتك يستخدم حسب مقتضى الحال».

كانت الآمال التي علقها على حملة التحدي كبيرة حتماً، فقد كان يعتقد بأنها ستكون ناجحة لدرجة أن تضع المؤتمر الوطني الإفريقي في موقع يجعل الحكومة تذعن أو تلقى خارجاً من قبل الناخبين. لكنة أيضاً، كان يرى في التحرك سبيلاً إلى تثقيف الجماهير، وبداية لمواجهة أكثر ضراوة. وقال جو سلرفو: إنه لم تكن لديه أيه أوهام حول قلب الطبقة الحاكمة دون نضال ثوري قاس.

ومضت المخططات قدماً بسرعة في كانون الثاني (يناير) 1952، بدفق من النشاط مختلف تماماً عن أسلوب المؤتمر الوطني الإفريقي المتمهل عادة، انضم مانديلا إلى لجنة من أربعة أشخاص، مع زد. كي. ماثيوز، وإسماعيل مير، وجي. إن. سينغ، وضعت مسودة رسالة إلي رئيس الوزراء الدكتور مالان، تطالب بإلغاء القوانين الستة الجائرة. وذهب مانديلا بالوثيقة إلى الدكتور موروكا في أورانج فري ستيت كي يوقعها. وعندما استلم سكرتير رئيس الوزراء الرسالة أجاب بأن الخلافات بين الأعراق «دائمة وليست من صنع الإنسان»، وأن القوانين الجديدة لا تنم عن قمع أو إذلال، إنما هي للحماية. كرر موروكا وسيسولو مطالبهما وتعهدا «بمتابعة الحملة بطريقة سلمية».

وسرعان ما أصبح مانديلا يبدو قائداً قادماً لشعبه. ففي 31 أيار (مايو) 1952 اجتمع المكتب التنفيذي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في بورت إليزابيث وأعلن أن الحملة ستبدأ يوم 26 حزيران (يونيو) وأقيم حفل لوداع البروفيسور ماثيوز، الذي كان بصدد المغادرة إلى

أمريكا لمدة عام، ويذكر جوبن ماثيوز قول مانديلا إنه (مانديلا) سيكون أول رئيس أسود لجنوب إفريقية. وكان يضع نفسه بوضوح في الصف الأول في منظمة المؤتمر الوطني الإفريقي، عارضاً خدماته كرئيس متطوع للحملة، مسؤول عن تنسيب الوطنيين مما ركز الأنظار حوله، في دور شبه عسكري في طول البلاد وعرضها وفي (يوم المتطوعين) قبل أربعة أيام من بدء الحملة، انطلق مانديلا إلى دوريان ليكون المتحدث الرئيسي أمام جمهور قوامه 101.000 شخص، وكان ذلك أكبر جمهور خاطبه. لم يكن خطاباً شعبياً، فهو لم يملك يوماً ناصية الخطابة العاطفية التي يجيدها بعض معاصريه مثل روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe أو غور راديبي - إلا أنه وجد العملية منعشة وتثير البهجة وقوبل بالتصفيق الحاد. قال لمستمعيه إنهم يصنعون التاريخ، وهذا سيكون أقوى عمل تقوم به الجماهير المضطهدة، والآن إذ وحدت الأعراق جهودها «نستطيع القول إن الوحدة بين الشعب غير الأوروبي في هذا البلد قد أصبحت حقيقة ملموسة.

وعندما شنت حملة التحدي يوم 26 حزيران (يونيو) انطلق مانديلا إلى بوكسبورغ Boksburg، وهي بلدة مناجم قرب جوهانسبورغ، بصحبة يوسف كاتشاليا وولتر سيسرلو، وفي بوكسبورغ احتشد اثنان وخمسون متطوعاً أمام البوابات الكبيرة للضاحية الإفريقية، ثم دخلوا الضاحية دون الإذن المطلوب للدخول، بقيادة نانا سيتا بردائه الغاندي الأبيض، محاطاً بمئات من الأنصار كانوا يربطون أذرعهم بألوان المؤتمر الوطني

الإفريقي الأسود، رمز الشعب. والأخضر، رمز الأرض. والأصفر، رمز ذهب البلاد، ويشخصون بالإبهام تحية الكونغرس، وينشدون بأمل أغنية «افتح الباب يا مالان، فنحن بالباب».

شاهد مانديلا بهدوء، من بعيد ولكن كان في أسلوبه ما يرمز إلى علاقته بالنضال: المتفرد الفخور الذي كان في الوقت نفسه ملتزماً تماماً. قام رجال الشرطة، الذين كانوا في الانتظار باعتقال المتطوعين، وحملوهم في كومة واحدة على متن حاملة جنود وذهبوا بهم إلى الزنزانات.

ففي تلك الليلة عقد المؤتمر الوطني الإفريقي اجتماعاً في قاعة غارمنت للعمال Garment Workers Hall في جوهانسبورغ وفُرض منع التجول في الحادية عشرة ليلاً، وعندما خرج جمهور من الإفريقيين في مسيرة إلى الشارع كانت الشرطة بانتظارهم، يقفون متكاتفين يحدقون من تحت خوذهم بالسود الناحلين ويستعدون لشحنهم في شاحنات الشرطة. كان مانديلا وكاتشاليا هناك بصفة مراقبين إلا أن الشرطة أصرت على اعتقالهما أيضاً، وهكذا أمضى مانديلا ليلتين في السجن في ساحة مارشال Marhal square محشوراً مع زملائه المحتجين.

أثارت ظروف الاحتجاز ذعره، ولن ينسى أبداً كيف دُفع أحد السجناء أسفل الدرج وانكسر كاحله، وأمضى الليل يصيح من شدة الألم.

كما سرعان ما أدرك أن اثنين من رفاق السجن كانا مخبرين وضعتهما الشرطة بينهم.

حدد اليوم الأول طبيعة حملة التحدي، ففي الخمسة أيام التالية أودع 8000 شخص السجن في جُميع أرجاء البلاد وذلك لمدة أسبوع إلى ثلاثة أسابيع لسيرهم داخل الضواحي أو مداخل السكك الحديدية أو العربات المخصصة للبيض، أو لخروجهم أثناء فترة حظر التجول، كان التنظيم إنجاز مانديلا: فقبل وأثناء الحملة سافر عبر الترانسفال وناتال والكيب، يجمع الأنصار ويشرح أحياناً من بيت إلى بيت، دون أن يلقى تغطية إخبارية تذكر من الإذاعة أو الصحف التي يملكها البيض. وتعلم بشكل مباشر صعوبة ترويض الناشطين المحليين المندفعين بما ينسجم مع النظام المركزي. وأدرك أن «لا فائدة من اتخاذ أية خطة تعارضها الجماهير لأن فرضها يصبح مستحيلاً».

واللافت أن أكبر نجاح حققته الحملة لم يكن في منطقة جوهانسبورغ حيث كان الشيوعيين الأقوى وإنما في الكيب الشرقية، التي جاءت بنصف المتطوعين. فأوضاع المعامل في بورت إليزابيث فجرت موجة من الاستياء».

لقد بدأ مانديلا كتلة تفاؤل، كما أظهر في مقال نشرته مجلة درام في عدد آب (أغسطس) 1952 : قال فيه:-

«بالرغم من أننا نحتاج سنوات من العمل، لكننا مستعدون لمتابعة الحملة إلى أن تلغى القوانين الستة الجائرة التي اختيرت للمرحلة الحالية. ولن نتوقف فإن النضال من أجل الحرية والاستقلال الوطني للشعب غير الأوروبي سيستمر إلي أن يرى مجلس التخطيط الوطني

ذلك مناسباً».

أعطت الحملة السود إحساساً جديداً بالثقة بقوتهم الذاتية. كما كانت تحقق نجاحاً - كما نوه مانديلا - إني مسح وصمة العار التي تلحق بمن أمضى في السجن حكماً. وكتب فيما بعد: «بعد حملة التحدي أصبح السجن وسام شرف بين الإفريقيين، ولكن الحكومة إذ أخذت على حين غرة، سرعان ما بدأت تستمد للانتقام، بدعم من المعارضة البيضاء الرئيسية. أرسل الحزب الموحد United Party، الذي يمثل معظم الناخبين الناطقين بالإنكليزية، اثنين من أعضاء المجلس النيابي يطلبان من المؤتمر الوطني الإفريقي التخلي عن الحملة ودعمهم في الانتخابات القادمة. فطلب المؤتمر الوطني الإفريقي منهما الموافقة علي قوانين العبور، وعندما رفضا ذلك انهارت المحادثات. وقام اثنان من القادة الليبراليين، هما السيناتور ويليام بالينجر William Ballinger وجي. دي. رينالت جونز J. D. Rheinallt Jones بتحذير مانديلا وغيره من أن حملة التحدي ستطيح بالدعم الأبيض، كما اشتكى المعهد الليبرالي للعلاقات العرقية؛ ويذكر مانديلا أنهم: ««جاءوا إلينا وقالوا: أيها السادة أننا لا نعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى للتعبير عن آلامكم. نرجو كم أن ترجعوا عنها، وعندما رفضنا هاجمونا». أعطت حملة التحدي الحكومة ذريعة لفرض قوانين أكثر شدة. وكانت أقل تهيباً من البريطانيين عندما واجهتهم معارضة غاندي السلبية في الهند.

في تموز (يوليو) أغارت الشرطة على منازل ومكاتب القادة الإفريقيين

والهنود، وجمعت أكواماً من الوثائق. كانوا ما زالوا هواة نسبياً، وأميل إلى اللطف: فعندما فتشوا مكاتب الكونغرس الهندي في الترانسفال، قدمت لهم أمينة كاتشاليا زوجة يوسف الشاي والشطائر ووجهت اهتمامهم نحو وثائق غير مهمة فيما كان أحمد كاثرادا يزيل الدليل القاطع من رفوف أخرى. ويتذكر مانديلا بود حديث الشرطة معه باللغة الكزوسية أثناء تناول الشاي، لكن الغارات كانت مقدمة لخطوات أكثر خطورة. فقد تسلم مانديلا يوم 30 تموز (يوليو) مذكرة لتوقيفه بتهمة مخالفة قانون حظر الشيوعية، كما أعتقل عشرون آخرون من قادة حملة التحدي في كافة أرجاء البلاد.

أخلي سبيل القادة الواحد والعشرين بكفالة، وقدموا للمحاكمة في أيلول (سبتمبر) في المحكمة العليا في جوهانسبورغ، أمام القاضي فرانز رامبف، وتجمع حشد متعدد الأعراق في قاعة المحكمة، لكن تضامن المتهمين أضعف بشكل ملفت من موقف الدكتور موروكا، الذي ذعر من التهم الموجهة إليه واستأجر محامياً ليطالب براءته، حاول مانديلا أن يقنعه بتغيير رأيه قبل أن تبدأ المحاكمة بيوم واحد، لكن موروكا تذمر من أنه لم يستشر حول الارتباط بالشيوعيين، وبرغم عدم احتجاجه على ذلك. عندما مثل أمام القاضي رامبف قال إنه لا يؤمن بالمساواة بين الأسود والأبيض ثم بدأ يشير إلى الشيوعيين بين المتهمين الآخرين، ومن ضمنهم سيسولو ودادو، إلى أن أوقفه القاضي.

رأي مانديلا في انشقاق مرروكا «ضربة قاصمة يصعب نسيانها» لقد

ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر؛ بأن قدم مصالحه الخاصة على مصلحة المنظمة والشعب، إلا أنه كان يعرف أيضاً شجاعة موروكا السابقة وأنه، كرجل غني، لديه الكثير ليخسره، أكثر مما لدى القائمين معه فى الحملة، الأكثر فقراً، كما كان لدية كثير من الأصدقاء الأفارقة. سامحة مانديلا فيما بعد، كما سامح كثيرين ممن خانوه. وكتب بشكل دافئ عن مرروكا في السيرة الذاتية التي كتبت في السجن.

أُعجب مانديلا برجاحة عقل القاضي رامبف، وكما هو متوقع فقد وجد القادة مذنبين، لكن الحكم، بالسجن تسعة أشهر مع الأشغال الشاقة علق لسنتين، كان حكما مخففاً نسبياً. وأكد أنهم مذنبون بالشيوعيّة المثالية» التي قال إنها: «مختلفة تماماً عن الشيوعية المعروفة».

كان تعريف الحكومة للشيوعية معكوساً تماماً إلا أنه ساعد في الحصول على دعم غير الشيوعيين في أماكن أخرى، خاصة في أمريكا، حيث كانت الحرب الباردة تكتسب حرارة.

وعام 1952 ألقى مانديلا لمحة خاطفة على حماسة مقاتلي الحرب البادرة عندما اجتمع بالدكتور ماكس بيرغان Dr. Max Yergan الشخصية السياسية الأمريكية السوداء الذي زار جنوب أفريقية في حمأة حملة التحدي. كان بيرغان قد أمضى في السابق العديد من السنوات في الكيب الشرقية، حيث أدخل عدداً من الشباب السود، ومنهم غوفان مبيكي Govan Mbeki في الشيوعية ولكن لدى عودته إلى أمريكا أصبح معادياً شرساً للشيوعية!. وقد تحدث في جوهانسبورغ

في اجتماع للمركز الاجتماعي لرجال بانتو، حضره سياسيون ومثقفون سود من ضمنهم مانديلا، وختم بيرغان حديثة - فيما يذكر مانديلا فيما بعد – «بهجوم مركز على الشيوعية، قوبل بحماسة عارمة من ذلك الجمهور النخبي». لكن عندها قام بارني نغاكاني، Barney Ngakane، صديق مانديلا وجاره في أورلاندو بصد الهجوم منوهاً بصمت بيرغان المدوي حول حملة التحدي وحول النفوذ الخبيث (المستشري) للمصالح التجارية الأمريكية.

عند اعتقال مانديلا وسواه من القادة في أواخر تموز (يوليو)، كانت الحكومة مصممة على إخماد حملة التحدي التي وصلت إلى مرحلة اعتقد مانديلا أنها «لا بد أن تقمع من قبل الحكومة أو أن تفرض سياستها على البلاد». كان سلاح الحكومة الرئيسي هو منع قادة الحملة من تبوء مناصب في المؤتمر الوطني الإفريقي أو حضور اجتماعات، وفي أيار (مايو) منع الشيوعي جي. بي. ماركس أن يكون رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال، فأوصى أن يخلفه مانديلا. كان مانديلا يلقى معارضة من (ديماغوجي) وطني اسمه سيبربير مارووبينغ Seprepere Marupeng، قائد جماعة مناهضة تدعى بافابجيا Bafabegiya فوجئ مانديلا بما له من سمعة كزير نساء عندما سألت إحدى المناهضات، وكانت شابة جميلة: «كيف يمكنني أن انتقد مانديلا وقد نسي قبعته في منزلي» إلا أنه انتخب في كانون الأول (ديسمبر)، بإجماع كبير ليشغل المنصب القيادي. كان نصره قصير الأمد. ففي كانون الأول (ديسمبر)

مُنع، هو وواحد وخمسون من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، من حضور أي اجتماع، أو من التحدث إلي أكثر من شخص واحد على حدة، لمدة ستة أشهر، ومُنع من مغادرة جوهانسبورغ بلا إذن. وأصبح موقعة المعلن في التركيبة الهرمية للمؤتمر الوطني الإفريقي غير قانوني، إلا أن مركزه رسخ كقائد فرد ورجل تصرف.

كانت حملة التحدي قد بدأت تتلاشى وفي تشرين الأول (أكتوبر) تلقت نكسة أخرى عندما أدى اندلاع التظاهرات في بورت إليزابيث وإيست لندن ثم بعد ذلك في كيمبرلي إلى وفاة العديد من الأبرياء، بينهم راهبة، وسارع المؤتمر الوطني الإفريقي لتقديم التعازي للعائلات البيض والسود على حد سواء الذين عانوا من هذه «العودة السيئة الطالع والمتهورة والقصيرة النظر لقانون الغاب»، واتهم الحكومة بتعمد إرسال محرضين لكن أعمال الشغب أساءت لصورة المحتجين غير العنيفة، وأعطت الحكومة مسوغاً جديداً للحظر.

وبحلول كانون الأول (ديسمبر) كان قانون السلامة العامة وقانون وتعديلات القوانين الجنائية قد نصا على عقوبات اشد لأجل الخرق المتعمد للقانون، مع التلويح بعقوبة تصل إلي ثلاث سنوات في السجن مع الجلد. ومرة ثانية اخذ المؤتمر الوطني الإفريقي على حين غرة. وأعترف مانديلا فيما بعد قائلاً «لم نكن أبداً لنتصور عقوبات قاسية كهذه، وأصبح انحسار مد التحدي أمراً لا مناص منه».

ولفترة قصيرة بدأ الأمر كأن الحملة تستقطب دعماً أوسع. وفي

أوائل كانون الأول (ديسمبر) دخل الأتون ضابط شاب برتبة كولونيل سابق، هو باتريك دانكان Patrick Dancan، ابن حاكم عام سابق لجنوب إفريقية، كان دانكان مثالياً شجاعاً، بحماسة صبيانية، وكان معادياً شرساً للشيوعية، إلا أنه كان معجباً بغاندي. أقنعه مانديلا ويوسف كاتشاليا بالانضمام إلى الحملة ليشق الطريق لبيض آخرين. قال كاتشاليا عنه «أتى مصادفة، عطاء من السماء، فحال دون أن تصبح الحملة عرقية».

دخل دانكان بصحبة مانيلال غاندي - الذي أقنعة بالانضمام إليه وكذا بضعة أشخاص بيض آخرين ناحية جيرميستون Germistan قرب جوهانسبورغ دون أذونات، وأوقفوا جميعاً. ومع بريق الدعاية التي تلت ذلك تحمس كثير من السود لشجاعة دانكان، وعندما أودع السجن آتى كل من مانديلا وكاتشاليا وداود ليتمنوا له حظاً طيباً. لكن لم ينضم بيض آخرون إلى دانكان، كما أملوا، وأثبت أنه حليف مربك. وقال في قاعة المحكمة إنه غير مذنب، ثم فشل في دفع الاتهام عن نفسه، لكنة لم ينفذ فترة الأسابيع الستة التي حكم بها عليه كاملة. وبعد إخلاء سبيله أصبح قلقاً حيال النفوذ الشيوعي داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. وانضم فيما بعد إلى الحزب الليبرالي الجديد، ثم إلى الكونغرس الإفريقي العام، الذي أصبح المنافس الأكثر خطورة للمؤتمر الوطني الإفريقي. إلا أن مانديلا ظل يتذكر دائماً شجاعته باحترام.

وبحلول نهاية 1952 كانت حملة التحدي قد انتهت. بعد أن كانت أعجوبة دامت ستة أشهر. ومازال السياسيون والمؤرخون في خلاف

حول نجاحها أو فشلها، اقر مانديلا بأنها لم تنتشر كثيراً وراء المدن والقرى الكبيرة، ما عدا في الكيب الشرقي. إلا انه أدعى أنها حققت نجاحاً خارقاً، فقد زاد الإقبال على عضوية حزب المؤتمر الوطني الإفريقي من 4000 إلي 16000 في الترانسفال، فيما وصل في الكيب إلى 100000.

وقد أظهر المؤتمر الوطني الإفريقي مقدرة في التنظيم الوطني، وقليل من المراقبين مَنْ شك فيها، ويعود جل الفضل في هذه المقدرة لمانديلا. مما أعطاه ذخراً معنوياً، وقد كتب فيما بعد: «ربما كنت اشعر ببعض الشك يسكنني أو الشعور بالنقص.. لكنني كنت أستطيع السير منتصب القامة، أحدق نظري في الجميع بكبرياء وكرامة أستمدها من أني لم أنحن للاضطهاد والخوف».

كما غيرت حملة التحدي شخصية المؤتمر الوطني الإفريقي أيما تغيير، فأبعدت القادة المحافظين والأكثر اعتدالاً مثل الدكتور موروكا الذي طُرد. وبحث «صناع الملوك» الشباب. ومنهم مانديلا، عن رئيس أكثر صموداً، ووجدوه في البرت لوثرلي Albert Luthuli، وهو من زعماء الزولو في الثالثة والخمسين من العمر، كان لوثرلي شخصاً ضخماً يتحدث ببطء ويبتسم بكثرة. وهو أستاذ سابق وخطيب ميثودي في مركز البعثة في غروتفيل Groutville في ناتال، بدا محافظاً تماماً. إلا أنه تقدم، كما قال «على خط اللين إلي الصلابة». أصبح لوثولي رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في ناتال عام 1951، ودعم حملة التحدي

بالرغم من ضغط الحكومة، التي طردته من موقع الزعامة (القبلية).

كان لوثولي يكن احتراماً بالغاً لغاندي، ويعجب باعتدال حزب العمل البريطاني، لكن لم يكن يخشى العمل مع الشيوعيين. إذ قال لدى انتخابه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1952 «إن الوطنية المتطرفة أشد خطراً من الشيوعية، وهي خطر حقيقي».

وخلال السنين الخمسة عشرة التالية - وهي أطول فترة رئاسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي وكان كثيراً ما يُمنع ويُلزم بالبقاء في منزله في ناتال وكان أحياناً يُعتبر مجرد رئيس صوري لكن مانديلا كان دائماً يعتبره قائده، وبطلاً في النضال.

أتت حملة التحدي وذهبت دون أثر عميق في مواقف الجنوب إفريقيين البيض أو في الرأي العام الخارجي، ما عدا بعض المحتجين اليساريين. وراقب الدبلوماسيون البريطانيون في بريتورية الأحداث بشيء من الشك، وصوروا الإفريقيين كمخالب للهنود والشيوعيين. حيث جاء في برقية أرسلت إلى لندن في أيار (مايو) 1952 أن السكان المحليين ليس لديهم سوى تنظيم سياسي بدائي بلا قادة فاعلين. كان خوف الدبلوماسيين الأساسي هو اندلاع «حرب أهلية بين العرقين الأبيضين»، وقد تدخل فيهما العناصر الأهلية. وانزعج المندوب السامي السير جون لورو جنتيل Sirjohn Rouetel، من «حدة وبذاءة» الانتقاد الأمريكي، لحكومة الأرباثيد، ومن قرار اتخذه حزب العمل، الذي في المعارضة إذ ذاك، بإدانتها. وأصر أن علي البريطانيين أن «يتركوا الجنوب إفريقيين يخوضون معاركهم»، وبخاصة وأن الحزب المتحد الأكثر ليبرالية كان «يشد عوده». وقبل السير جون آراء رئيس الفرع

الخاص في جنوب إفريقية المولونيل دو بلوي Colonel du plooy، بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يموله الكونغرس الهندي وان قيادته برمتها من القادة الشيوعيين وأرسل هذه «المعلومة الاستخباراتية» في برقية رديئة المعلومات بشكل ملحوظ إلى لندن في تشرين الثاني (نوفمبر). وألقي باللائمة جزئياً في الاضطرابات التي شهدتها بورت إليزابيث على الشيوعيين الهنود الذين كانوا بحاجة إلى حدث استعراضي ينعش اهتمام الأمم المتحدة بجنوب إفريقيه.

كان ونستون تشرشل، الذي عاد مؤخراً إلي السلطة في بريطانيا رئيساً للوزراء من المحافظين، كانت له وجهة نظره الواثقة الخاصة، التي عبر عنها يوم 16 تشرين الأول (أكتوبر). وهي أن «لا شيء يمكنه أن يعين الدكتور مالان في انتخاباته الوشيكة أكثر من الهنود والكافيريين الذين يشقون طريقهم عنوة إلى الحجرات وغرف الانتظار المخصصة للبيض. وستعارض الأغلبية العظمى من السكان البيض في جنوب أفريقية هذا التدخل. وهكذا فأن ما يفعله المتآمرون الشيوعيون والهنود هو في الحقيقة أموراً صاعدة لمالان. وسيكونون على درجة عالية من الغباء إذا لم يدركوا هذا الأمر».

قلة من الدبلوماسيين الغربيين كانوا أكثر تبصراً. فقد أخبر المندوب السامي الكندي ماك ديرموت t. w. l. Mac Dermot أوتوا في شباط (فبراير) 1953 أن «المؤتمر الوطني الإفريقي أكبر بكثير من حزب سياسي. إنه يمثل الأغلبية العظمى للإفريقيين وأنه بمثابة مجلس نيابي يمثل أمة. أمة بلا دولة ربما. ولكن الإفريقيين يزداد تفكيرهم بأنهم أمة يوماً بعد يوم».

الفصل السادس

# نيلسون مانديلا محام وثوري
# 1954 – 1952

لم يكن مانديلا مجرد ثائر بلا علم أو أدوات ثورية علي الاطلاق، في الظاهر كان نيلسون مانديلا وهو في أوائل عقد الثلاثين من عمره يعيش حياة أسرية مستقرة في بيت من بيوت علب الكبريت في أورلاندو، وكانت زوجته إيفيلين تدير المسكن بالتزام أعجب كثيرا من أصدقائه. حيث كتب صديقه فيليس نتانتالا فيما بعد: «لولا تشجيع ايفيلين وتأكيدها أنها ستكون دائما موجودة لتبقى النار متقدة في المسكن، لما استطاع مانديلا النجاح». كانت دائماً وراء الستار تطبخ وتعنى بالمنزل النظيف وتبقي على نمط الحياة البسيط، وعندما ما قام كانون جون كولينز canon John Collins نصير مانديلا الإنكليزي بزيارته عام 1954 أحضر مانديلا حوضاً من الماء ليغسل يديه ودله على دورة المياه خارج المنزل وهي عبارة عن سقيفة متداعية تحتوي على دلو. وصدم كولينز لأن إيفيلين لم تشاركهما وجبة الغداء!.

إلا أنه لم يكن بيتاً سعيداً، وكان أقل استقراراً من منزلي سيسولو وتامبو. فقد كانت إيفيلين غير راضية عن عمل مانديلا السياسي. وأدرك أن دينها «لا يدعم النشاط السياسي». وقالت انها عندما تزوجته اعتقدت أنه طالب وليس بسياسي. وبالرغم من أنها أحياناً ترتدي ذي المؤتمر

الوطني الإفريقي الموحد، إلا أنها قالت: «كنت أحاول أن أرضيه فحسب» وكانت تتعمق في الدين بقدر تعمق زوجها في السياسية. كانت من شهود يهوه الملتزمين. تمضي معظم وقتها في قراءة الإنجيل. وقد قال صديقهما الكاتب إيزكيا مفاهيليل إن تدين إيفيلين كان هرباً من الضغط السياسي، وشعر بأن آل مانديلا زوجين غير متوافقين «ليس لزواجهما أن يفلح»، وما من شك في أن التوتر كان ينعكس على جو البيت، وأول مَنْ شعر به كانت ليبي أخت مانديلا الصغرى التي كانت تلزم البيت وتعتبر أخاها أباً لها. وتذكر أن إيفيلين «لم تكن تحب حديث السياسة».

خارج المنزل كان مانديلا يُشد في اتجاهات مختلفة،*لكل منها صفة مناقضة. فهو من جهة كان يتدرب كمحام، معني كل يوم بالآلة القانونية المنظمة للدولة. ومن جهة أخرى كان عالقاً في السياسات الثورية، وكان قد بدأ يرى العنف نتاجاً صحياً للمجابهة. وثبت أن احترامه للقانون كان مفتاح بقائه، إلا إنه كان مر الطعم.

وعام 1952 أسس أول شركة محاماة إفريقية في البلاد مع أوليفر تامبو رفيق رابطة الشباب الذي عرفه منذ كانا طالبين زميلين في فورت هير.

وقد أثبتت الأيام أن هذه الشراكة تاريخية، تثير الدهشة أكثر من علاقة مانديلا السياسية مع سيسولو. كان تامبو أيضاً من منطقة الترانسكي الريفية، وله وشوم قبلية على خدية. وكان والده، كوالد مانديلا، مزواجاً، ومثل مانديلا طُرد هو أيضاً من فورت هير. وفي الأشياء الأخرى كان نقيض مانديلا؛ فقد كان هادئاً ورجل علم ودين، من

أسرة فلاحية. لكن تامبو كان يتمتع بذهن متفتح أثار إعجاب أساتذته ورفاقه الطلاب. أتى تامبو إلى جوهانسبورغ مدرساً للرياضيات في مدرسة سانت بيتر، حيث سيس كثيراً من الفتيان، إلى أن أقنعه وولتر سيسولو أن يصبح محامياً. كان مانديلا يحترم في تامبو نضجه وذهنه المتقد، وكثيراً ما كان يستمع إلى نصحه.

افتتحت شركة مانديلا وتامبو في آب (أغسطس) 1952 في بناء قديم ملفت للنظر أسمة بيت المستشار Chancellor House، مقابل القضاة في قلب جوهانسبورغ ولا يبعد سوى مسافة بسيطة عن الحصن الكبير للشركة الأنغلو أمريكية، مركز الرأسمالية في جنوب افريقية، رُكتبت كلمتا مانديلا وتامبو بأحرف كبيرة على النوافذ, مما أثار حفيظة المحامين البيض المحافظين. وكانت المكاتب في البناء نفسه حيث قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي التي يديرها سيسولو، وكان ذلك البناء جزءاً من معقل منشقين في أبنية يملكها هنود بينها مطعم كابيتان Ka-petan وبيت كولفاد Kholvad House مكان تجمع الهنود الراديكاليين. وسرعان ما أصبح شاغلو منزل المستشار السود تحت تهديد قانون مناطق المجموعات The Group Areas الذي يخص مراكز مدن جنوب إفريقية بالبيض فقط. إلا أن مانديلا وتامبو بقيا هناك خلافا للأنظمة حتى عام 1961، عندما أصبحت تحت المراقبة الدائمة.

وقد أصبحت الشركة مكتب المحاماة الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي، وكثر الطلب عليها لتمثل عملاء سوداً آخرين ينوؤون بالشكاوي

والمطالب. يقول جو موغوتسي الذي كان يغني مع الأخوة ما نهاتان «كنا نعتمد على مانديلا وتامبو إذا اعتقلنا لأداء حفلة في المدينة، دون أن نحمل أذناً». كان لهما كثير من العملاء الريفيين. يذكر تامبو «كي نصل إلى مكاتبنا كل صباح كنا، نيلسون وأنا، نجتاز محنة اختراق صفوف الناس الصابرين الذين لا تتسع لهم المقاعد في غرفة الانتظار فيفيضون إلى الممرات.. وكنا نقابل أسبوعياً وفود الفلاحين الشيب الذين لوحهم طقس الريف وأتوا يخبروننا عن عدد الأجيال التي تعاقبت على العمل في قطعة أرض صغيرة يُطردون منها الآن.. وكانت كل قضية في المحكمة، وكل زيارة إلى السجون لاستجواب الموكلين تذكرنا بالذل والمعاناة اللذين يحرقان شعبنا». وسرعان ما أتى لمساعدتهما ميندي مسيمانغ، وهو زولي شاب ناشط كان يساعد سيولو، كما أتي غودفري بيتجي Godfery Pitji من رابطة الشباب الذي كان شاهداً على زواج تامبو. ولما كان بينجي فتى قروياً متواضعاً فقد شعر بأنه عامي مقارنة بمانديلا. كان مانديلا يجب أن يظهر بمظهر الآمر، إلا أنه كان قادراً أيضاً على الاستماع لمن يعمل بإمرته. وعندما كان يملي رسائل على سكرتيرته الماهرة روث مومباتي Ruth Mompati – التي أصبحت صديقة حميمة، ثم سفيرة إلي سويسرة فيما بعد – كانت أحياناً تقترح تصحيحاً كان في البداية يتجاهله إلا أنه سرعان ما يقبل به بعد حين.

كانت مواهب الشريكين تكمل بعضها؛ فقد كان مانديلا يمضي معظم وقته في المحكمة، يناقش بأسلوب حماسي، أو يكتب خطابات سياسية

طويلة حتى فترات متأخرة من الليل. فيما كان تامبو المفكر الهادئ يلزم المكتب ويقوم بمعظم الأعمال الورقية، مُتلهياً بامتصاص غليونه المطفأ. وفي قاعة المحكمة كان تامبو يتصرف بهدوء وبلا مقاطعة، معتمداً على معلوماته الحقوقية. إلا أن مانديلا اكتسب أسلوباً مسرحياً جازماً يتميز بإيماءات شاملة. كان يشعر الآخرين بحضوره بمجرد دخوله إلى المحكمة، مما جعل القضاة والمدعين العامين يتذمرون من أنه معتز بنفسه لدرجة الغرور. قال غودفري بيتجي (كل ما كان يحتاجه هو أن يتلفت حوله ويرفع بصره ليبدأ ما يشبه البريق حوله»، لكن بيتجي كان يهتز طرباً إذ يسمع مانديلا يعامل القضاة العنصريين باحتقار، ويراه يتجاوز قيود الأبارثيد. ومرة عندما اندفع مانديلا بجرأة عبر بوابة «للبيض فقط» تؤدي إلى قاعة المحكمة قال له موظف أبيض داكن الوجه: «هذه البوابة للبيض». فأجاب مانديلا: «ماذا تفعل أنت هنا إذاً؟».

كثيراً ما كان مانديلا يدافع عن موكلين في الترانسفال، حيث كانت الحشود تتجمهر لترى هذا المحامي الأسود الأسطوري، دون أن يفهموا القانون بالضرورة. وعندما حقق إخلاءِ سبيل أول موكل كان متهما بالسحر، اعتقد أن بعض المشاهدين أرجعوا نجاحه إلى قوة السحر، أكثر مما هي قوة القانون.

وكثيراً ما كان يعطي تعليمات أساسية لمحامين بيض ليبراليين مثل جورج بيزوس George Bizos للترافع في قضايا مهمة. وكانوا يثيرون استغراب ضابط القضاء المحلى إذ يخاطبون الشهود السود بلقب

«سيد» أو «سيدة» بدل «جيم» أو «مارثا».

كثيراً ما كان مانديلا وتامبو يجدان نفسيهما في خضم معركة خاسرة أمام «السلطات القبلية» الجديدة، التي كانت تقوم ببسط سلطات الحكومة وفرض أدلة الاتهام والغرامات. لكن مع زيادة الوعي السياسي بين أوساط السود الريفيين والتقائهم بمزيد من العمال في المدن. أصبحوا أكثر وعياً بحقوقهم القانونية. فحظرت الحكومة الاجتماع لأكثر من عشرة أشخاص، وعندما كانت الشرطة تفرق أو تعتقل المتفرجين كانوا يهيبون بأقاربهم أن «اتصلوا بمانديلا وتامبو»

أصبح مانديلا متهماً بين العديد من المحامين البيض بعد تلقيه مذكرة توقيف لمساعدته في تنظيم حملة التحدي. وعام 1954 طالبت جمعية المحامين برفع اسمه من قائمة المحامين. وفي قضية تاريخية دافع عنه محاميان محترمان أبيضان هما وولتر بولاك Walter Pollak وبلين فرانكلين Blen Franklin، اللذين قالا: إن القانون يعطي مانديلا الحق في القتال من أجل معتقداته السياسية. دعم القاضي رامسبرتوم Ramsbottom وجهة نظرهما وأمر جمعية المحامين أن تدفع التكاليف. اغتبط مانديلا لعدد المحامين – وبينهم وطنيون أفارقة – الذين هبوا لدعمه: «حتى في جنوب إفريقية العنصرية يستطيع التضامن المهني أحياناً أن يتخطى حاجز اللون».

وبعد أربعين سنة؛ عندما خاطب جمعية المحامين ذكرهم قائلاً: «ها أنا- هنا ومازال اسمي في اللائحة»، وعندما طُلب السماح له بالظهور

في قضية في بريتورية عام 1955، قال رئيس الشرطة لوزير العدل: «مانديلا ليس أهلاً للثقة، ويجب التعامل مع زياراته لبريتورمة وفيرنيا بمنتهى الحذر».

ومع بزوغ نجم مانديلا السياسي أصبح يستقطب مزيداً من التحفظ. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1955 كان يدافع عن موكل أسود أمام قاض أفريقاني سريع الغضب اسمه ويليام دورميهل الذي طلب من مانديلا فوراً إبراز شهادة المحاماة، فلم يستطيع فأجل دورميهل الدعوى. وعندما أحضر مانديلا الشهادة فيما بعد وبدأ دفاعه، أخذ دورميهل يقاطع مرفقاً مقاطعاته بصيحات «هيه.. أنت»، وأخيراً قال: «هيه.. أنت.. اجلس». وأصر مانديلا أن تسجل جميع ملاحظات القاضي، وأخيراً صرح بأنه لا يستطيع الدفاع عن موكله في هذه الظروف، وأعيدت القضية إلي محكمة أخرى، وذهب مانديلا غاضباً لرؤية جورج بيزوس الذي نصحه بتقديم التماس لدى المحكمة العليا. وعرضت القضية أمام القاضي كرارتوس دو ويت Quartusde wet الذي استشاط غضباً لتصرف دورميهل، قائلاً: «الجميع يعرفون أن مانديلا محامي»، وأمر دو ويت القاضي بأن يعزل نفسه عن القضية، قائلاً: «هذا النوع من التصرفات هو الذي يسئ إلي سمعة إدارة العدل في بلدنا».

وبعد أربعين سنة عندما أصبح مانديلا رئيساً قال: «كان القانون يستخدم في جنوب إفريقية لا كأداة لتوفير الحماية للمواطن، وإنما كوسيلة رئيسية لإخضاعه. وعندما كنت طالباً شاباً في الحقوق كان

أحد طموحاتي أن أسخر تدريبي المهني لأرجح كفة العدل ولو قليلاً لصالح المواطن». كان يفاجأ بين وقت وآخر بعدالة القضاة، ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك محدودية المحاكم في رعاية الحريات المدنية. كما كتب فيما بعد: «في بلدنا حيث هناك قوانين عنصرية، حيث جميع القضاة والحكام من البيض تفوح منهم روائح التفرقة العنصرية الكريهة، فإن تطبيق هذه القوانين محدود جداً. ورأى الحكومة تملأ المحاكم بأنصارها، لكنه أدرك أن جنوب إفريقية ما تزال تنتج قضاة كباراً. قد يكونون مواطنين أفارقة أيضاً، ولكن لا يملكون من الشجاعة ما يكفي ليقفوا في وجه الحكومة. وفي السجن تذكر بمتعة كيف قال القاضي بلاكويل المحترم Judge Blackwell لرئيس الشركة السرية في الراند: «هذا البلد لم يصبح دولة بوليسية بعد!».

وبقي مانديلا مشتتاً بين احترامه لحكم القانون وتصميمه على الإحاطة بالنظام العنصري، ووجد نفسه يوماً بعد يوم على الجانب المتلقي من الآلة القانونية، وقد كان مضطراً لأن يعمل في الظل. ولمدة عشر سنوات، إلي أن سجن. كان محظوراً علية شغل أي منصب منتخب، كما كان ممنوعاً من إلقاء خطابات عامة ولم يكن له أي منصب رسمي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان عليه الاعتماد على شخصيته وصورته، لكنها كانت صورة قد بدأت تلتمع بشدة.

وتمتع مانديلا بفترة قصيرة من الحرية عندما انتهت فترة الأشهر الستة التي مُنع فيها من حضور الاجتماعات أو مغادرة جوهانسبورغ وذلك

في حزيران (يونيو) 1953، وذهب في رحلة إلي أورانج فري ستيت ليظهر كمحام في المحكمة في قرية فيليير الصغير Villiers. وأعطاه المنظر الطبيعي الريفي الفسيح إحساساً بالحرية، حتى أنه شعر بصلة قوية تربطه بالجنرال دو زيت بطل حرب البوار الإفريقانية، الذي حارب البريطانيين في تلك البلاد إلا أنه كان فجراً كاذباً. ففي فيليير حكم عليه بمنع آخر قيد حركته من حدود جوهانسبورغ ثانية، وطلب منه الاستقالة من جميع المنظمات، بما فيها المؤتمر الوطني الإفريقي، لمدة سنتين كانت تلك بداية مرحلة الملاحقة في حياته، يقول مانديلا: «وجدت نفسي محدوداً ومعزولاً عن جميع رفاقي الرجال، من الناس الذين يفكرون مثلي ويحملون معتقداتي. وجدت نفسي ملاحقا من قبل ضباط في فرع أمن الشرطة وجدت نفسي أعامل معاملة مجرم، مجرم مدان».

عرف مانديلا أن كثرة الممنوعات ستضعف المؤتمر الوطني الإفريقي إذ تحد من اتصالات القادة ونشاطاتهم، وتشجع زحف شرور الطائفية والإقليمية، ولدى توقعه أن يمنع المؤتمر الوطني الإفريقي برمته، وضع خطة تمكن القادة من الاتصال السري والسريع ببعضهم وبالإتباع بواسطة شبكة سرية من الخلايا. وسميت الخطة «خطة – M» بدل أن تسمى خطة مانديلا، كي لا يعرف أحد انه يشارك في أعمال المؤتمر الوطني الإفريقي بشكل مخالف للقانون، كان الهدف الرئيسي للخطة هو إعلام وتعبئة وتنسيب الأعضاء، ولكن يمكن أيضاً استخدامها لتكوين نقابات عمالية دون اجتماعات عامة. وكما حث مانديلا كونغرس الترانسفال

في أيلول (سبتمبر) 1953 : «إذا كان محظوراً عليكم الاجتماع علناً، عليكم بالاجتماع فوق آلاتكم في المعامل، وفي القطارات والحافلات في طرقكم إلى البيت. يجب أن تكون اجتماعاتكم في قراكم وأكواخكم، يجب أن تجعلوا كل بيت، كل كوخ وكل بناء من الطين يعيش فيه شعبكم فرعاً من حركة النقابات العمالية، ويجب ألا تستسلموا أبداً».

طبقت الخطة M في الكيب الشرقية، حيث كانت روح التحدي الأقوى. هذا أثلج صدر مانديلا، طالما أن الخطة قد نظمت من قبل الإفريقيين

أتى تحدي مانديلا السياسي المفتوح التالي في عام 1953 في بلدة صوفيا تاون المتعددة الأعراق، قرب جوهانسبورغ مركز البيض. كانت صوفيا تاون منطقة فقيرة مزدحمة تضم خمسين باحة خلفية تفوح منها رائحة الجعة التفهة، لكنها كانت إحدى مناطق جنوب إفريقية الأكثر تحرراً من الأحقاد القومية، ذات حيوية طاغية، وجمال وحشي، خلدها الشعراء والمصورون والرسام الأسود جيرارد سيكوتو Gerard sekoto والأكثر أهمية من الناحية السياسية هي أنها كانت الجزء الوحيد من جوهانسبورغ حيث يستطيع السود حيازة الأملاك الحرة، الأمر الذي لم تكن الحكومة تقبل به. وعندما كان السكان السود يجبرون على مغادرة بيوتهم، كان مانديلا يشجب الإخلاء القسري لكونه «احتيالاً محسوباً ومتعمداً». كان للمؤتمر الوطني الإفريقي أنصار أقوياء في موليا تاون، يتزعمهم اثنان من المهيجين هما روبرت ريشا Robert Resha وبيتر ثابت Peter Nthite، كما كان بينهم تسوتيز أو قطاع طرق، وشعر

التنفيذي الوطني أنه مجبر على مقاومة عمليات الإخلاء، في الوقت الذي يبقي على سياسة اللاعنف التي ينتهجها، وكان التحدي قاسياً.

بعد انتهاء الحظر المفروض على مانديلا في حزيران (يونيو) 1953 ترأس اجتماعاً في سينما أودين Odin Cinema في صوفيا تاون، برفقة القائد الهندي يوسف كاتشاليا، الذي اعتقلته الشرطة من على المنبر. ونجح في تهدئة الجمهور بمساعدة أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي. لكن بدأ يفقد صبره حيال أساليب اللاعنف. وإذا خطب في جمهور غاضب في ساحة الحرية بعد ذلك مباشرة، انساق وراء خطاباته وقال للجمهور إن عليه أن يستعد لاستخدام العنف قريباً. وأشار إلي رجال الشرطة الذين يطرقونهم وأنشد أحد أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي التي جاء فيها: «هاك عدونا!»، فتلقي تأنيباً قاسياً من قبل التنفيذي الوطني في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، وقبل التأنيب لكنة شعر في أعماقه بأن «اللاعنف ليس الجواب».

رغم ذلك تابع محتجو صوفيا احتجاجهم بطريقة سلمية، وألقيت مئات الخطابات من قبل قادة محليين تحاشوا الخطابة العنيفة. وفيما بعد خلص تقرير للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى أن «إلقاء حجر صغير وأحد على الشرطة كان سيؤدي إلي مذبحة في صوفيا تاون». وكانوا يلقون الدعم من راهب إنكليزي بارز هو الأب تريفور هادلستون Trevor Haddleston الذي كان يدير كنيسة: المسيح الملك Christ the King، التي تسيطر على صوفيا تاون، ومدرسة سانت بيتر القريبة التابعة للبعثة

في روزنتفيل. كان هادلستون الصديق والمعلم الخاص لأوليفر تأمبو، وقد تأثر بحملة التحدي لدرجة جعلته ينضم إلى المؤتمر الوطني الإفريقي في نضاله. وقد قال لجمهور أسود مأخوذ في قاعة التجارة Trade Hall في شباط (فبراير) 1953 : «على مدى قرون عديدة والكنيسة تأمرنا بأنه إذا انساقت الحكومة وراء الطغيان فإن القوانين تفقد سلطتها على الأفراد». لم يقلق هادلستون حيال العمل مع الشيوعيين. وقال: «أنا أعتقد بأن الشيوعية لا تشكل خطراً كبيراً في جنوب إفريقية». ورأى من واجبه كمسيحي أن يحمي أبرشيته في صوفيا تاون بكل إنسانيتها التي أحبها.

أدرك مانديلا أن هادلستون، مثل أصدقائه الشيوعيين البيض، كان يشعر بشعور الشعب وانه سيصبح صديقه وسنده مدى العمر. وقال هادلستون فيما بعد أنه لم يجد أية صعوبة في مناقشة الدين مع مانديلا، الذي كان يعتبره ممن يعتقدون أن وجود ألله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لم يكن ملحداً: «كان يعتقد أن الله سر غامض، ويقبل أولئك الذين يبنون حياتهم على الإيمان بالله. ويؤمن بنعمة الإرادة الحرة وحرية الاختيار، وكان ذلك الإيمان أرسخ في نفسه من أي معتقد سياسي».

وصل المؤتمر الوطني الإفريقي غليانه ضد دمار صوفيا تاون بشعارات مثل «لن نتزحزح» و «من فوق جثتنا» وسرعان ما تبين مانديلا أن ذلك كان خطأ فادحاً. فكتب في سجنه فيما بعد: «الشعار مثل الرصاصة. يعتمد تأثيرها علي ملائمتها لفوهة البندقية»، إلا أن تلك

الرصاصات لم تكن لتنفذ. أعطت صحافة العالم تغطية واسعة لأحداث الناحية الفقيرة بتوقعات عالية لحدوث حمام من الدم أو حتي ثورة. حيث كتب دون ماتيرا Don Mattera، وهو شاعر وزعيم عصابة يعيش في صوفيا تاون. «كنا جميعاً نعتقد أن الثورة قادمة حتماً» كان مانديلا وتامبو يأتيان إلي الناحية لينسقا القيادة ويمثلا المالكين المشردين. لكن مانديلا لم يستطيع تقديم وسائل سلمية للحيلولة دون الإخلاء. وقد كتب فيما بعد «لم نعتقد في أي وقت خلال هذه الحملة أن بإمكاننا التغلب على الحكومة».

تعلم مانديلا درساً هو، ألا ينعش الآمال بالثورة قبل الأوان «فصوفيا تاون لم تمت على وقع أصوات إطلاق النار وإنما على قعقعة الشاحنات والمطارق الثقيلة» واقتنع أنه في المستقبل «لا بديل لنا عن المقاومة المسلحة العنيفة». وبدأ يتحرق شوقاً لمجابهة يستطيع أن يثبت نفسه من خلالها، لكن كان يكبحه سيسولو الأكثر تماساً مع الشباب المناهض ويذكر بأنهم «كانوا يأتون إلي اجتماعاتنا تستحوذ عليهم فكرة واحدة هي أن أعلن الثورة».

كان مانديلا حتى ذلك الحين فيه شيء من الجموح، كقنبلة طائشة في المؤتمر الوطني الإفريقي، وكانت لخطاباته لمسات تضرم الحماسة، وتجلب المتاعب من قبل الحكومة. كتب أول خطاب رئيسي له بصفته رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال. وتُلي بالنيابة عنه في المؤتمر السنوي في أيلول (سبتمبر) لأنه كان ممنوعاً من الحضور. جاء

في الخطاب: «الشعب اليوم يتحدث بلغة العمل. وهناك استفاقة جبارة بين الرجال والنساء في بلدنا». وتذكر أمجاد حملة التحدي، عندما تحول البلد كله إلى ساحات معارك، انهمكت قوى التحرير في نزاع خالد الذكر ضد القوى الرجعية والشر.

ورفرف علمنا في كل ساحة معركة: «واضطر مانديلا فيما بعد إلى أن يبين للقضاة انه كان يكتب بشكل مجازي».

وأنطلق الخطاب ليربط نضال جنوب افريقية بسواه في إفريقية، حيث كان المعادون للامبريالية يكتسبون قوة قال مانديلا: «القارة برمتها تغلي استياء وقد اندلعت الثورات في ساحل الذهب ونيجيرية وتونس وكينية، وروديسية وجنوب إفريقية.. وصرح كيف «أثارت المذبحة التي ارتكبتها بريطانية بحق الشعب الكيني احتجاجا عالمياً. حيث يحرق الأطفال أحياء، وتغتصب النساء، ويعذبن، ويجلدن ويسكب الماء المغلي على أثدائهن لانتزاع الاعترافات منهن».

وأنهى خطابة بمقوله لنهرو، أصبحت عنوان الخطاب: «السير نحو الحرية ليس سهلاً: «بإمكانكم أن تروا أن الطريق إلى الحرية ليست سهلة في أي مكان، ولا بد لكثير منا أن يعبر وادي أطياف الموت مراراً قبل الوصول إلى القمم التي نتطلع إليها».

كان مانديلا أكثر تأثراً بنهرو مما كان يحب أن يعترف، وقال بعد أربع وأربعين سنة: «لقد اقتبست كثيراً من كتابات نهرو دون أن انسبها إليه، وكان ذلك عملاً سخيفاً. لكن عندما يكون داخلك نقص في الآراء فإنك تميل لآن

تفعل ذلك». كما كان قد بدأ يميل إلى الخطابة الماركسية المعادية للاستعمار.

وبعد بضعة أشهر، عندما رفع الحظر عنه ثانية لفترة بسيطة ألقي خطاباً في مجلس السلم اليساري تهجم فيه بشكل مروع على الجشع الإمبريالي.

في 13 كانون الأول (ديسمبر) 1953 تحدث مانديلا ساعة ونصف ساعة في اجتماع كبير في سوويتو. وقام أحد رجال الشرطة هو السيرجنت التحري هيلبرغ Helberg بتسجيل خطابة (بشكل غير دقيق لحسن الحظ) واستخدامه فيما بعد دليلاً على الخيانة. حذر مانديلا الحشد الهائل قائلاً: «علينا أن نلجأ إلي طرق جديدة في نضالنا. لم يعد الكلام من على المنابر كافياً. يجب القيام بمزيد من العمل وراء الستار أو حتى تحت الأرض». ومضى يقول لهم: «لن تريقوا الدماء هدراً. سنقيم صرحاً لكم قرب شاكا Shaka».

وما من شك في أن خطاباته أصبحت أشبه بالخطابات الحربية، وأصبح التنافس علنياً بين مانديلا الثوري والمحامي. لكن وراء هذه الاستعراضية في المحاكم ومن فوق المنابر، ما زالت هناك شكوك حول جديته كقائد. ومثل سواه من السياسيين المولعين بالقتال وهم خارج المنصب، مثل ثيودور روزفلت في عقد التسعين من القرن التاسع عشر ووينستون تشرشل في عقد الثلاثين من القرن العشرين، كثيراً ما كان يبدو مفسداً يريد القتال دون أن يكون وراءه تنظيم حقيقي أو خطة.

## الفصل السابع

# صور من كفاح مانديلا

## الفترة من (1953 - 1956)

يتحدث هذا الفصل عن صور من كفاح مانديلا خلال أعوام (1953 - 1956) برغم تطور مانديلا السياسي إلا أنه احتفظ بقوميته الإفريقية الأساسية، وفخره بشعبه وتاريخه، وتصميمه على استعادة حقوقهم. ولكنة كان يبحث عن الحلفاء بين أوساط الليبراليين البيض، والغانديين الهنود، ورجال الدين المسيحي. وكان أكثر أصدقائه فعالية والتزاماً هم الشيوعيون الذين أعادوا تنظيم أنفسهم عام 1953 في الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، كان الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فريداً في تعدده العرقي، وبقي مختلفاً تماماً عن أحزاب البيض الأخرى، وعن الأحزاب الشيوعية في أماكن أخرى، وكان يضم بعض الأعضاء غير الثوريين إطلاقا، لكن بسبب تعريف بريتورية الخاص «للشيوعية المالية»، التي ابتكرت على خلفية تصعيد الحرب الباردة، يمكن أن يوصف الجميع بأنهم ثوريون خطرون يستولون على المؤتمر الوطني الإفريقي، مما يبعد الأنصار المحتملين الآخرين.

وقد صور (بعبع) الشيوعية بصورة أكثر تهديداً في المرحلة التالية من حملة المؤتمر الوطني الإفريقي، في التحضير لما يسمى «ميثاق

الحرية» ووجد ليبراليو جنوب إفريقية، وكثير من الغربيين المتعاطفين معهم، في الميثاق مؤامرة شيوعية صرفة تهدف إلي تحقيق نفوذ خفي من خلال جبهة شعبيه تقوم بتظاهرات مدروسة بحذر، وتستخدم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي كمخالب ساذجة لتمرير دعاية الشيوعيين. لكن ذلك الرأي شوهته مرآة الحرب الباردة المبكرة. لم يكن فحوى الميثاق موجهاً ضد الرأسماليين أو الديمقراطيات الغربية، وإنما ضد الوطنيين ذوي الأفق الضيق، أفارقة كانوا أم لا. وقد كان الميثاق خرقا تاريخيا بالنسبة لمانديلا ومعظم رفاقه. إذ ألزم المؤتمر الوطني الإفريقي بنبذ العنصرية وتوسيع قاعدة النضال.

لم يكن صاحب ميثاق الحرية شيوعياً ولا مناهضاً يحب القتال، وإنما كان رجل الدولة المسن المحافظ من حزب المؤتمر الوطني الإفريقي (زد. كي. ماثيوز) معلم مانديلا في فورت هير. لقد أجبر (ماثيوز) على العودة إلى جنوب إفريقية بعد سنة أمضاها في الولايات المتحدة في أيار (مايو) 1953، عندما رفضت الحكومة تجديد جواز سفره عاد بشعور أكثر راديكالية. وعندما وصل ماثيوز المطار صادر الفرع الخاص Special Branch كتباً لمؤلفين منهم أرنولد توينبي، وصورة فوتوغرافية لصديق زد. كي المغني والممثل الشيوعي بول روبسون Paul Robeson وجد ماثيوز آمال شعبه قد تداعت كثيراً. وقد كان فوز الوطنيين الانتخابي في العام السابق أكبر مما بدا، ونوه ذلك لأن «أحزاب المعارضة هي مجرد صور باهتة من حزب الحكومة فيما يتعلق بسياستها تجاه اللون».

كان أول ما ناقش ماثيوز فكرة جمع جميع الأعراق ووضع دستور متعدد الأعراق كان على الغداء مع أولاده في بيته. التقطت الفكرة جماعات أخرى، وفي آب (أغسطس) 1953 قام ماثيوز بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب بطرح الفكرة رسمياً أمام المؤتمر السنوي قائلاً: «ألم يحن الوقت بعد كي يفكر المؤتمر الوطني الإفريقي بمسألة الدعوة إلي عقد مؤتمر وطني، يمثل الشعب كله في هذا البلد بغض النظر عن العرق أو اللون، لوضع ميثاق الحرية من أجل جنوب إفريقية ديمقراطية في المستقبل؟».

وتذكر فيما بعد مقولته وقال: «لم أكن أدرك تماماً عندما تفوهت بهذه الكلمات أنني ارسي حجر الأساس لتهمة الخيانة»، علق مانديلا في سجنه بعد عشرين عاماً قائلاً: أن الأمر كان يدعو إلى السخرية فماثيوز الذي كان يُنتقد هو الذي عبر عن الفكرة الحيوية التي أصبحت «الفلك الذي تدور فيه آمالنا».

رحب مانديلا بالمؤتمر المقترح كونه استعراضاً علنياً للقوة وقارنه بتأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912. واكتسب الاقتراح أهمية كبيرة، وبخاصة في ضوء الشك في أن المؤتمر الوطني الإفريقي سرعان ما يحُظر جملة وتفصيلاً.

أُقرت الفكرة في المؤتمر السنوي التالي للمؤتمر الوطني الإفريقي في كوينزتاون في كانون الأول (ديسمبر) 1953. وكان التوتر واضحاً بين الخطباء الماركسيين، الذين نظروا إلى النضال من منطلق طبقي،

وبين الطرح المسيحي للرئيس ألبرت لرثولي الذي أصر علي أن «الدافع والتوق إلى الحرية يعودان إلى - استياء مقدس» وهو بالتالي من منبت مقدس، لا يمكن أبداً أن يسكت إنسانياً على الدوام. أراد بعض الوطنيين طرد سيسولو لتواطئه مع أعراق أخرى، لكن أغلبية الوفود كانت مقتنعة بالحاجة إلى التعاون: وأشار لوثولي إلى المثال الخطير للقومية الأفريقانية الضيقة وأصر على أن تكون القومية الإفريقية ديمقراطية تقدمية أوسع. وتمت الموافقة على الحاجة إلى ميثاق الحرية، وكلف المؤتمر التنفيذيين باتخاذ التحضيرات الفورية لمجلس للشعب يضم فيلق متطوعي الحرية الوطنية.

في آذار (مارس) 1954 ساعد سيسولو وماندیلا في تنظيم اجتماع مع بعض حلفاء المؤتمر الوطني الإفريقي في تونغات Tongaat، قرب منطقة بيت لوثولي. وألف مجلس عمل قومي من ثمانية أعضاء للتحضير لمؤتمر الشعب.

اثنان فقط من أعضاء المجلس (لوثولي وسيسولو) كانا من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي سارع الوطنيون إلى تأطيره كمؤشر لهيمنة الخارجية. كان بين الستة الآخرين اثنان من الكونغرس الهندي الجنوب إفريقي واثنان من منظمة الشعب الملون الجنوب إفريقية، واثنان من الهيئة الجديدة من أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي البيض، الذين أدى إشراكهم إلى إثارة شكوك وتناقضات جديدة.

انكبت اللجنة المركزية لمنظمه الشعب الملون في جنوب إفريقية،

والتي ضمت جو سلوفو وراستي ببرنشتاين، على تنظيم مؤتمر الشعب، فعقدت كثيراً من الاجتماعات السرية. ذُعر أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر وطنية، والمتعمقون بالشؤون الإفريقية من النفوذ الشيوعي، لكن مانديلا قدر الجهد الكبير والالتزام التام ألذي أبداه أصدقاء مثل برام فيشر Bram Ficher ومايكل هارميل Michael Har-nel اللذين طوردا واضطهدا بقدر ما طورد واضطهد السود، اللذين تطلعا إلى ما كان يتوق هو إلى تحقيقه بالإطاحة بالهيمنة البيضاء. وعندما أتى كتتون كولينز إلي جوهانسبورغ من لندن عام 1954، أكد له مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس شيوعاً، وبالرغم من أن الحكومات كانت تدفعه في ذلك الاتجاه «لم يكن في الوقت متسع لأن يكون هناك إمكانية تعاون حقيقي بين السود والبيض».

دعا المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة بيضاء أخرى شكلت إضافة إلى كونغرس الديمقراطيين للمشاركة في رعاية مؤتمر الشعب، وكان الحزب الليبرالي قد أسس عشية الانتخابات العامة في نيسان (ابريل) 1953 عندما زاد الوطنيون أغلبيتهم، لمواجهه قوى العنصرية. وكان بين قادتها مثقفون أكاديميون محترمون بينهم الروائي آلان باتون Alan Paton، وكانت ممولة جزئياً من قبل هاري أوبنهايمر Harry Opnerheimer رئيس الشركة الأنغلو أمريكية العملاقة. كان الليبراليون معارضين تماماً للأرباثيد إلا أنهم لم يطالبوا الانتخاب للجميع، وكانوا يناصيون الشيوعيين العداء. وقد كتب باتون فيما بعد قائلاً: «بين الشيوعيين

والليبراليين تنافر جذري».

أبتعد معظم الليبراليين عن المؤتمر الوطني الإفريقي وأصدقائه الشيوعيين، إلا أن بعض قادة المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يصادقون أعضاء أفراداً في الحزب الجديد. حيث كان الرئيس لوثولي على اتصال، كما نوه ومانديلا، بأكثر الليبراليين ليبرالية، ورحب بالحزب كحليف في وجه غلبة تفوق البيض. مانديلا أيضاً كان له أصدقاء ليبراليون، خاصة باتريك دانكان الذي أنضم إلي حملة التحدي. إلا أنه كان ينتقد الحزب الليبرالي.

وكان مانديلا قد بدأ يستشعر الحاجة إلي العنف، واعتقد بأن الليبراليين سيقفون في وجهه. كما أنه كان يضيق ذرعاً برفض الليبراليين دعم حق الاقتراع للجميع.

في حزيران (يونيو) 1953 كتب مانديلا مقالاً بعنوان «ضوء كاشف للحزب الليبرالي»، نشر في الدورية الشهرية (التحرير) «ليبريشين» التي كان مايكل هارميل رئيس تحريرها، ومانديلا نفسه في هيئة التحرير. هاجم مانديلا إصرار الليبراليين على «الوسائل الديمقراطية والدستورية» ورفضهم دعم «صوت واحد لكل راشد». ورآهم جزءاً من الطبقة الحاكمة الأوروبية التي قال إنها «تكره وتخشي الديمقراطية الثورية في جنوب إفريقية وتوقع فراقاً واضحاً في السبل بين أولئك الذين ألزموا أنفسهم بالبرنامج الثوري وأولئك الذين لم يفعلوا.

أجاب الليبراليون عن طريق البروفيسور توم برايس Tom Price الذي صب احتقاره على «عبارات مانديلا الوردية التي ولدت مع ثورة

أكتوبر»، فكان ذلك هجوما آسف مؤرخ الحزب الليبرالي راندولف فيغن لأنه «لم يفد في شيء سوى أنه رسم خطوط المعركة بين الليبراليين والكونغرسيين الجدد بالأسود والأبيض». رحب الليبراليون في البداية بفرصة المساهمة في رعاية مؤتمر الشعب إلا أنهم سرعان ما اقتنعوا بأنهم يدفعون إلي شرك «جبهة شعبية» تتخذ قراراتها مسبقا من عناصر شيوعية. كما اعتقدوا أن الكونغرس (المؤتمر) سيكون «شأناً صغيراً جداً»، وقرروا الانسحاب قبل أن يعقد، مما أشعر كثيراً من الأعضاء بالندم فيما بعد.

واستمرت التحضيرات دون الليبراليين، ولكن بكثير من الشحن من قبل الشيوعيين البيض في كونغرس الديمقراطيين وعُقد جماعات في طول البلاد وعرضها مئات الاجتماعات، وقدمت مسوداتها ومقترحاتها التي كانت ستجمع في ميثاق حرية كبير ليطرح أمام الكونغرس. ما من شك في أن الاستجابة كانت حيوية، وفيما بعد قال جو تلوفو إن «عشرات الآلاف من القصاصات الورقية أتت كالفيضان: مزيج من أوراق الكتابة الناعمة، وصفحات مزقت من كتب التمارين المدرسية ملطخة بالحبر، وقطع من الورق المقوى وقصاصات من أكياس الورق البنية والبيضاء، وحتى الهوامش غير المطبوعة من الصحف»! شك بعضهم بأن هذا الفيض من الديمقراطية لم يكن غنياً بقدر ما بدا. ولاحظ سيدني كينتريدج الذي أصبح فيما بعد مستشار مانديلا، أن كثيراً من الطلبات كتبت بالخط نفسه، وشك بأن تدبيراً تكنيكياً شيوعياً سرياً ينشط وراء

ذلك بغرض إبعاد الجماهير عن قادتهم السابقين. إلا أن ميثاق الحرية الذي انبثق كان بعيداً كل البعد عن كونه بياناً شيوعياً. وبعد مضي فترة طويلة بقي مانديلا على قناعة بأنها «وثيقة ولدت من قلب الشعب. ولم تكن شيئاً فرض من الأعلى. ودهش بمدى تقدم الجماهير علي السياسيين في مجالات عديدة.

وراء الكواليس عمل مانديلا عملاً وثيقاً جداً مع وولتر سيسرلو، الذي كان ملاحقاً من قبل الشرطة. وقال زد. كي. ماثيوز للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب في حزيران (يونيو) إن سيسولو يعمل وراء (الستار الحديدي) في الترانسكي مثل (كزبرة الثعلب القرمزية) وذلك قبل أن يرث مانديلا ذلك اللقب:- (إنهم يبحثون عنه هنا، ويبحثون عنه هناك، يبحثون عنه في كل مكان). وسرعان ما أمسكته الشرطة في منزله في أورلاندو في تموز (يوليو) 1954، كان يتحدث بلهجته التحليلية المعهودة عن المنع والاعتقال عندما دخل اثنان أفريقيان من الشرطة السرية. كانا لطيفين بشكل غير متوقع: «ها قد وجدناك أخيراً. لدينا رسالتين من وزير العدل لك». أجاب سيسولو «كنت أترقب وصولكم.. اثنان فقط؟ هذا لن يؤثر في شيء كما تعلمان فالنضال سيستمر!». ابتسم التحريان وقالا: «لتحيا إذاً إفريقية».

في اليوم التالي اعتقل سيسولو وصدر بحقه فيما بعد حكم بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لحضوره اجتماعا ضم خمسة أشخاص. لكنة بقي القوة المحركة وراء المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي آب (أغسطس)

1954 ذكر أنه قبل خمس سنوات وعد كأمين عام لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي وقال «سأكون تحت تصرفكم بشكل كامل». وشرح كيف أدى الحظر المربك إلى إبعاد معظم أعضاء التنفيذي الوطني، ومنهم مانديلا، لكنه أكد أن الحركة تزداد قوة وقال: «إن الحكومة قد اهتزت. لقد انقضى الزمن الذي كان بإمكانها حكم البلد وكأننا، نحن الشعب، ليس لنا وجود». والواقع أن سيسولو كان ما يزال ينظر إلى زملائه على أنه أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ومانديلا شريكة الحميم.

وقد وضع المسودة الأولى لميثاق الحرية المهندس الشيوعي راستي بيرنشتاين، الذي أضاف مقدمة وخاتمة بلهجة خطابية اعتبرها فيما بعد مفرطة في التفتح. وفي أوائل حزيران (يونيو) عرضت المسودة على مجموعة تخطيط صغيرة، من ضمنها مانديلا، الذي أجرى بعض التعديلات. كان معنى الميثاق إنه ساحة معركة على مدى طويل، في حين بقي مخلداً في التاريخ، وقد سجن واضعوه أو نفوا إلى الخارج. وكان يدان أحياناً كوثيقة ماركسية، أبرز ما تعد به هو أن «الثروة المعدنية تحت الأرض، وصناعة المصارف والاحتكارات، ستؤول ملكيتها إلى الشعب كله». لكن الحقيقة هي أن الميثاق كان مصمما ليعطي كل شيء للجميع: رأى مانديلا أنه جبل من طلبات العامة، المنبثقة من حياتهم اليومية. وكان ينادي بمبادئ أكثر مما ينادي بسياسات، بأسلوب حماسي كأنه مزمار سياسي. إن الميثاق يتبع ما درجت عليه العادة من إعلان حقوق الثورة، الفرنسية والأمريكية، كما يعكس شيئاً من إعلان حقوق

الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة.

استهل ميثاق الحرية بالكلمات التالية:

نحن، شعب جنوب إفريقيه، نعلن لبلدنا ولكل العالم:

أن جنوب إفريقية ملك لكل من يعيش فيها، أسود كان أم ابيض، وأن ليس لأية حكومة أن تدعم السلطة بحق، ما لم تعتمد على إرادة الشعب.

حدد مؤتمر الشعب يوم 26 حزيران (يونيو) 1955 وعقد المؤتمر في ملعب رياضي خاص في كليب تاون قرب سويتو. واحتشد ثلاثة آلاف من وفود جميع أرجاء البلاد في المشهد المبهج، الذي بدا أشبه بعيد ديربيDerby Day (يوم سباق الخيل) من تظاهرة مناهضة. وكان بين الوفود قرويون سود متعبون وعمال مكاتب بربطات عنق زاهية، ومحامون هنود ناعمون مع زوجاتهم اللاتي يرتدين الساري، وجدات سود يترنحن في تنانير واسعة بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي. كان التأثير الشيوعي واضحاً بدلالة الأكشاك التي كانت توزع كتيبات يسارية لكن الاجتماع بحد ذاته كانت له طبيعة مرتاحة وحميمة تميز اجتماعات الكونغرس التقليدية، بحضور عناصر مسيحية بينها الأب هادلستون، الذي منح وسام شرف خاص من المؤتمر الوطني الإفريقي.

وقد منع مانديلا، مثل معظم المنظمين، من الحضور واستطاع أن يرقبه من بعيد فقط، وكان قد توجه بسيارته إلى كليب تاون برفقه سيسولو، وتجول حول الجمع متنكراً، ووقف بعض الوقت قرب رجل ملتح من الترانسكي، معجباً بالتزام الناس. بدا مثيراً للدهشة أن اجتماع

كليبتاون نفسه لم يمنع، وسرعان ما أتضح السبب في ذلك ...

راقب مانديلا المؤتمر وتابع سيره البطيء، في اليوم الأول تُلي ميثاق الحرية بثلاث لغات، وتمت الموافقة عليه بصيحات إفريقية من الجماهير. وفي اليوم الثاني قوبلت كل فقرة من الميثاق بالهتاف والتصفيق، إلي أن وصلوا إلى كلمات «سيعم السلام والصداقة». عند تلك النقطة قوطع الاجتماع فجأة باندفاع رجال الشرطة وعناصر الأمن بين الحشود مسلحين بالبنادق. وأمسك ضابط أفريقاني مكبر الصوت وأعلن أنهم يحققون في قضية خيانة عظمى، ويبحثون عن وثائق مخربة. سجلت الشرطة أسماء جميع الحضور قبل أن تسمح لهم بالمغادرة، حيث انسحبوا بسلام فيما كانت فرقة موسيقية تعزف بأبواق مبعوجة وطبول مكسرة أغاني إفريقية، شعر مانديلا برغبة شديدة في الانضمام إليهم، إلا أنه راجع نفسه، وعاد أدراجه إلي جوهانسبورغ ليحضر اجتماعاً طارئاً لقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. كان طبيعياً أن تدرك الشرطة أهمية المؤتمر. لكن مانديلا عرف أن الغارة كانت «مؤشراً بانعطاف حاد جديد».

سرعان ما اكتسب ميثاق الحرية زخماً مستقلاً. ولما لم يكن قد أقّر بشكل كامل في مؤتمر الشعب، كان وضعه مقلقلاً. حيث أن الميثاق قد «خرج عن سيطرة المؤتمر وبسبب قلة التبصر فقد اتخذ منحى حراً خاصاً به». وقد أسهبت الصحف البيضاء في تغطية أخبار الاجتماع وتدخل الشرطة فيه إلا أنها لم تنشر الميثاق نفسه، لكن نص الميثاق سرعان ما

تردد صداه داخل المؤتمر الوطني الإفريقي وتحداه نقاد أقوياء.

ناقش المؤتمر السنوي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1955 الميثاق في جو عاصف فيما مُنع معظم مهندسيه من الحضور، وتشكت التنفيذية الوطنية من أن كثيراً من فروع المؤتمر الوطني الإفريقي أظهرت تراجعاً تاماً في النشاط، كما لو أن بعضهم ندم على ولادة هذه الفكرة النبيلة والعظيمة». وشعر لوثولي نفسه بعدم الارتياح، كما قال لآرثر ليتيلي Arthur Letele زميله في المؤتمر، لكنه أدان الميثاق وطرح فكرة «القومية الإفريقية الشاملة» التي تضم جميع الجنوب إفريقيين، قاوم كثير من الوطنيين، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «أنصار إفريقية». التعاون مع الأعراق الأخرى. وكتب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي السابق ألفريد زوما رسالة تشكي فيها من «ميول معينة» داخل المؤتمر. التي اعتقد أنها «فقدت هويتها كحركة تحرر وطنية ذات سياسة خاصة بها مختلفة عن القيادة الإفريقية»، وأكد أستاذ مانديلا السابق بيتر مدا القومية الأصلية لرابطة الشباب في مقالة في مجلته «الإفريقي» جاء فيها: «لمسنا منذ البداية الحاجة الملحة لتخليص المؤتمر الوطني الإفريقي من الهيمنة الأجنبية». وقال: «لم يترك أي رجل أبيض بصمته علينا».

وأجل المؤتمر السنوي عمليا إقرار ميثاق الحرية إلى مؤتمر خاص يعقد في أورلاندو في نيسان (إبريل) 1956. وهناك أثار عاصفة جديدة، فقد تذمر أنصار إفريقية من أن المؤتمر يزخر بـ «الميثاقيين»

وهاجموا فكرة أن الأرض ملك للجميع، بشكل واضح في عبارة «جنوب إفريقية ملك لكل مَنْ يعيش فيها التي اقترحت الملكية العامة. وكان لدى لوثولي وفرع ناتال مخاوف خاصة حول التعابير الاقتصادية في الميثاق، إلا أنهم تجاوزوها لصالح الوحدة، إذ لم يشاؤوا شد عضد أنصار إفريقية.

أُقر ميثاق الحرية أخيراً من قبل المؤتمر. وكان انجازاً كبيرا أن يتبنى المؤتمر الوطني الإفريقي بياناً غير عرقي في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الإفرقانية تفرض سلطتها العنصرية الشاملة.

كتب مانديلا فيما بعد قائلاً: «للمرة الأولى في تاريخ بلدنا شجبت القوى الديمقراطية بغض النظر عن العرق والقناعة الإيديولوجية والانتماء الحزبي والمعتقد الديني، ونبذت العنصرية بكل أشكالها». إلا أن الميثاق أقر مقابل انشقاق ضار، قُسم المؤتمر الوطني الإفريقي إلى قسمين بعد عامين من ذلك.

أعطى نيلسون مانديلا تفسيره الخاص لميثاق الحرية، الذي أصبحت له أهمية كبيرة فيما بعد في مقال مهم في مجلة التحرير (ليبريشين) في حزيران (يونيو) سنة 1956، في الذكرى السنوية الأولى لمؤتمر الشعب. لم يكن ذلك رأيه وحده فجميع المقالات في مجلة «ليبريشين» كانت تؤيد مانديلا كلها، وقد طلب من مانديلا أن «يصحح الافتراض بأن ميثاق الحرية كان وليد دولة اشتراكية». وقد رسخ المقال التفسير الماركسي للميثاق، الذي قال مانديلا إنه «وثيقة ثورية وأن التغييرات

التي يصورها لا يمكن تحقيقها دون كسر التركيبة الاقتصادية والسياسية لجنوب إفريقية». وركز على الحاجة إلى الملكية العاملة قائلاً: «الميثاق يسدد ضربة قاضية لشركات مناجم الذهب المالية الاحتكارية التي نهبت البلد على مدى قرون واستعبدت شعبه».

لكنة رحب في مقطع حاسم بالفرصة التي ستتاح للتوسع في الاستثمار الحر قائلاً «إن فك هذه الشركات الاحتكارية وإخضاعها للديمقراطية سيفتح مجالات جديدة لظهور طبقة برجوازية غير أوربية غنية. ولأول مرة في تاريخ هذا البلد ستتاح للبرجوازية غير الأوربية فرصة ملكية اسمها الخاص وستزدهر المطاحن والمصانع والتجارة الصحيحة والاستثمار الحر كما لم تزدهر من قبل أبداً».

بقي صدى هاتين الجملتين يتردد في المحكمات والنقاشات الغاضبة في جزيرة روبن.

(هُمشت) النقاشات حول الأنظمة الاقتصادية في المستقبل لصالح النشاطات الأكثر أهمية للحكومة الأفريقانية وفي منتصف الخمسينات كان الوطنيون يبسطون سياسة الأبارثيد بسرعة أكبر وأعمق مما توقع مانديلا ورفاقه في البداية عام 1954 . تقاعد الدكتور مالان عن عمر يناهز الثمانين، ليخلفه كرئيس للوزارة هانز ستريجدوم، المدافع الضاري عن الهيمنة البيضاء، دون مهارة ثقافية تذكر. إلا أن مفهوماً أكبر طموحا «للأبارثيد الكبير». كان قيد الإعداد من قبل الدكتور هندريك فيرووِرد Hendrik Verwoerd وزير الشئون الأهلية، الذي أصبح رئيساً

للوزراء عام 1958.

أمضى مانديلا وقتاً طويلاً يحلل ويفند مؤامرة فيروورد المقززة – على حد تعبيره - ورأى أن فيروورد يتبع الأفكار العريضة لاشتراكية هتلر ومبادئه العرقية، التي خطط لأن يحكم بموجبها المستعمرات الألمانية في إفريقية. وفي حزيران (يونيو) 1957 كتب مانديلا: «لقد أصبحت الفاشية حقيقة حية في بلادنا. وأصبح التغلب عليها المهمة الأساسية لكامل الشعب في جنوب إفريقية». ولكن كان لدى فيروورد ما يدعوه إلى الاعتقاد بأنه سيكسب دعم قادة القبائل، وذلك عن طريق تشجيع تنافساتهم وخلافاتهم. وأتيحت له فرصة خاصة ليفعل ذلك في الأماكن البلدية حيث الزعماء يخشون على نفوذهم الإقليمي ومزاياهم. قلة فقط من الزعماء، مثل البرت لوثولي، كانت مستعدة لأن تستقيل من زعامتها على أن تخدم كقوة أجنبية. وكما في أوروبا إبان الحرب، كان لابد من شجاعة كبيرة لمقاومة إغراء العمالة لنظام بتلك القوة.

رأى مانديلا أنه لابد أن يذهب إلى جوهانسبورغ، التي صاغت خطه السياسي ومواقفه الراشدة. إلا أنه أبقى على علاقاته بالريف، كما أن أصوله الملكية ونشأته قد أعطياه إحساساً أعمق بالتفاعل مع أرض وطنه أكثر من أي من زملائه. إذ كتب فيما بعد: «إن أربع عشرة سنة من الحياة المزدحمة في أكبر مدن جنوب إفريقية لن تقتل روح الفلاح في». وفي أيلوي (سبتمبر) 1955 نفذت فترة منعه من السفر فقرر أن يزور الترانسكي ثانية.

وإذ قاد سيارته عبر ناتال واستمتع مرة أخري بالمشهد الطبيعي الواسع، وبقربه من الطبيعة، وشعر بلذة تنعكس من خلال كتاباته. تذكر ارتباطات الأرض التاريخية، والمعارك القديمة من أجلها أولاً بين الزولو والبريطانيين، ثم بين الأفارقة والبريطانيين. وفي دوربان أقام عند صديقيه الهنديين إسماعيل وفاطمة مير، وزار لوثولو وهو تحت الحظر في غروتفيل. ولدى وصوله إلي بيت الأسرة في الترانسكي رأي والدته ثانية، بشعور من الحنين والتقصير. ودعاها لتأتي وتقيم معه في جوهانسبورغ، لكنها اختارت أن توالي حياتها وحيدة، تبعد عشرين ميلاً عن أي طبيب، فلاحة بسيطة مازالت تحرث الحقول وتتحمل الظروف القاسية. في السجن كان دائماً مشغول البال بها، لكنها شجعته على الدفاع عن معتقداته، وعاد فأكد لنفسه أن نضاله يعطي شعبه معني جديداً للحياة.

كان هدفه الرئيسي من زيارته الترانسكي سياسياً. فقد كانت الحكومة مصممة على بسط الأبارثيد بواسطة قانون سلطان البانتو الجديد، الذي يرفع سوية الزعماء محلياً لكنة يتبعهم بحكامهم البيض في بريتوريا. وترانسكي كانت حقل التجربة. رفض البانغا Bunga - (مجلس زعماء الترانسكي) – القانون الجديد عام 1952، إلا أن الحكومة أغرتهم بسلطات مالية وقضائية أكبر، وعام 1955 صوت (البانغا) على القبول به. أنزعج مانديلا، لكنة كان واقعياً، فقد فهم بوضوح، بموجب أرضية الزعامة التي عاشها، مدى إغراء التواطؤ. وفي

تموز (يوليو) 1955 كتب مقالاً أثار جدلاً كبيراً لمجلة (فايتينغ توك) بعنوان (إغواء البانغا لقبول الأبارثيد) وأشار إلي أن الحكومة ستدفع لكل زعيم أو رئيس، وتطرده إذا لم يستجب، كما طرد الزعيم لوثولي عام 1952. كان ذلك جزءاً من «إغواء متعمد» لخداع القادة القبليين السذج إلى الاعتقاد أن لهم صوتا في حكومتهم. لكن مانديلا أدرك ضعف دعاية المؤتمر الوطني الإفريقي في مواجهة تأثير الزعماء على الناس، وحث المؤتمر الوطني الإفريقي على إعادة النظر في قراءة مقاطعة الانتخابات الترانسكية القادمة قائلاً: «ألا يجب أن تستخدم هذه الهيئات كمنابر لفضح سياسات الحكومة الوطنية وجذب الناس نحو حركة التحرير؟»

نطر مانديلا إلى النزاع من زاوية شخصية جداً. فقد كان قيصر ماتانزيما ابن أخته الذي كان بطلاً في فورت هير، قد أصبح الزعيم الأكبر لأراضي تيمبولاند الغربية الشاسعة، وقد ساعد في إقناع البانغا بقبول القانون الجديد. كان بين الرجلين اللذين خلقا للزعامة، وكلاهما محام جدير بالثقة، أمور كثيرة مشتركة، وود عائلي دائم إلا أن ولاءاتهما كانت مختلفة تماماً، ووجدا نفسيهما على طرفي نقيض في نظر كلاسيكي بين المتواطئ والمقاوم. لم يعد مانديلا يؤمن بمبدأ الوراثة الذي أفاد منه ماتانزيما، فيما كان ماتانزيما يرى مانديلا جوهانسبورغ «بعيداً عن أهل وطنه».

أثناء زيارته للترانسكي تجادل مانديلا مع ماتانزيما طوال الليل،

متحاشياً بحذر التعميمات النظرية. وحذره من أن الحكومة تهدف إلى تفريق السود للسيادة عليهم، وقال إن المقاومة ستتفادى مذابح قادمة. أجاب ماتانزيما بأن الزعماء سيزدادون قوة في ظل نظام الأرباثيد، وأن سياسة التعددية العرقية ستزيد الانشقاق العرقي، مما يؤدي إلي إراقة الدماء والمرارة. ورأى نفسه كأنه في خضم معركة.

تابع مانديلا جولته في البلاد. فذهب إلي بورت إليزابيث حيث التقي لأول مرة مع (غوفان مبيكي) الناشط الماركسي الذي كان ينظم المؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب الشرقية. ثم زار منظم الحملة الإنكليزي (كويستوفر جيل) الذي كان يعيش برئة حديدية، كان يوجه منها النصيحة الخالصة للمؤتمر الوطني الإفريقي والانتقادات الحادة للأبارثيد في رسالته الإخبارية – (تقرير أشعة إكس في إفريقية) – لم ينس مانديلا أبداً هذا الحليف غير العادي وعندما مات جيل قام المؤتمر الوطني الإفريقي بتنظيم جنازته، التي كان الندابون السود فيها أكثر من البيض.

تابع مانديلا رحلته إلي كيب تاون، مسحوراً بطريق الحديقة المشهورة، وتوقف في كلاركسون ليستمتع بالمنظر الرائع ويرقب إمكانية اختباء المقاتلين الفدائيين في الغابات وكان يقول: «كان رأسي مليئاً بالأفكار الخطيرة». وفي كيب تاون لم ير التروتسكيين الذين تناقش معهم منذ سبع سنين، ولكنه تحرك بين أوساط الشيوعيين ورجال الدين. وزار مكاتب النيو أيدج New Age – (العصر الحديث) – حيث وجد الشرطة تقوم بالتفتيش وتضع يدها على أوراق، وذلك نذير شؤم قادم – بقي

مانديلا أسبوعين في ناحية لانغا Langa السوداء مع ميثوديين ناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي، وتجول بسيارته حول الكيب لينظم الفروع (برغم أنه كان يرتاح أيام الآحاد). وقبل أن يغادر الميثوديين ركع وصلى ليحفظه الله في رحلة العودة.

عاد مانديلا إلى أسرته في أورلاندو وهو يشعر بالنشاط والحيوية، وأنه ازداد معرفة بحقائق الريف. وحذر رفاقه من أن المؤتمر ضعيف جداً في الترانسكي حيث يجابهه الزعماء المحافظون والشرطة السرية القوية، وحث على «مقاطعة من الداخل». كان النقاش عاجلاً، في الوقت الذي اندفعت الحكومة قدما في تطبيق «الأبارثيد الكبير». وكانت لجنة حكومية، برئاسة البروفيسور اف. آر. توملينسون ليس فيها أي اسود قد وضعت مخططاً طموحاً لتأليف سلسلة من الكيانات المنفصلة، (البانتوستان) Bantustans يتطور فيها الإفريقيون وفق خطوطهم الخاصة، بإراداتهم وصناعاتهم.

قبلت الحكومة معظم الخطة فيما رفضت مقترحاتها الأكثر ليبرالية، واستعدت لتقسيم جنوب إفريقية إلى (بانتوستانات) منفصلة، أولها الترانسكي. وحذر مانديلا من أن (البانتوستانات) لن يكون لديها تصور حقيقي لتطوير سياساتها، فيما هي تقدم خدمات من اليد العاملة الرخيصة للمخدمين البيض.

كان مانديلا مجرد واحد من الأهالي المحبطين. فإزاء كل ما كان يتشكي منه في الماضي حول إمبريالية البعثات فإنه كان دائم التقدير

لأساتذته، وحزن عندما وافق الميثوديون على تسليم مدارسهم للحكومة كما سلمت معظم المدارس الانغلبيكانية، لكن الكاثوليك الروم أبقوا على مدارسهم دون مساعدة الدولة. خشي مانديلا أن يؤدي النظام القبلي الجديد، المبني على الفصل الإقليمي، إلى مزيد من الإساءة للوحدة الوطنية للمؤتمر الإفريقي وقال: «إن الشعب الإفريقي يجزأ إلى وحدات قبلية صغيرة، معزولة عن بعضها بعضاً، للحيلولة دون نمو الشعور الوطني فيما بينهم، ولترسيخ مستقبل قبلي معزول وضيق».

فجر قانون تعليم البانتو موضوعاً شائكاً هو مدارس الأبارثيد. كان مانديلا واقعياً أكثر من معظم أعضاء المجلس التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أراد المقاطعة الدائمة. فحذر من أنهم لن يستطيعوا متابعتها، ولن يتمكنوا من تقديم بديل فاعل. ويجب ألا يعدوا بما لا يستطيعون تنفيذه. إلا أن رأيه لم يؤخذ به، وناشد المؤتمر الوطني الإفريقي إبقاء الأطفال بعيداً، وحاول إحداث مدارس تابعة له. إلا أن مدارس المؤتمر الوطني الإفريقي كانت تخضع لانتهاكات الشرطة، وأصبح الأهالي توافين إلى أي نوع من التعليم. واضطر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى التخلي عن المقاطعة، و«بين جميع الحملات التي قام بها المؤتمر الوطني الإفريقي كانت الحملة المناهضة لتعليم البانتو الأفقر تخطيطاً، والأكثر فوضى، وقد اعتبرها معظم الإفريقيين الأكثر بلبلة»..

«كانت مسؤولية كبيرة، أن تختار أهون الشرين إما أن تقاتل حتى النهاية المرة، حتى إذا انقلب معظم الأطفال في الشوارع، وبين حل وسط

يستطيع على الأقل أن يبقيهم في غرف الدرس».

راقب مانديلا طرق شبابه الواعد تغلق وراءه. إذ قطعت المدارس والجامعات عن التأثير الواسع للثقافة الليبرالية الإنكليزية التي قبولت مواقفه الخاصة. كانت الحكومة تظهر المدى الكامل لوحشية سياستها، في الوقت الذي يفرق الشعب لتحبط معارضته. كان مانديلا على اعتقاد، بأن البني الجديدة يجب أن تقاوم من الداخل، لكن كان لا بد من انتظار عشرين سنة ليثبت أنه على صواب، على أيدي أطفال المدارس في سويتو. في هذه الأثناء كانت مدارسه القديمة قد خفضت أولاً، ثم دمرت من قبل الأبارثيد. وعندما عاد جاك دوغارد Jack Dugard، المدير السابق لمدرسة إعداد المدرسين في هيلدتاون إلى هناك عام 1967 وجد أن جميع طاقم العاملين من الأفارقة، ما عدا واحد، وكلهم مهووس بسلامته الشخصية، حظي مانديلا برؤية مستقبليه خاصة بفضل وصلة جذوره الريفية. ففي شباط (فبراير) 1956 قام برحلة وجيزة إلى الترانسكي بصحبة سيسولو، لشراء قطعة أرض في أمتاتا Umtata، انطلاقاً من مبدئه أن الإنسان يجب أن يملك أرضاً قرب مسقط رأسه.

وبعد عودته إلي جوهانسبورغ منع للمرة الثالثة من المغادرة، مما حرمة من مغادرة المدينة خمس سنوات أخرى. إلا أنه هذه المرة كان أكثر تحدياً، وأكثر احتقاراً للمنع. وقد كتب في السجن قائلا: «كنت مصمماً على أن ضلوعي في النضال ومدى نشاطي السياسي لن يقررهما أحد سواي». وأجبره المنع على أن يصبح أكثر اعتماداً على النفس، وأكثر

بعداً عن أية آلة حزبية.

كان مانديلا يتقدم على مسار تصادمي واضح مع الحكومة التي كانت تراقبه بحذر. وبعد الحكم عليه بالحظر كتب إلي وزير العدل يوم 13 نيسان (أبريل) يسأله عن الأسباب، وبعد ثلاثة أشهر تلقى رداً طويلاً (ما زال محفوظاً في أرشيف الدائرة) يفيد أنه حط من شأن البيض وحرض السود على عصيان القوانين وتأسيس حكومة سوداء، وذكره بخطاباته الحماسية التي ألقاها خلال ست سنوات خلت. وفي 22 حزيران (يونيو) 1950 قال: «لقد مضت قرابة ثلاثمائة سنة منذ أتي الأوربيون إلي هذا البلد. مات أبطال وجميلات إفريقية. لقد سرق بلدنا واستبعد». وعن المؤتمر الوطني الإفريقي قال يوم 12 آذار (مارس) 1952: «إنه المنظمة التي ستكون الحكومة المستقبلية في هذا البلد». ويوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1952 قال: «إذا وقف الجميع معاً، سيأتي وقت نسدد فيه دم أولئك الذين قتلوا». وقال يوم 7 آذار (مارس) 1953: «إننا في موقع أفضل إزاء الشعب الأفريقاني مما كنا ومما كانوا عندما حاربوا الإمبرياليين البريطانيين». ويوم 7 آذار (مارس) 1954 قال: «أعرف بثقة تعادل ثقتي بأن الشمس ستبزغ من الشرق أن صداماً كبيراً سيأتي غداً وأن جميع قوي الرجعية ستتداعي أمام قوات التحرير».

وكان محقاً بالنسبة للصدام، لكنه أخطأ فيما يتعلق بالتداعي.

## الفصل الثامن

# اعتقال مانديلا

## ما بين عامي 1956 - 1957

بعد مؤتمر الشعب في حزيران (يونيو) 1955 والغارات لتي تلته، هددت الحكومة باعتقالات واتهامات جماعية. وفي نيسان (أبريل) 1956 قال وزير العدل (سي. آر. سوارت) للمجلس النيابي: إن الشرطة تحقق في قضية خطيرة تتعلق بالخيانة العظمي، وإن حوالي 200 شخص سيعتقلون لكن مسؤولي المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يميلون إلي استبعاد الفورية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 قال رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال أي بي موراتسيل E. p, Moretsele لمؤتمره: «إن القضية كلها هي مجرد بهلوانيات انتخابية لكسب الأصوات ومن المحتمل أن ينفذ الوطنيون تهديدهم، إلا أنهم لن يتعجلوا ذلك، لأن الانتخابات ستجري بعد سنتين من الآن».

لم يكن في الأمر عجلة. وبعد شهر، في وقت مبكر من صباح 5 كانون الأول (ديسمبر) 1956 أفاق مانديلا علي صوت قرع عال علي الباب ووجد ثلاثة رجال شرطة بيض بالباب يحملمون أمرا بتفتيش المنزل واعتقاله بتهمة الخيانة العظمي وفي الأيام العشرة التي تلت ذلك أوقف

155 قائدا آخرين من جميع الأعراق ضمن ائتلاف الكونغرس بالتهمة نفسها.

لم يفاجأ مانديلا تماما، إلا أنه لم يكن مستعدا لمحاكمة مديدة تشل نشاطه السياسي وممارسته مهنة المحاماة لمدة خمس سنوات، كان معظم المشاركين البارزين في مؤتمر الشعب في السجن الآن، باستثناءات مفاجئة، منها الدكتور دادو ويوسف كاتشاليا وجي. بي. ماركس وغوفان مبيكي. أما تريفور هادلستون، رجل الدين الذي كرمه الكونغرس والذي كان سيضفي علي المتهمين احتراما مسيحيا خاصا فقد استدعي إلي بريطانية من قبل رؤساته والليبراليون الذي ظلوا بعيدا عن الكونغرس - لم يكونوا بين المعتقلين، وبالتالي فإن جميع البيض في المحاكمة كانوا شيوعيين، مما دعم مصداقية ادعاءات الحكومة بوجود مؤامرة ماركسية. كما أعطي الشيوعيين سمعة طيبة جديدة بين الإفريقيين لكونهم رفاقا في الشهادة شاركوهم تضحياتهم من أجل القضية.

لم يكن في الاعتقالات أي عبث، وقد لجأ مانديلا إلي المزاح مع الضابط الذي اعتقله وهو الشرطي التحرى روسو لكن الشرطي حذره «أنت تلعب بالنار». فأجاب مانديلا: «اللعب بالنار هو لعبتي». كانت الشرطة مصممة على إذلال السجناء الذين حشروا جميعاً في سجن القلعة الأسطوري على تل يطل على جوهانسبورغ وأمروا جميعاً، بما فيهم شخصيات مرموقة مثل لوثولي وزد. كي ماثيوز وجيمس كالاتا، أن يخلعوا كل ثيابهم في الباحة الخارجية المربعة حيث انتظروا لمدة ساعة ليأتي

طبيب أبيض ويستجوبهم، وقفوا خجلين لا ينظر أحدهم إلى الآخر، وقد كشفوا بطونهم وحاولوا تغطية أعضائهم الخاصة. أما مانديلا، الذي يثق بجمال بنيته، فقد تذكر القائل «إن الثياب تصنع الرجل»، وفكر إذا كان الجسم الجميل ضرورياً للقيادة فإن قلة من السجناء سيكونون جديرين بها «حفنة فقط كان لها بنية شاكا أو موشوشو المتناسقة أيام شبابهما»، لف زميله الناتالي (ماسابالالا (مارتين) إينغوا نفسه بملاءة وغنى أغنية مديح زولية تقليدية تكريماً لشاكا. واستمع السجناء الآخرون بحبور. وصاح الزعيم لوثولي بالزولية «هذا هو شاكا فعلاً»، وبدأ ينشد وانضم إلي الرقص مع الآخرون، برغم أن معظمهم لم يكن زولياً في الحقيقة. فكر مانديلا وقال: «كنا جميعاً وطنيين يربط بعضنا إلي بعض حبنا لتاريخينا».

سرعان ما وجد السجناء تعويضاً لتوقيفهم. وكان مانديلا قد منع لفترة طويلة من حضور الاجتماعات والسفر، وأتيحت له فرصه نادرة لتبادل وجهات النظر مع أصدقاء من مدن أخري. وسرعان ما نظم السجناء محاضرات حول الأزمة الراهنة وتاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي. وكانوا هم أنفسهم بمثابة تاريخ حي للكونغرس، يجمع محاربين قدماء مثل كاتالا وماثيوز إلى جانب ناشطين شباب من صوفيا تاون مثل (روبرتِ ريشا وبيتر نتيثي)، وأعضاء من عائلات المؤتمر الوطني الإفريقي القدامى مثل تينيسون ماكيواني.

وبعد أسبوعين في السجن، نقل السجناء إلي محكمة مؤقتة جهزت

من أجل تلك المحاكمة. كانت دريل هول القديمة في وسط جوهانسبورغ أثراً عسكرياً مقيتاً وعراً له سقف من الحديد المموج نصف مغطي بالخيش وواجهة عتيقة الطراز تشرف على حديقة لاستعراض الجند. ونقل مانديلا والسجناء الآخرون إلى هناك في شاحنات للشرطة ترافقها حاملات جنود، وكانت جماهير المتعاطفين تنتظرهم خارج القاعة، فيما راقبهم آخرون في الداخل يدخلون في قاعة المحكمة المقفرة. وصعد المتهمون على دفعات كل دفعة تضم عشرين شخصاً، بعضهم كان مشرقاً وبعضهم كان مكفهر الوجهة، بعضهم مذهول، وبعضهم مذعور، وبعضهم يأكله الحنق والغضب، وعندما صعد نيلسون مانديلا، المحامي، حدب كتفية وبدا يجيش بغضب مكبوت.

في النهاية بدأ النائب العام بقراءة الاتهام المؤلف من 18.000 كلمة. وقد بنيت تهمة الخيانة العظمي على خطابات وبيانات أدلى بها المتهمون على مدى السنوات الأربع الماضية منذ تشرين الأول (أكتوبر) 1952، عندما كانت حملة التحدي في أوجها، واستمرت أثناء احتجاجات صوفيا تاون، ومؤتمر الشعب وميثاق الحرية، الذي كان المستند الرئيسي للاتهام. وقال الادعاء أن المتهمين تآمروا على الإطاحة بالحكومة بالقوة واستبدالها بدولة شيوعية. ولكن كان عليهم إثبات نوايا العنف.

فكر مانديلا كم من المرات ترددت تهمة الخيانة في التاريخ القصير لجنوب إفريقية، ففي كلا الحربين العالميتين ثار بعض الأفارقة ضد

الحرب مع ألمانية، وحملوا السلاح إلى جانب عدو الحكومة، وحوكموا بتهمة الخيانة. تمهل الأفارقة في الحكم بإعدام الأشخاص الذين ينتمون إليهم، وعندما تولت حكومة الدكتور مالان السلطة أطلقت سراح جميع من اتهم بالخيانة إبان الحرب العالمية الثانية، وخاصة النازي الفاسد روبي ليبراندت. لكن مانديلا كان يعرف أن الوطنيين سيكونون أشد قسوة تجاه أعدائهم السود. ولم يعتقد أن الحكومة تؤمن فعلاً بأن المتهمين مذنبون بالخيانة. فميثاق الحرية، أولاً وأخيراً، أعلن عن مبادئ مقبولة في جميع أرجاء العالم المتمدن، واعتقد أن المحاكمة كلها كانت مكيدة، وأن الحكومة أرادات أن تجمد عمل قادة الكونغرس بضع سنين.

وسرعان ما أدرك أن المحاكمة ستطول فترة أطول بكثير مما كان يتوقع. ففي اليوم الرابع أخلى سبيل 156 سجيناً بكفالة 25 جنيهاً للسود و 250 جنيهاً للبيض (حتى الخيانة لم تكن مصابة بعمى الألوان، حسب تعبير مانديلا). وأجلت المحاكمة إلي كانون الثاني (يناير) 1957، وسمح للمتهمين بالعودة إلي بيوتهم ولكن كان واضحاً أن حياتهم ستبقي مقلقلة لفترة طويلة من الزمن.

الاستجوابات المبدئية، التي بدأت في كانون الثاني (يناير) 1957، كانت تهدف فقط لإثبات ما إذا كان هناك قضية تستحق أن تطرح للمحاكمة أمام القضاء الأعلى. إلا أن هذه العملية كانت ستطول على مدى تسعة أشهر وثلاثة ملايين كلمة، قبل أن يستجوب أي من الشهود أو يستنطق. وبعد دراما الاعتقالات الصاخبة سرعان ما تحولت التحقيقات

الأولية إلي مزيج غريب ومخيف من الضجر والدعابة والتهديد والوعيد. واستمر ذلك الطقس يوماً إثر يوم تحت سقف من الصفيح خلال الصيف القائظ. كل صباح كان ويسيل، القاضي الدمث، يدخل ويلامس بخفة زاوية طاولته إذ يمر، ويتابع المدعى نيكيرك الأشعث الشعر، الذي أطلق عليه جو سلوفو اسم لي أبنر، يتابع اتهامه بلهجة رتيبة. وتمكن معظم المتهمين من الحفاظ على حسن الإدراك.

استبشر مانديلا خيراً بمقاطعة للحافلات في ألكساندرا بدأت بعد أسبوع من الاعتقالات بتهمة الخيانة، بعد أربع عشرة سنة على المقاطعة التي تركت أثراً لا ينسى لديه عندما كان يعيش في ألكساندرا عام 1943 - مرة أخرى عاد المرتحلون يسيرون اثني عشر ميلاً في اليوم بدل أن يدفعوا قرشاً واحداً زيادة للحافلات. قال لوثولي إن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له يد في تنظيم المقاطعة، ويمكنها فقط القول أنها ساعدت في خلق جو» من المقاومة يمكن خلاله أن يحدث شيء كهذا». إلا أن المقاطعة القت منظمين محليين جدداً خارج قاعة المحكمة، بينهم اثنان من الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي هما توماس نكوبي وألفرد نزو اللذان أصبحا من القادة البارزين فيما بعد. وأخيراً اضطرت الحكومة إلى الاستسلام للمقاطعين وأقرت قانوناً خاصاً يفرض على أصحاب العمل دعم أجرة الحافلة. وكان أول قانون يسنه المجلس النيابي خلال أربعة وسبعين عاما من عمر الاتحاد، نتيجة لضغط إفريقي. وذكر مانديلا أن المقاطعة يمكن أن تكون أداة

قوية، لكنها حركة تنظيمية «تكتيك» وليست خطة شاملة «إستراتيجية». وكتب في «الليبريشين» في العام التالي قائلاً المقاطعة ليست بحال من الأحوال مسألة مبدأ، وإنما هي سلاح تكتيكي».

بقي مانديلا أبعد عن الأضواء، في قاعة المحكمة من لوثولي أو ماثيوز أو سيسولو. فلم يظهر أبداً في التغطية الصحفية التي نشرتها صحيفة نيو ايدج اليسارية، التي كانت المؤرخ الرئيسي لأحداث المحاكمة يوماً بيوم، فقد بدأ منعزلاً عن الآخرين، بقامته الطويلة وثيابه النظيفة، يحمل حقيبة أوراق ويتحدث بترو بطيء، كان ما يزال يحتفظ بشيء من أسلوب الزعيم المتباهي الذي علق وسط زحام المدينة. وقد رأت ماري بنسون، كاتبة سيرة مانديلا فيما بعد، والتي عملت معه في صندوق الدفاع عن قضية الخيانة، رأت فيه شاباً بارعاً ماهراً ماكراً مبتذلاً بعض الشيء ولم تعره اهتماماً كبيراً، ولم تحمله على محمل الجد. لكن محامي الدفاع لاحظوا أن له سلطة هادئة على زملائه الذين كانوا كثيراً ما يطلبون رأيه القانوني، كما أن إفادته كانت تكشف مدى عمق تفكيره بالالتزام بالقضية.

استمع زد .كي. ماثيوز بذهنه القانوني المتقد إلى المحاكمة بازدراء متنام. وقد كتب لزوجة فريدا «يبدو أن هؤلاء الأشخاص يعتقدون أني أنا العقل المخطط لحملة المؤتمر الوطني الإفريقي، والجميع يفعلون ما أريد. كم هم مخطئون!». راقب رجال الشرطة شبه الأميين يدلون بأدلتهم غير المترابطة بلغة إنكليزية ركيكة، ويقدمون وثائق يفترض أنها

دائنة مثل تقويم عام 1956 أو ورقة كتب عليها «حساء اللحم». ورأى كيف ترتبط كراهية الأفارقة للسود باستيائهم من الاحتقار الانكليزي: وكان «مذهل مدى رفض الأفارقة لموقف الإنكليز الفوقي. إنهم يعذبوننا أيضاً لأنهم يعتقدون أننا بعنا أنفسنا للانكليز». لكنة خشي أن يصبح كره الإفريقي للأوروبي خلال عشر سنوات أسوأ من كره الرجل الأبيض للأسود.

اقتربت محاكمة الخيانة الطويلة ما بين مختلف الفئات العرقية داخل قاعة المحكمة. قال لوثولي «ما كنا لنبتكر طريقة أكثر فعالية لضمان ترابط المعارضة وتوسيع مداها». وقال بول جوزيف وهو هندي كان عاملاً في مصنع من بيئة متواضعة أصبح صديقاً لمانديلا: «لم نكن ندرك كم من الأشياء المشتركة تجمعنا، لقد وجدت المحاكمة ترابطاً لم يكن موجوداً من قبل». وجد الإفريقيون أنفسهم مضغوطين في مكان واحد مع البيض والهنود والملونين، ممثلين بنسب تقارب نسب توزيع سكان البلاد. وكان كثير منهم يدافع عن نوع من الشراكة المتعددة الأعراق. بغض النظر عن الدوافع الدعائية التي أدت بالحكومة إلى محاكمة المتهمين وأصبح بإمكانهم نشر دعايتهم المضادة بأن الحركة كانت حركة متحدة غير عرقية أصلاً.

ويومياً في أثناء ساعة الغداء كان المتهمون يقتسمون شطائرهم ويطرحون وجهات نظرهم ويناقشون مشاكلهم. وعندما يذهبون إلى بيوتهم في المساء كان الناس يشعرون أنهم أبطال وليسوا خونة، تقدم

إليهم المشاريب بلا مقابل في الحانات، ويقيم البيض والهنود الذين يتمنون لهم الخير الحفلات التي كانت توسع الاتصالات والصداقات بين الأعراق الأخرى. أقام برام فيشر وزوجة عشاء للقادة السود، ومنهم لوثولي ومانديلا، حيث اجتمعا بأصدقاء محامين. وأقام جو سلوفو وروث فيرست حفلات شرب فيها الإفريقيون والهنود والبيض ورقصوا وتعانقوا، خارج قيود اللون، وتضاحكوا حول احتمال أن يشنقوا بتهمة الخيانة، وبدوا غير مهتمين بالجواسيس، حتى أنهم رحبوا بعميل السي آي أيه.

CIA المحلى ميلارد شيرلي وهو أمريكي جذاب واجتماعي كان يؤلف – كتاباً بعنوان (والدتي كانت مبشرة) إلا أنه كان دائم الحضور في أنشطة المؤتمر الوطني الإفريقي. ربما كان بعض المتهمين لامبالين أو متكلفين – كالطاووس–، على حد تعبير الإفريقيين. لكن الشجاعة والخطر كانا حقيقيين. وفي السجن فيما بعد يذكر مانديلا أن لم يلين هيلمان، إحدى ممولات المتهمين البيض الليبراليين، وهي رئيسة معهد العلاقات العرقية، وصلت إلي قاعة المحكمة لتناقش موضوع جمع التبرعات. فبدأ يطريها لأناقة ثيابها، إلا أنها قاطعته قائلة: «سيد مانديلا، كل ما أريد هو أن تقول لي ببساطة، ماذا تريد، ماذا تريد؟».

كان هناك بعض الاهتمام أيضاً من رجال أعمال جنوب إفريقية الليبراليين. فدعي لوثولي وقلة آخرون، لم يكن مانديلا بينهم، لمقابلة هاري أوبنهايمر Harry Oppenheimer من الشركة الأنغلو – أمريكية،

وقال لهم بأدب إن مطالبتهم بحق الاقتراع للجميع فيها شطط، وإن المقاطعة تذهب بدعم البيض، فأجابوا بأنهم لا يستطيعون إخفاء مطالبهم الحقيقية، مهما بدت غير مستساغة بالنسبة للبيض. وأعطى أوبنهايمر سراً 40.000 جنيه لصندوق الدفاع في قضية الخيانة.

ووصلت معونة من الخارج من بريطانيين وسواهم من المتعاطفين عبر صندوق الدفاع، الذي بادر به كانون كولينز في لندن والأسقف ريفز في جوهانسبورغ، لتغطية النفقات القانونية وسواها. وأشرفت علي الصندوق في البداية هيلاري فليغ ثم ماري بنسون ثم فريدا ليسفون، اللواتي أصبحت تربطهن أواصر الصداقة مع مانديلا. كما تحمس مانديلا بظهور مراقبين من كثير من المحاكم الغربية، وبينهم جيرالد غاردنير المحامي البريطاني الذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس اللوردات والرئيس الأعلى للقضاء في بريطانية، وبالتضامن الأمريكي الذي تضمن زيارة قام بها جورج هوزر ممثل اللجنة الأمريكية من اجل إفريقيه.

إلا أن الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين في بريتورية استمروا في تفادي الاجتماع بالمعارضة السوداء، خشية إزعاج الحكومة الإفريقانية. ودعا السفير بايرود البيض فقط إلي الاحتفال بعيد الاستقلال في السفارة الأمريكية في تموز (يوليو) 1957، خلاف الضيافة المفتوحة للقنصل العام السوفيتي. كما أن السفراء البريطانيين المتعاقبين لم يدعوا السود إلى حفلات ميلاد ملكتهم، ولم يجروا أي اتصال مباشر مع

أي من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان دبلوماسيوهم يعتمدون على أقوال الصحفيين في رسائلهم، التي لم تكن تشير لمانديلا. وفي لندن كانت جنوب إفريقية تابعة لوزارة الدومينيون التي كانت تربطها علاقة عائلية حميمة مع دول الكومنويلث الأبيض التي كانت حليفة للبريطانيين في الحرب العالمية الثانية، وكانت أكثر اهتماماً بإبقاء الخطوط مفتوحة مع الوطنيين الأفارقة أكثر من المشاغبين الإفريقيين، أما رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان فلم يكن قد تعاطي بعد مع مشاكل إفريقية.

أثناء قضية الخيانة كان مانديلا يعيش حالة انتقالية غريبة، بين الوضع الطبيعي والخطر، إلا أن حياته تعرضت لمزيد من البلبلة بسبب قصة غرام عنيف مثيرة. فعندما بدأت المحاكمة كان يعيش حياة عازب. فقد أنفض زواجه من إيفيلين باتهامات متبادلة بين الطرفين، حيث تذكر إيفيلين بمرارة كيف كان مانديلا يمضي ليالي بعيداً دون أي تفسير، وادعت أنه مرة كاد يخنقها. وقد أنكر مانديلا بحزم هذه التهمة. وأصبحت هذه الغربة بينهما أوسع إذ أصبح زوجها أكثر ضلوعاً في السياسة. وبعد أن أوقف لأول مرة بتهمة الخيانة وخرج من السجن بكفالة عاد إلى المنزل ليجد إيفيلين قد ذهبت والبيت فارغ، حتى من الستائر! كان على مانديلا أن يحاول طمأنة ولديه ماكغاتو وماكازيوي (ماكي) اللذين كانا مضطربين اضطراباً عميقاً.

تساءل أصدقاء مانديلا إن كان سيتزوج ثانية، وكثيراً ما كان يشاهد بصحبة نساء مؤهلات ومرغوبات. كانت أحدى رفيقاته روث مومباتي

السكرتيرة الكفء لديه في مكتب المحاماة. وكانت لديه صديقة أخرى هي ليليان نغوي القائدة القومية المرحة لرابطة النساء في المؤتمر الوطني الإفريقي، التي كانت متهمة مثله بقضية الخيانة. وكانت هيلين جوزيف المقربة من كليهما، تعتقد أنهما سينجحان تماما كزوجين.

إلا أن التي أوقعت مانديلا لم تكن سياسية محنكة، ولم تكن أياً من النساء اللواتي كانت إيفيلين تخاصمه بسببهن. وإنما كانت قادمة جديدة، باحثة اجتماعية شابه جميلة في الثانية والعشرين تصغر مانديلا بست عشرة سنة.

أتت ويني نومزامو ماديكيزيلا من بوندولاند، وهي جزء من الترانسكي، حيث كان والدها كولومبوس ماديكيزيلا مدير مدرسة كانت عشيرة ويني، النغوتيانا واحدة من أقوى العشائر في بوندولاند. وقد كان جدها الأكبر ماديكيزيلا زعمياً قبلياً شرساً في ناتال الي أن هرب من جيش الزرلو التابع لشاكا ليستقر قرب بيزانا أما جدها الزعيم مازينغي التاجر الثري المتزوج تسعاً وعشرين زوجاً، فقد إعتنق المثودية. وكانت أمها التي يعتقد أنها تحمل دماً أبيض متدينة جداً وكان لديها تسعة أولاد قبل أن تموت عندما كانت ويني في التاسعة، وبعد ذلك نشأها والدها نشأة ميثودية متشددة، وبقي بعيدا بشكل مربك تاركا لجدتي ويني القويتين ممارسة التأثير الأكبر عليها. علمتها والدة أبيها ماخولو أساليب أجدادها ، أما والدة أمها (غراني) فكانت ميثوديه صارمه تخيط ثيابها الغربية الطراز بنفسها، قالت صديقة عمر ويني، فاطمة مير، إنها

«أخذت عن ماخولو سطوتها الآمرة، وأخذت من جدتها (غراني) حبها للثياب الجميلة وهوسها بالنظافة».

في طفولتها كانت (ويني) قوية الإرادة، متمردة وأحياناً عنيفة، ومرة صنعت برجمية فيها صفيح ومسمار لتضرب بها أختها على فمها فأصابتها بجرح أضطر الطبيب أن يخيطه ولم تنس (ويني) ابداً الضرب المبرح الذي نالها من أمها لذلك. وقالت فيما بعد: «كانت مسألة البقاء للأقوى. كنت مضطرة لقتال أخوتي وأخواتي، ولم يكن لي أبداً ثياب خاصة بي. كان هناك كثير من القتال الجسماني. وعندما أصبحت أكبر سناً صرت أخجل عندما أتذكر تلك الأمور». وتفوقت (ويني) في المدرسة ولم تقرب السياسة عندما ثار رفاقها

أمضى مانديلا أقصى قدر ممكن من الوقت مع (ويني) بين دريل هول ومكتب المحاماة العائد له وقال «كنت أخطب ودها وأسيسها». واستطاع أن ينتزعها من منافس تبين أنه مناوئه وابن أخيه قيصر ماتانزيما، وعرفها علي أصدقائه السياسيين، بما فيهم الهنود والبيض. وفي خضم محنة محاكمة الخيانة لم يكونوا متأكدين ما الذي ستأتي به ابنة الاثنين وعشرين ربيعاً بوجهها البرش وحديثها الحيوي، وإعجابها الشديد بالثياب، وعينيها الواسعتين العطوفتين، التي كانت تبدو وكأنها خادمة من عالم أخر. «كانت فاتنة لكنها خجولة جداً»، فيما قالت أمينة زوج يوسف كاتشاليا إنها «كانت بريئة جداً وساذجة». كان مانديلا يصطحب (ويني) إلى منزل راستي بيرنشتاين أيام الآحاد حيث كانت تجلس في غرفة ابنة

بيرنشتاين تقرأ مجلات الأزياء. وقال بيرنشتاين: «كانت بعيدة تماماً عن الدائرة السياسية. لكن نيلسون لم يكن يعبأ بذلك». اتخذتويني من أصدقاء مانديلا السياسيين أصدقاء لها: فأقامت صداقة مع إسماعيل وفاطمة مير في دوربان، وألهت ليليان نغوي وعدَّت هيلين جوزيف أماً، ورأت في تامبو شخص الأب. وروعها حضور مانديلا السلطوي وجو الزعامة المورثة الذي يحيط به «فلم يكن ليستمع لامرأة.. كما أن طريقة مشيته، وكيف يفرض نفسه تظهره بمظهر الزعيم الحقيقي».

لم يعرض مانديلا الزواج رسمياً، لكن ويني وجدت نفسها مدفوعة نحو الزواج. وتقول «كان والدي معارضاً للزواج جملة وتفصيلاً. كما بكت أخواتي ورجونني ألا أتزوج من رجل مسن كهذا». وحذرها من أن مانديلا سينتهي إلى السجن.

لكنهما كانا عاشقين، كان مانديلا قد طلق إيفيلين، وفي حزيران (يونيو) 1958 كان هو وويني زوجين، بعد سنة على لقائهما.

في عام 1953 قدمت (ويني) إلى جوهانسبورغ لتنخرط في العمل الاجتماعي، كانت تعيش في نزل (يد المساعدة) في شارع جيب وتدرس في مدرسة جان هوفمير للعمل الاجتماعي، فوق مركز بانتو الاجتماعي للرجال كانت تتجول بصحبة طالبتين جذابتين هما مارشيا بوملا فينكا وهاريب خونجسيا إضافة إلي إيلين كوزوايو وهي طالبة أكبر أصبحت كاتبة في ما بعد، حاولت أن تحميهن من الرجال الوحوش. كانت (ويني) طالبة متفوقة، وبعد سنتين أصبحت أول عاملة اجتماعية في مستشفي

باراغوانات. كانت اجتماعية، ومفعمة بالحيوية، تسحرها الثياب والأحذية وقالت فيما بعد: «كان علي أن أصبح ابنة مدينة، وأن أكتسب بريقاً قبل أن أتطور.

في جوهانسبورغ ذهبت (ويني) إلى بضعة اجتماعات لحركة الوحدة التروتسكية التي ينتمي شقيقها إليها. لكنها بقيت بعيدة عن السياسة. وفي أحد الأيام عندما زارت أحدى المحاكم مع صديقة لها رأت مانديلا يدخل بقامته الجسيمة لمتابعة قضية، فيما همست الجموع باسمة. وبعد ذلك بحدة بسيطة عرفتها عليه في دكان لبيع الأطعمة المعلبة آديلايد تسوكودو، وهي ممرضة في مشفي باراغواناث كان زواجها من أوليفر تامبو وشيكاً. أصرت أديلايد أنها «لم تلعب دور كيوبيد وأن ويني لم تخرب الزواج، وإنما هو كان يتداعى». كان واضحاً أن مانديلا افتتن بويني، وبقي نظره معلقاً بها، وفي اليوم التالي دعاها إلي الغداء، بحجة سؤالها المساعدة في جمع أموال لصندوق الدفاع في قضية الخيانة. مر صديقه جو ماثيوز بها وتناولوا طعام الغداء في مطعم آزاد الهندي.

عاد مانديلا إلي ضغوط قضية الخيانة، وقدمت زوجه الشابة الجميلة نقيضاً غريباً جداً للضجر القائم والالتزام الذي يميز قاعة المحكمة. وكان ظهوره المؤثر مع ويني، وكلاهما يبتسم ابتسامه كبيرة، يمت إلى عالم الاستعراض استعراض أكثر من كونه سياسياً، واكتسبت صورته بعداً جديداً، ليس المحامي والثوري فحسب وإنما العاشق مع شريك يعبده. كان واضحاً أن كلاً منهما مفتون بالآخر، ويشعران أن

هناك مسرحية يجرى التركيز عليها. وخلال سنواته الطويلة في السجن كان مانديلا يترنم لذكر الأوقات التي كانا يخطفانها معاً، ويذكر حياتهما قائلاً: «أتذكرين الطعام اللذيذ الذي كنت تحضرينه للعشاء؟ المكرونه السباغيتي مع اللحم المفروم من لحام متواضع في الناحية! عندما كنت أدخل البيت من قاعة الرياضة في المساء كان لعابي يسيل لتلك الرائحة». إلا أن زواجه من فتاة مشبوبة العاطفة، لها متطلباتها، وجميع التعقيدات الناجمة عن وجود ثلاثة أطفال لزوجها (منفرين) كانت حياة مانديلا مع ويني أكثر إثارة، ولكن أكثر تشتتاً، وأقل تبصراً، في حين سرعان ما كهربائية جنسية بينهما، كما بيرون وزوجة في الأرجنتين أو - فيما بعد - بين كلينتون وزوجة الأمريكيين. أتى حسم ويني المندفع بعنف وخطابتها التي تعجب الحشود لتكمل حملات مانديلا الأكثر تحفظاً، مثل لحن أكثر صخباً يرافق طبقة صوته المنخفضة الثابتة. وفي المناسبات الاجتماعية كانا، بما لهما من حضور ساحر وثياب أنيقة، نموذجاً لزوجين في أواخر عقد الخمسين من القرن العشرين، يعطيان طبعاً مميزاً من الألق الأمريكي لسياستهما إذ يدخلان مسألة الرقص، ودائرة الضوء تتركز عليهما. سرعان ما بدأت ويني تأخذ طابعها المسرحي الخاص وسرعان ما ستظهر مثل أمارونية الثورة.

## الفصل التاسع

# نضـــال مانديـــــلا

# في الفترة من (1957 - 1959)

في الوقت الذي كانت قضية الخيانة تسير ببطء شديد، عاش مانديلا أكبر أزمة سياسية عرفها المؤتمر الوطني الإفريقي خلال خمس وأربعين سنة من وجوده. أدت في النهاية إلى تفكك المنظمة، وإلى تهديد موقف مانديلا بأخطر مما أدرك إذ ذاك. فقد خضع المؤتمر الوطني الإفريقي، منذ مؤتمر الشعب. لهجوم من الوطنيين الإفريقيين المتكبرين- غير المختلطين بمن يحسبونهم دونهم منزلة أو ثروة أو أنصار إفريقية الذين يعارضون ميثاق الحرية، لافتراضه أن الأرض ملك للجميع، والذين يهيبون بالإفريقيين لاتخاذ تصرف مناهض ووقف التعاون مع الشيوعيين أو الأعراق الأخرى. أسبغت قضية الخيانة شهرة على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي واعترافاً كاسحاً بهم، إلا أنها أيضاً ركزت الاهتمام على تواطئهم مع الهنود والبيض، مما أثار حفيظة (أنصار إفريقية) أكثر فأكثر.

كان مانديلا في موقع يخوله فهم نفاد صبر أنصار إفريقية وتحفظهم. إذ كانت هناك أشياء مشتركة بينهم وبين أعضاء رابطة الشباب منذ

عقد مضى، وكان بينهم بعض حلفائه. ولو كانت الظروف مختلفة لكان قائدهم. لكنه، بالتزامه بقومية أوسع ومتعددة الأعراق متحالفة مع الشيوعيين، فقد عد الثوار خطراً واضحاً يتهدد وحدة المؤتمر الوطني الإفريقي، التي رآها بالغة الأهمية بالنسبة للنضال، وازداد استياء لأنهم كانوا يستغلون قضية الخيانة ليكسبوا دعم الجذور.

كان الجانبان محددين ضمن ألوان أيديولوجية واضحة: الوطنيون ضد الشيوعيين، كان هناك في الحقيقة كثير من التداخل والضبابية، لكن وراء المواجهة كان هناك استياء شخصي طويل الأمد وتيارات متعارضة أصبحت أوضح عند استعادتها، جعلت المصالحة مستحيلة.

بقيت قضية الخيانة تشوش مانديلا ورفاقه المتهمين في جدل قانوني لا نهاية له وبالرغم من أن الحكومة لم تظهر ما يشير إلى أنها تسقط القضية فقد أقدم المدعي العام في كانون الأول (ديسمبر) 1957- بعد مضي حوالي سنة على الاستجوابات الأولى- على إسقاط الاتهامات الموجهة ضد واحد وستين من المتهمين، والعجيب أن لوثولي وتامبو كانا بينهم. وبقي مانديلا؛ بسجله الحافل بالخطابات المناهضة، بين الخمسة والتسعين الباقين. طلب الدفاع أن تسقط القضية برمتها. لكن عين مدع عام جديد هو وزير العدل السابق أوزوالد بيرو Oswald Pirew، وهو معاد حاد للشيوعية، وكان من كبار أنصار النازية إبان الحرب، وادعى بأن دليلاً جديداً قد ظهر عن مؤامرة خطيرة، مما يعني بأن البلد كان يعيش على حافة بركان.

وعندما توصل القاضي السيد ويسيل إلى نتيجة مفادها أن هناك أدلة خيانة كافية لنقل القضية إلى محكمة الترانسفال العليا في بريتورية، أدرك مانديلا أنه أصبح أكثر من واثق بأن القضية كلها ستتداعى، وأنه هو ورفاقه المتهمين قد يودعون السجن. لكن وراء كل ما جرى في المحاكمة من عبث كان المدعى العام الطُويل النفس، والمخبرون العاجزون، والتعريفات المضحكة للشيوعية وكان ما زال هناك هدف الحكومة الأصلي وهو تجميد عمل المتهمين وإدانتهم من خلال التشريع القائم.

رأى دعاة إفريقية جماعة مانديلا تقع ضحية إغراء الشيوعيين البيض، أمثال سلوفو، بينما كانوا هم رجالاً من الشعب يشربون في الحانات الرخيصة في الأحياء. وقد وصف بيتر رابوروكو، الذي كان زميل تامبو في المدرسة، وصف فيما بعد كيف «قذف مانديلا وأصدقاؤه من بيئة المجتمع الإفريقي إلى هذا.. ليرفعوا الكلفة مع النساء البيض، وتصرفات من ذلك القبيل، أصبح الوهيج صارخاً بالنسبة إليهم»، وعندما شجب مانديلا رابوروكو لكونه من «مثقفي الحانات الرخيصة» اعتبر شجبه مديحاً وقال: «ستصبح سمعتي السياسية في الحضيض عندما يعرف الناس بأني شوهدت برفقتك». وعندما تحدث رابوروكو: «أجل.. بالمناسبة أنا لست محظوظاً مثلك، فأنت تحتسي شرابك في بيوت أنيقة في هيوتون الدنيا وباركتاون أما أنا فعلي أن أرضى بالشرب مع الناس في الشيين (الحانات الرخيصة)».

في الحقيقة كان مانديلا يقضي معظم أمسياته وهو يعمل، ولا يقرب الكحول. وقال فيما بعد: «كنت أذهب فيما بعد: «كنت أذهب بين وقت وآخر إلى الشيبين بدافع الفضول لكنى لا أعرف ماذا يحدث في النوادي الليلية».

كان أنصار إفريقية يكتمون غيظهم حيال قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي بجوار مانديلا في أورلاندو، لكن وصل التوتر مداه في اجتماع خاص للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال في أورولاندو في شباط (فبراير) 1958 . قاد لوبالو الهجوم ضد التنفيذي المحلي الذي أضعفه غياب قادة ممنوعين مثل مانديلا وسيسولو. وانفض الاجتماع بفوضى، واضطر التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى استخدام قوى الطوارئ للاستيلاء على فرع الترانسفال. وبعد شهرين واجه المؤتمر الوطني الإفريقي إذلالاً عندما حاول تنظيم احتجاج (بملازمة المنازل) رداً على انتخابات عامة للبيض فقط في نيسان (أبريل). كانت الخطوة التي عارضها أنصار إفريقية إخفاقاً تاماً. قال دوما نوكوي الأمين العام المساعد للمؤتمر الوطني الإفريقي إنها «مخيبة بحدة، ومذلة وتدعو إلى الكآبة». لم يستطع قادة المؤتمر الوطني الإفريقي تحمل التحدي السافر لأنصار إفريقية، وقاموا في اجتماع سري، بطرد لوبالو من المنظمة.

أتى الانفصام الأخير في تشرين الثاني (نوفمبر) 1958، عندما دعى المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال إلى مؤتمر أزمة. افتتح لوثولي، الذي حذر ثانية من الرد على الأفارقة بـ «قومية إفريقية ضيقة

بشكل خطير» واعتبر أنصار إفريقية مانديلا وتامبو في مقدمة أعدائهم. وحاول تامبو، الذي كان ما زال أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، أن يهدئ الفصائل المتنافسة إذ تشاحنت حول الثبوتيات والوفود، في وقت كان فيه السفاحون من أنصار إفريقية يواجهون السفاحين المخلصين. وتفادياً لهزيمة في التصويت انسحب أنصار إفريقية من القاعة، وأرسلوا رسالة إلى القيادة يعلنون فيها انشقاقهم ليصبحوا «حماة سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي كما صيغت في عام 1912».

هل كان من الممكن تفادي الانشقاق؟ كان هناك وسيط محتمل هو نتاثوموتلانا طبيب أسرة مانديلا، وهو رجل شيطاني، يتحدث بسرعة، وقد عمل معه في رابطة الشباب وفي حملة التحدي. كان موتلانا ظاهرة نادرة في أورولاندو، إذ كان مقاولاً يؤمن بالرأسمالية، يذكر مانديلا أنه كان «رجل أعمال حاد. كان ماكراً منذ البداية». كان موتلانا لا يثق بالشيوعيين البيض، وكان يحفظ أواصر الود مع روبرت سوبوكوي من أنصار إفريقية، الذي كان أحد مرضاه. وكان يعقد اجتماعات في غرفة عملياته الجراحية. لكنه كان ضد الانشقاق، وكان يعتقد أن المنشقين يعيدون النضال من أجل التحرر أشواطاً إلى الوراء في كافة أرجاء إفريقية.

حذر موتلانا مانديلا من أن أعضاء رابطة الشباب يتذمرون من النفوذ الشيوعي، ويهددون بمغادرة المجلس الوطني الإفريقي، لكن مانديلا طمأنه قائلاً: «لا تقلق يا نتاثو. فالمؤتمر الوطني الإفريقي

سيحكم البلاد».

استرجع مانديلا ذلك فيما بعد، وشعر بأن المؤتمر الوطني الإفريقي تسرع في تسرع في رفض أنصار إفريقية وقال: «كانت هناك حالات أعتقد أنه كان بإمكاننا فيها أن نتمسك بالصبر والتحمل.. لقد أبعدنا كثيراً من الناس». لكنه ربما رأى الانشقاق حتمياً في أعقاب ميثاق الحرية. وقال «لا أعتقد أن تفاديه كان أمراً في أيدينا». افترق مانديلا عن بعض أصدقائه السياسيين القدامى، ومنهم معلمه الأول غور راديبي، الذي أصبح حاد العداء للشيوعية. وبقى بيتر مدا، مصدر إلهامه في رابطة الشباب، من أنصار إفريقية، الذي كان مقتنعاً بأن مانديلا كان عضوا في الحزب الشيوعي، سراً، لكنه ما زال يشعر تجاهه «بصداقة من القلب وليست من العقل». كان مانديلا أقل دفئاً في تذكره مدا، إذ قال: «لم يجر بيني وبينه أي لقاء ذي معنى أبداً كشخصية عامة». وكتب من السجن وقال: «لقد رسمت صورة لرجل حشى عظامه بكثير من النخاع، مفكر بلسان يستطيع أن يجرح ويداوي في آن». وكان يرى (مدا) مختلفاً عنه اختلاف الحرب عن السلام: «كان (مدا) شاباً يركز على الحرب وأنا كنت أشد الاهتمام نحو السلام».

في نيسان (أبريل) 1959 شكل أنصار إفريقية حزبهم الخاص، المؤتمر الإفريقي العام (P.A.C) في مؤتمر وطني في أورلاندو. وعقد المؤتمر يوم العطلة الوطنية احتفالاً بأول مستوطنة دائمة بيضاء في جنوب إفريقية على يد جان فان ريبيك Jan Van Riebeck من شركة

الهند الشرقية الهولندية في عام 1662 - مما أعطى المؤتمر الإفريقي العام فكرة عما يتعين عليه أن يفعله، بالاحتجاج على «العمل العدواني ضد أبناء وبنات إفريقية الذي حرم الشعب الإفريقي من أرضه وأخضعه للهيمنة البيضاء». أحب المؤتمر الإفريقي العام أن يقارن نفسه بالوطنيين الإفريقيين في أجزاء أخرى من القارة، الذين كانوا يتقدمون بثقة نحو الاستقلال. و» الشخصية الإفريقية» الجديدة التي أعلنها كوامي نكروما في غانة كانت أكثر انسجاماً مع ما ينادي به المؤتمر الوطني الإفريقي العام مما هي مع التعددية العرقية للمؤتمر الوطني الإفريقي.

ولمنصب الرئيس لم يقع اختيار وفود المؤتمر الإفريقي العام على ديماغوجي متحمس مثل مادزونيا أو لوبالو وإنما على شخص أكثر تبصراً هو روبرت سوبوكوي، المحاضر في اللغات الإفريقية والذي يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر. كان سوبو كوي أصغر من مانديلا بستة أعوام. وكان مثله طويل القامة، وسيماً، قوي البنية، إلا أنه كان من أصل أكثر تواضعاً جمع ثقافته إلى بساطة الفلاح. نشأ سوبوكوي في كارو المنطقة نصف الصحراوية في الكيب، ابناً لعامل في أحد المتاجر. وتبناه الميثوديون وذهب إلى هيلد تاون وفورت هير حيث أحرز نجاحاً أكاديمياً أكبر بكثير مما فعل مانديلا، وأصبح عضواً مناهضاً في رابطة الشباب، يحارب المبشرين بشكل ضار. ويحث على تنامي قوة إفريقية: عام 1949 أصبح سوبوكوي أميناً عاماً لرابطة الشباب، يدعم بحماسة برنامج عمل مانديلا ورفاقه. وقد انشغل عدة سنوات بالتعليم

والاهتمامات الثقافية (ومنها ترجمة ماكبث إلى لغة الزولو)، لكن قبل مؤتمر الشعب مباشرة، ولدى صدمته بما رآه نفوذاً متزايداً للشيوعيين وغير الإفريقيين، ارتد على أعقابه نحو سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. كان يعتقد أن البيض، لا يمكن أبداً أن يشعروا أن قضية السود قضيتهم لأن جماعة في موقع الحظوة لا تتخلى أبداً عن ذلك الموقع طواعية وتذمر، مثل سواه من أنصار إفريقية، من النشاطات المتعددة الأعراق لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين إتهمهم «بالرقص مع نساء من البيض في الأحزاب متعددة الأعراق في جوهانسبورغ بدلاً من العمل على تحرير إفريقية من الهيمنة البيضاء».

وقد لقي ظهور المؤتمر الوطني الإفريقي العام بزعامة خطيب مفوه ومثقف معاد للشيوعية الترحاب من قبل المحافظين في أوروبا وأمريكا.

اعتقد مانديلا أن وزارة الخارجية الأمريكية رحبت بولادته ليكون خنجراً في قلب اليسار الإفريقي. فيما لم يستطع الدبلوماسيون البريطانيون الحسم حول أي الشرين أهون بالنسبة للغرب، الشيوعية أم العنصرية. فقد امتدح المفوض السامي البريطاني موقف لوثولي المتين (الصامد) والمعتدل نسبياً نحو التسامح العرقي. إلا أن البريطانيين أبدوا احتراماً مبالغاً فيه للمؤتمر الوطني الإفريقي العام، وذلك بتأثير من شرطة جنوب إفريقية. حيث قدم مفوض الشرطة يوم 17 آب (أغسطس) تقريراً مطولاً إلى المفوض السامي البريطاني بشرح فيه أن أنصار إفريقية يعتبرون منظمتهم واحدة من منظمات عديدة مماثلة

في القارة الإفريقية، وكلها ملتزمة بتحرير إفريقية من «الإمبريالية» و «هيمنة البيض» مما سيؤدي بالتالي إلى تأسيس ما يسمى «الولايات المتحدة الإفريقية». هذا فيما بقي البريطانيون والأمريكيون يرون في حكومة الأبارثيد حليفاً ضد الشيوعية العالمية.

وكان مانديلا يأمل أن يعود الفصيلان في المؤتمر الوطني الإفريقي ويتحدا. فقد كان محامياً لسوبركوي، ولوبالو في آن واحد، «وكان يعتبره خطيباً مفوهاً وصاحب فكر نير». لكن مانديلا ضاق ذرعاً بإحساس سوبركوي الفج بالقومية السوداء- التي تخلى هو عنها منذ عقد- وبما يتجمع حول نصير إفريقية هذا من سياسيين مطبليين ومزمرين يسوون أحقاداً قديمة. وكان قلقاً بشكل خاص حيال رفض سوبركوي لحقوق الأقليات، التي لخصت في البيان الإفريقي: «الشعب الإفريقي لن يتحمل وجود جماعات وطنية أخرى ضمن إطار الأمة الواحدة». وكان مانديلا يقول دائماً أن الأقليات القبيلة والعرقية- ومن ضمنها البيض- يجب ضمان حقوقها. واعتقد أن سوبوكوي يتهرب من الموضوع.

إلا أن مانديلا كان يدرك حجم الخطر الذي مثله سوبوكوي بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، ولم يدرك مدى استقطاب الوطنية التي ينادي بها المؤتمر الوطني الإفريقي العام المثقفين السود الشباب. وها هو الآن يواجه أول تحد سياسي خطير، وعندما يستعيد ذكرى تلك الأيام بعد أربعين عاماً يرى في سوبوكوي أكبر منافس له.

توقفت المحاكمة وبدأت، بجدل دقيق، في آب (أغسطس) 1958

وانطلق بيرانجيه في نقاش قانوني يفند الصياغة الغامضة للاتهام. وفي تشرين الأول (أكتوبر) سحب الادعاء فجأة اتهاماته جملة وتفصيلاً، لكن بعد شهر عاد باتهام أكثر دقة، وترك واحداً وستين من المتهمين ليحاكموا لاحقاً، ووجه الاتهام ضد ثلاثين شخصاً فقط ساد الاعتقاد أنهم مذنبون خاصة في التحريض على الثورة أو العنف. وكان مانديلا بين هؤلاء.

حدد موعد لبدء المحاكمة ثانية في بريتورية في شباط (فبراير) 1959. وفي الليلة التي سبقت المحاكمة ذهب مانديلا لحضور الحفلة الأولى للعرض الموسيقى الأسود كينغ كونغ، وهو من تأليف صديقه تود ماتشيكيزا ويروي قصة ملاكم الوزن الثقيل من صوفيا تاون، الذي كان مانديلا يعرفه، والذي قتل صديقته، كان الافتتاح في القاعة الرئيسية في جامعة ويتز، وهي المدرج الوحيد في جوهانسبورغ الذي يسمح بدخول السود والبيض معاً (بالرغم من فصلهم بعدد من الصفوف). قدم العرض، الذي نقل فيما بعد إلى لندن، الطاقة الإبداعية كلها في الأحياء السوداء، مع حشد ضخم من ضمنه صديق مانديلا ناثان مدليدل وهو من الأخوة مانهاتان، الذي قام بدور كينغ كونغ. طرب مانديلا للأداء، وعانق بعده تود ماتشيكيزا وزوجه إزما وقال إنه تأثر بشكل خاص بأغنية «أوقات تعيسة، أوقات رديئة يلازمتها.

في اليوم التالي عقدت المحكمة، وأجلت، ثم بدأت ثانية، وأصبحت حياة مانديلا لا تعرف الإستقرار. وعمله ومهنته في المحاماة أكثر

صعوبة. وطوقت نشاطات معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، إما بالمحاكمة أو بالحظر. ولم يعد لوثولي رهن المحاكمة، ولكن في حريزان (يونيو) 1959 حددت حركته لمدة خمس سنوات أخرى في مسقط رأسه ناتال. أصبح لوثولي شخصية عالمية مشهورة. حيث أخبرت الدبلوماسية البريطانية اليانور إيميري لندن بأن الحظر قد أزاح «أكثر قادة المؤتمر الوطني الإفريقي ثباتاً واعتدالاً»، وتوقعت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من التطرف، وربما حظراً عاماً على المؤتمر الوطني الإفريقي برمته. فيما نشرت صحيفة النيويورك تايمز عرضاً لشخصية لوثولي، قائلة: إن حكومة جنوب إفريقية قد اختارت «عدواً قيماً» وأن السفير الأمريكي الجديد فيليب كرو- الذي يفوق اسلافه حنكة وثقافة بشكل كبير- ذهب لزيارته في غروتفيل بعد فرض الحظر عليه بثلاثة أشهر.

أُخضع مانديلا لضغط أكبر بكثير أثناء المحاكمة، إلا أنه بقى ناشطاً جداً وراء الستار. كان يستطيع أن يرى تامبو يومياً في مكتب المحاماة الذي يديرانه، كما كان وثيق الصلة بسيسولو سواء في قاعة المحكمة أم في أورلاندو. بقي سيسولو صاحب نفوذ كبير، وقد قال فيما بعد: «كنت في نظر الجميع لم أزل أميناً عاماً، لأني أقوم بالعمل بالرغم من أوليفر تامبو أو دوما نوكوي اللذان كانا يشغلان المنصب رسمياً. كنت أتحاور مع نيلسون يومياً، فيما أعتقد».

لكن المؤتمر الوطني الإفريقي بقي ضعيف التنظيم كامل عقد الخمسين. كما وصفه (القادة المحظورون) في صحيفة «لبيريشين»

بصراحة مؤامة عام 1955: «هناك عجز وعدم كفاءة كبيرين على مستويات متفاوتة في قيادة المؤتمر. عدم المقدرة على فهم الحالات المحلية وعدم الكفاءة في التعامل مع الأمور البسيطة، مثل الشكاوي الصغيرة، والإجابة عن الرسائل، وزيارة الفروع. كما أن الثقة معدومة بالآخر، والعمل الجماعي في اللجان مفقود. إضافة إلى الفردية والتوق إلى السلطة، مما أدى إلى تخريب قرارات المؤتمر وتوجيهاته، والتجريح والنقد غير المبدئي».

كان مانديلا يعي العجز، لكنه كان حساساً حيال نقد المؤتمر الوطني الإفريقي، وبخاصة من قبل البيض. وقد كتب الصحفي مارتن ليتون مقالاً في الراند ديلي ميل يصف غياب التنظيم الحقيقي في المؤتمر الوطني الإفريقي، حيث لا يوجد سجلات أو قوائم بأسماء الأعضاء، فيما كان مسؤولوه ينكمشون مقارنة بالإفريقيين في البلاد المتاخمة. استشاط مانديلا غضباً، وعندما زاره ليتون شعر وكأنه يمسك بخناقة، وليس مرد ذلك إلى كذب المقالة، ولكن كما قال فيما بعد. إن «النقد الذي يؤذيني هو النقد الصحيح».

كان فرع الترانسفال للمؤتمر الوطني الإفريقي هو الفرع الأكثر أهمية وفي الوقت نفسه الأكثر عجزاً. حيث تذمر تنفيذيو الترانسفال في تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 من عدم وجود وعي بالحاجة إلى اليقظة والحذر في نشاطات الفرع. وهناك قدر كبير من البلادة وعدم الكفاءة في أسلوب العمل». وكلما ازداد عدد القادة الممنوعين أصبحت المشكلة

أكثر إلحاحاً، ففي كانون الأول (ديسمبر) 1958 أفاد التنفيذي الوطني بأن «الهدف يجب أن يكون جعل المؤتمر هيئة قادرة على البقاء في وجه أي هجوم أو عدوان يشن عليه، مهما كان حاداً»، وطالبوا بحملة كفاءة فورية. لكن بعد سنة كان الأمين العام الجديد دوما نوكوي، الذي خلف تامبو، يتحسر لأن مشاكل التنظيم قد أصبحت سنوية جريئة لدرجة القحة. وحذر من أن «فكرة أن منظمة ضخمة كمنظمتنا بكل ما تتحمله من مهام ومسؤوليات، يمكن أن تدار بلا تفرغ تام فكرة مضحكة». وأراد أن توضع الخطة M- وهي شبكة المقاومة الطارئة التي طرحها مانديلا منذ ثمان سنوات- في التنفيذ دون أي تأخير كي «تتحمل الهجوم الشرس وتتغلب عليه». لكن التحسن في دفاعات المؤتمر الوطني الإفريقي كان طفيفاً فيما كانت الشرطة الأمنية عدواً لا يرحم. وعندما كان شرطيان أفريقانيان يتقنان الحديث بالكزوسية يقومان بزيارة لمكاتب المؤتمر الوطني الإفريقي، يذكر مانديلا، أن الشاي كان يقدم لهما، ويطلب إليهما الجلوس كي يتمكنا من تدوين ملاحظاتهما، لأنهما كانا مهذبين جداً».

كان مانديلا يحذر من بطش الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور هندريك الذي أصبح رئيساً للوزراء في أيلول (سبتمبر) 1958، عقب وفاة ستريجدوم لكنه كان واثقاً من أن نظام فيرورد و«برنامجه المقيت من الطرد الجماعي والاضطهاد السياسي وإرهاب الشرطة لن يدوم طويلاً وقال: «إنها آخر مقامرة يائسة لحكم مستبد فاشستي مكروه ومحكوم عليه بالإخفاق، وسرعان ما سيخرج من على خشبة مسرح التاريخ، لحسن الحظ».

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يخضع لضغط متنام ليتخذ تحركاً جماعياً يتحدى قوانين العبور بإضرام النار في تلك الجوازات المكروهة، التي اعتبرت أداة أساسية من أدوات اضطهاد السود. من الناحية النظرية كانت تلك الخطوة ستجعل النظام كله غير قابل للعمل، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان حذراً جداً حيال فشل الحملات السابقة. وفي المؤتمر السنوي في كانون الأول (ديسمبر) 1958 . قال التنفيذي الوطني إن مقاومة الجوازات تتصاعد، إلا أنهم لزموا جانب الحذر وقال: «إذا اعتقدنا أننا بتسديد ضربة واحدة نستطيع أن نلحق هزيمة بالنظام فإن النتيجة ستكون التحرر من الوهم- من ناحية أخرى لا نستطيع أن نجلس وننتظر إلى أن يصبح الجميع مستعدين لدخول ساحة المعركة.. لقد بدأ النضال من أجل إلغاء قوانين (الجوازات) ولا مجال للعودة إنما الانطلاق إلى الأمام أبداً».

كان دوما نوكوي، الأمين العام الجديد للمؤتمر الوطني الإفريقي شخصاً حيوياً ومكتنزاً من خريجي جامعة ويتز أصبح أول محام أسود في المحاكم العليا في جنوب إفريقية. كان تحت حماية تامبو الذي علمه في مدرسة سانت بيتر، كما كان ملاكماً. له عدوانية المصارع التي كان تامبو دائماً يضطر إلى كبحها. لقد صاغته حملة التحدي وقضايا الخيانة وأصبح شيوعياً ملتزماً في الوقت الذي يتمتع فيه بحياة جيدة وشراب. ومن موقعه كأمين عام صمم على إعادة تنظيم المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعمله وثيقاً مع سيسولو ومانديلا وتامبو، حضر خطة مفصلة لتطرح على المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني الإفريقي للموافقة عليها في كانون الأول (ديسمبر) 1959 . اقترحت الخطة أولاً

تمديد المقاطعة الاقتصادية، ثم شن حملة معادية لجوازات المرور، على أن تبدأ في 31 آذار (مارس) 1960، وهي الذكرى السنوية لأول مظاهرة ذات شأن ضد قوانين الجوازات.

وبعد أسبوع من المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1959 دعا تنفيذيو المؤتمر الإفريقي العام إلى أول مؤتمر وطني لهم. وكان اقتراحهم الرئيسي معتدلاً بشكل لافت للإصرار على أن يحصل الإفريقيون على معاملة كريمة في المحال التجارية وأماكن العمل، بشكل يمكنهم من تأكيد شخصيتهم الخاصة والتخلص من عقيدة العبيد. سرعان ما لحق ذلك سوبوكوي الذي طرح حملته الخاصة بمحارية قوانين الجوازات. كان اقتراحاً فجاً، لم يقدر بشكل واقعي المخاطر التي ينطوي عليها، إلا أنه سرعان ما حصل على الموافقة الجماعية.

اعتقد قادة المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام يلعب دور المفسد. بمحاولته الحط من مبادراتهم وسبقهم إليها. حيث كتب جو سلوفو: «إن ما بادر المؤتمر الإفريقي العام كان نسخة سيئة التنظيم وليست بمستوى حملة التحدي عام 1952».

وأحبط مانديلا لرؤية منافسة سوبوكوي في موقع الخطيب المفوه والمفكر اللامع» يلعب دور (الديماغوجي) متجاهلاً تحذيرات الفشل التاريخية. إلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يستطع تحمل مغبة تجاهل الحماسة العامة التي أطلقها سوبوكوي. وبعد أربعة أشهر أثبتت خطته المتعجلة أنها الحافز الذي بدل المشهد الجنوب إفريقي برمته. ودفع مانديلا نحو ثورة أشد ميلاً للقتال.

## الفصل العاشر

# ثورة مانديلا الأولى عام 1960

حمل وعد الاستقلال في دول إفريقية أخرى تفاؤلاً جديداً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي وإلى المؤتمر الإفريقي العام. كتب مانديلا في صحيفة «ليبريشين» في آذار (مارس) 1958 ضمن هجوم شرس على الإمبريالية الأمريكية وقال «إن شعب إفريقية استيقظ، ومستقبل هذه القارة ليس في أيدي أنظمة الحكم الرديئة السمعة التي تحالفت مع الإمبريالية الأمريكية. وإنما هو في أيدي عامة الناس الذين يعملون من خلال حركاتهم الجماعية».

جاء في تقرير المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1959 «شهد العام الماضي، جيشاناً غير مسبوق في إفريقية، وأصبح الحكم الذاتي نداء الجماهير في طول القارة وعرضها». وأصبحت كلمة (إفريقية) نداء موحداً، وصار الأطفال يسمون كوامي أو جومو تيمناً بنيكروما وكينياتا، وأصبحت هيمنة البيض في جنوب إفريقية نغمة نشازاً لا تنسجم مع بقية القارة، كما أصبحت أكثر ضعفاً. رأى الصحفيون والدبلوماسيون أن عام 1960 سيكون (عام إفريقية). حيث ستستقل سلسلة من المستعمرات البريطانية والفرنسية، وبدأت القوى الإمبريالية السابقة تخطب ود القادة الجدد للحفاظ على العلاقات

التجارية والانضمام إلى الحرب الباردة ضد الشيوعية.

في بريطانيا بدأ رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان يدرك أهمية إفريقية السوداء، التي كان يشبهها بفرس نهر كسول بدأ فجأة يحث على الحركة. كان معنياً بالمستوطنين البيض المتصلين في جنوب إفريقية والثمن السياسي لعلاقات بريطانية بحكومة الأبارثيد في جنوب إفريقية. وبعد فوزه في الانتخابات في تشرين الأول (أكتوبر) 1959 خطط للقيام بجولة في إفريقية تتوج بزيارة كيب تاون.

وتابع جولته عن طريق نيجيرية وروديسية ونياسالاند إلى جنوب إفريقية. وفي كيب تاون أقام لدى الدكتور فيروورد، وسرعان ما شعر بعناده الشديد: وقال «ليس لأي شيء يقوله المرء أو يطرحه أن يترك أصغر أثر في آراء هذا الرجل المصمم». ذعر ماكميلان، كما قال لسكرتيره الصحفي هارولد أيفانر، للجنون الذي «يرفع الفصل العرقي إلى مستوى المبادئ».

وقال: «إذا لم يجعلوا من الفصل العرقي إيديولوجيا فإنهم سينجحون حتماً في الوصول إلى النتائج التي يسعون إليها بالحد الأدنى من التنازل. فالفوارق الاقتصادية بين الأسود والأبيض ستكون كافية بحد ذاتها لتحقيق الفصل العملي. وما من شك في أنهم سيضطرون إلى قبول الإفريقي الموهوب حقاً».

أثناء ترحاله عبر إفريقية كان ماكميلان يراجع الخطاب الذي سيلقيه في كيب تاون، وكان باستمرار يطلب إعادة صياغته من قبل العاملين معه

ومنهم أثنان من اللغويين الأكثر تهذيباً وعمقاً في بطانته: الموسوعي دافيد هانت من مكتب الكومنويلث، والمندوب السامي النشيط السير جون مود وقال (يجب أن تأخذ اللطف باللطف»). كان ماكميلان متوتر الأعصاب قبل أن يدخل إلى المجلس النيابي في كيب تاون لدرجة أنه اضطر إلى الذهاب إلى الحمام ليتقيأ. وكان خطابه ضربة معلم، بأسلوب المسح التاريخي الذي اعتمده والذي سلب لأول وهلة لب نواب المجلس الأفريقانيين. إذ امتدح وطنيتهم كأوائل القوميين الإفريقيين، قبل أن يفصل القول: «بأن هناك بعض الأوجه في سياستكم تجعل من المستحيل بالنسبة لبريطانية أن تدعم جنوب إفريقية في الكومنويلث». ولم يفهم مضمون حديثه قبل أن تتناوله الصحافة البريطانية بالتحليل. قالت صحيفة دي بيرغر، وهي الصحيفة الأفريقانية الرائدة: «لم يعد بإمكان بريطانية أن تتحمل صحبة بلادنا بينما بعض شؤوننا تذروها الرياح».

طلب ماكميلان الاجتماع بكبار السياسيين السود، إلا أن برنامجه كان محبوكاً بشدة من قبل حكومة فيروورد، والمندوب السامي، لم يكن يعرف عن قادة مثل مانديلا سوى النذر اليسير. وفي حفلة الحديقة المخصصة للبيض فقط، التي أقامها جون مود، حث باتريك دانكان ماكميلان على رؤية القادة السود، لكنه لم يلق لديه أذناً صاغية.

والواقع أن ماكميلان قرر أن خطاب كيب تاون ترك أثراً كافياً للتسامح معه إذا لم يتلق بقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. كان ألبرت

لوثولي سيقول لماكميلان- كما قال فيما بعد- إن الإفريقيين سيكونون أضل حالاً لو أن جنوب إفريقية كانت خارج الكومنويلث، وإن: «ذلك كان سيعطي بريطانية نفوذاً أكبر، ويجعل الأفارقة أكثر عزلة»، إلا أنه فوجئ مفاجأة حميدة بخطاب ماكميلان وقال: «إنه أعطى الشعب الإفريقي بعض الألهام والأمل».

مانديلا أيضاً اعتبر الخطاب «رائعاً» برغم عدم ثقته بالإمبريالية البريطانية، ولم ينسى أيداً شجاعة ماكميلان إذ حذر- وهو في عرين الأسد- حكم القلة البيض العنيد الأعمى عرقياً من مغبة رياح التغيير. ويعد ست وثلاثين سنة في قاعة وسيتمينستر سيدلي مانديلا بخطاب على نمط خطاب ماكميلان، بالمسح التاريخي نفسه، وذكر برسم كاريكاتوري في صحيفة جنوب إفريقية وهو يصور ماكميلان بعد الخطاب مع تعليق من مسرحية يوليوس قيصر.

آه! سامحنى أيها القطعة النازفة من التراب

لأني ضعيف ولين مع أولئك الجزارين

سرعان ما أثبتت/ رياح تغيير/ ماكميلان أنها دون ما يقتضيه الواقع. فبعد ستة أسابيع فقط اضطر لأن يفسر أنه لم يكن يقصد: «إثارة زوبعة تطيح بالحضارة النامية كلها. يجب أن نتجنب ذلك مهما كلف الأمر». وحتى عندما كان يجوب إفريقية كانت الحكومة البلجيكية تتهيأ، بأقل قدر من التحضير، لإعطاء الاستقلال بعد أربعة أشهر للكونغو، الذي سرعان ما كان يغرق في حرب أهلية وفوضى تحمل معها الحرب الباردة

إلى قلب القارة وتنشر الرعب في أوصال جنوب إفريقية البيضاء. وقد شجعت سرعة انسحاب الإمبريالية المؤتمر الإفريقي العام على التعهد بالإطاحة بالهيمنة البيضاء على جنوب إفريقية بحلول عام 1963. واستاء مانديلا من ادعائهم بأن الأفارقة سيتخلون عن السلطة بالسهولة التي تتخلى بها القوى الاستعمارية، وكتب فيما بعد من سجنه: «لم يبد أن لدى المؤتمر الإفريقي العام أية خطط لتهيئة الناس لتلك اللحظة التاريخية. التي افترضوا أنها ستتحقق بمجرد الذهاب إلى السجن والانتظار هناك إلى أن يسقط الناس من تلقاء أنفسهم».

انقلب المشهد السياسي للسود بين عشية وضحاها. إذ تلقى سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام دفعاً عظيماً. وعلق مانديلا فيما بعد أن ذلك «لم يكن بسبب ما كانوا يقولونه- الذي كان فجاً تماماً- وإنما بسبب المجزرة». لكن موجة الغضب الجماهيري بدت في البداية إثباتاً لإيمان سوبوكوي بالعمل العفوي. فقد وجدت خطابة المؤتمر الإفريقي العام الوطنية آذاناً صاغية لدى السود حركن أحاسيسهم بشكل أكثر حيوية من بيانات المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر حذراً. وقد قال أحد الصحفيين الإفريقيين «إن لسوبوكوي حيوية، يا رجل، إنه واقعي جداً.. جداً.. جداً» وكان كثير من السود يتشدون علناً نشيد المؤتمر الإفريقي العام:

قبل مانديلا أن يكون قادة المؤتمر الإفريقي العام قد أظهروا شجاعة، وسرعان ما تبين أن المؤتمر الوطني الإفريقي «يجب أن يقوم بتعديلات

سريعة» فأمضى، شاربفيل، ليلة كاملة يناقش سراً سبل الرد مع سيسولو ونوكوي وسلوفو. وقرروا أن على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، بدءاً من رئيسة ألبرت لوثولي، أن يحرقوا بشكل علني أذوناتهم. كما عليهم أن يعلنوا عن يوم حداد، يلزم فيه العمال بيوتهم احتجاجاً على المجزرة. وشكلوا لجنة فرعية تعمل من منزل سلوفو للتحضير للإضراب، فيما ذهب نوكوي إلى بريتورية ليرتب موضوع حرق أذونات لوثولي.

ساورت الشكوك كثيراً من الشيوعيين، ومنهم راستي بيرنشتاين حيال إحراق الأذونات، الذي خافوا أن يؤدي إلى الطرد والإقصاء والنفي، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد اتخذ قراره، وحاول الشيوعيون المساعدة.

بدت البنية الحديدية للأبارثيد تتداعى على مدى عشرة أيام بعد شاريفيل. وفي 26 آذار (مارس) صور لوثولي يحمل البقايا المتفحمة لإذنه. وبعد ذلك بيومين لبت الأغلبية العظمى من العمال السود نداء المؤتمر الوطني الإفريقي للاعتصام بالبيوت، فيما حرق مانديلا ونوكوي تصريحيهما أمام الكاميرات والصحفيين، وتبعهما في ذلك بضع مئات آخرون. وأهم ما في الأمر هو أن الحكومة بدت مشلولة، وأعلن مأمور الشرطة يوم 25 آذار (مارس) أنه سيعلق اعتقال من لا يحمل إذناً.

بدا المؤتمر الوطني الإفريقي وكأنه يسرق الأضواء، وعندما تحدث مانديلا في أورلاندو يوم 29 آذار (مارس) كان يستبعد اعتماد المؤتمر الإفريقي العام على الرد العفوي وقال «لابد أن يكون لديكم الآلية

والتنظيم»، وكان شديد الحساسية حول دور المؤتمر الإفريقي العام في المبادرة بالاحتجاج، مصراً على أن المقاطعة التي فرضها المؤتمر الوطني الإفريقي على البطاطا كانت مقدمة حاسمة لحرق الأذونات، وبدا واثقاً من أن مبادرة المؤتمر الوطني الإفريقي ستنجح. وكان معه دوما نوكوي، وقد ألقى جسمه القصير مسترخياً في كرسي مريح. وكان مبتهجاً لأن ألف إذن قد أحرقت حتى الآن، وقال: «لم نحلم أبداً أن هذا سيحصل بهذه السرعة. إن البلاد الآن في مرحلة ما قبل الثورة - وأوقف نفسه عن قول (الثورة)- وقال: إننا في حالة تسبق حدوث تغيرات أساسية».

هل كانت ثورة؟ كانت واحدة من تلك الفواصل القصيرة في تاريخ أمة بدا فيها أن أي شيء ممكن. في الحانات الرخيصة كان هناك حماسة مفاجئة: كان «هناك شرخ في الجدار الأبيض، فالشرطة غاية في التهذيب، وهذا مؤلم: حتى أن شرطياً ناداني بلفظة مينير Meneer أي (ياسيد): لقد جعلوا جلدنا سميكاً لدرجة أننا لم نعد نشعر بالوخز». وحتى الإذاعة التي تملكها الدولة أذاعت لحناً ثورياً قديماً، هربه إلى داخل «الاستوديو» موظف أسود مناهض: «انهض يا شعبي. واتحد. الخطأ خطأنا. جميع الدول تدوسنا بأقدامها».

بحلول 30 آذار (مارس) كانت المبادرة تعود ثانية إلى المؤتمر الإفريقي العام في كيب تاون، معقلهم حيث شل المدينة إضراب عام. وبدأت الشرطة تهاجم الحارات بضراوة لتخرقه. فرد العمال السود

بمسيرة بدت عفوية ضمت حوالي 30.000 شخص في مركز المدينة، بقيادة طالب في الثالثة والعشرين يلبس بنطالاً قصيراً هو فيليب غوسانا، الذي إقتدي بنموذج سوبوكوي. وعندما وصلوا إلى المدينة بدا لساعة من الزمن أنه يمسك مستقبل البلد بين يديه لكنه خدع بوعد مقابلة مع وزير العدل ففرق الحشد. لكنه اعتقل بدل ذلك وأوقف تسعة أشهر.

ويتابع المؤرخون جدلهم حول ما إذا كانت المسيرة عجلت الثورة وقالوا: ما من شك في أنه لولا خداع الحشود لكانت الشرطة قامت بمجزرة أسوأ من مجزرة شاربفيل.

وعلى تلك الحال، سارعت الحكومة إلى استغلال الوضع، فأعلنت حالة الطوارئ في اليوم نفسه وأوقفت ما يربو على 2000 شخص. كان مانديلا قد تلقى سراً معلومات مسبقة من قبل صديق في الشرطة، وحذر رفاقاً له من ضمنهم أحمد كاثرادا، الذي أخبر بدوره بيرنشتاين، الذي حذر أصدقاءه الشيوعيين من مغبة النوم في بيوتهم. واتخذ قرار بأن يختبئ بضعة ناشطين- مثل هارميل وكوتاني وداود- فيما يستسلم مانديلا والبقية للاعتقال.

واعتقل مانديلا ونقل إلى سجن نيولاندز قرب صوفيا تاون حيث أمضى الليل في وضع مرعب، وصفه في اليوم التالي لهيلين جوزيف التي سجنت إفرادياً وقال «احتجز خمسون معتقلاً لآخر الليل، وبعد اعتقالهم في الساعة الواحدة صباحاً، وقفوا في باحة مكشوفة بلا سقف ينيرها مصباح كهربائي واحد. كانت صغيرة لدرجة أنهم لم يستطيعوا سوى

الوقوف. ولم يقدم لهم أي طعام أو بطانيات- وفي الصباح أخذوا إلى زنزانة مساحتها حوالي 8 أقدام مربعة، ليس فيها تمديدات صحية سوى فتحة بالوعة في الأرض تغسل بالماء حسب رغبة الشرطي المسؤول، ولم يأت الطعام، أو حتى مياه الشرب، قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد اثنتي عشرة ساعة من إحضار الرجال إلى الزنزانة».

كانت الحكومة تتحرك بسرعة لتمنع مزيداً من الاحتجاج. حيث أقدمت يوم 8 نيسان (أبريل)، بمساعدة الحزب المتحد المعارض، على تمرير قانون المنظمات غير القانونية الجديد وبموجبه أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي، بعد ثمانية وأربعين عاماً، حزباً قانوني، أسوة بالمؤتمر الإفريقي العام. وسيبقيان كذلك على مدى الثلاثين سنة القادمة.

كانت أحياء السود في فوضى سياسية، إذ لم يكن أحد يعلم من في السجن، ومن نجا، وتركز جو الأزمة يوم 9 نيسان (أبريل)، عندما أطلقت النار على الدكتور فيروورد وجرح من قبل مزارع أبيض اسمه دافيد برات من معرض زراعي في جوهانسبورغ بقيت جنوب إفريقية بضعة أيام في سجن سياسي، كان فيها فيروورد خارج ساحة العمل ووزارته مشتتة. وقد ألقى أحد الوزراء، وهو بول سوير خطاباً يوم 19 نيسان (أبريل) قال فيه إن شاربفيل قد أغلقت كتاب التاريخ القديم لجنوب إفريقية، وإن على البلد أن يعيد النظر في علاقاته العرقية بجدية وأمانة. إلا أن روح المصالحة هذه سرعان ما انقضت واستعاد فيروورد عافيته بالتدريج وملك زمام الأمور، وصار أكثر عناداً من أي وقت مضى. وفرضت

الشرطة قوتها بوحشية أكثر. وخبت نار أذونات المرور الأسطورية؛ إذ تذكر الناس أنهم لا يستطيعون الحصول على منحة أو معاش تقاعدي أو مدخرات من صندوق توفير البريد أو تقديم طلب بيت للسكن دون إذن مرور. بدؤوا يصطفون أرتالاً للحصول على أذونات بديلة لتلك التي أحرقوها. وبحلول نهاية شهر نيسان (أبريل)، أي بعد شهر من شاربفيل، بدا الحديث عن ثورة وشيكة وقد قال الصحفي (كان ثيمبا) هذه ليست ثورة». كان الشباب يتحدثون عن تحول رياح التغيير إلى إعصار. لكن يبدو أنه لم يخطر على بالهم أنه قد يكون مجرد نسمة عابرة.

أثبت تخفيف قوانين الأذونات أنه (تكتيكي) بحت، بقصد التحضير لإجراءات صارمة وأكثر منهجية. ولم تبد بريتورية أي مؤشر ينبي بالخضوع لضغط ماكميلان أو أي قائد غربي آخر، وسرعان ما بدأت الحكومة تضع خططاً لتدريب الشرطة، بمساعدة من الخارج، على أساليب مراقبة وتعذيب أكثر نجاعة وبطشاً.

كشفت عقابيل شاربفيل غياب الواقعية لدى كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام. وكانت أوجه الشبه قليلة بين جنوب إفريقية وبقية القارة. حيث كانت الحكومات الاستعمارية عبارة عن حكام راغبين عن الحكم. ولم تلق حركات التحرير صعوبات كبيرة في سبيلها إلى الحرية. وما من شك في أن نضال الجنوب إفريقيين ضد الأفريقانيين سيكون أقسى من الانتصارات في الشمال. في هذا الجو غير العادي تابع القضاة الثلاثة في بريتورية قضية الخيانة، كانوا

يستمعون بهدوء إلى الأدلة حول أحداث خمس سنوات خلت. في كل يوم كان المتهمون الثلاثون ينقلون إلى قاعة المحكمة من السجن. كان يسمح لمانديلا بالخروج أيام العطلة الأسبوعية ليزور مكاتب مانديلا وتامبو، التي تردت أوضاعها بسبب المحاكمات. كان يرافقه شرطي أفريقاني ودود هو (السير جنت كروجر) الذي كان يثق بأنه لن يهرب. ولكن أثناء الأسبوع كان عليه أن يمضي الليل في السجن والنهار في المحكمة، يواجه المرحلة الأكثر حساسية في قضية الخيانة. كانت الحكومة قد أعطت المحاكمة أهمية مضافة، كبديل للتحري عن أسباب مجزرة شاربفيل، الذي كانت المعارضة تطالب به. وكما قال الدكتور فيروورد يوم 20 أيار (مايو): «المحاكمة نفسها تحمل طابع التحري في أسباب الإزعاجات».

كان محامو الدفاع، (برئاسة برام فيشر) ساخطين بسبب القيود التي فرضتها حالة الطوارئ، وقالوا إن العدالة لا يمكن تحقيقها في ظروف غير طبيعية كتلك، في وقت كان فيه موكلوهم في السجن، وغالباً ما تصعب استشارتهم. فاقترحوا (استراتيجية) جريئة، وافق عليها مانديلا: «وذلك بأن ينسحبوا من القضية إلى أن ترفع حالة الطوارئ، مما يترك المتهمين الثلاثين يدافعون عن أنفسهم. كانت مناورة مثيرة للجدل، إلا أنها كانت كفيلة بإعطاء المتهمين فرصة لاستعراض ذكائهم أمام القضاة، ومخاطبتهم مباشرة. وكثيراً ما كانت نقاشات السجناء الطويلة في السجن تثير دهشة سجانيهم. فعندما قام مانديلا بزيارة هيلين جوزيف ليناقش معها الإجراءات؛ لاحظ أن بعض السجانات

النساء انجذبن إلى النقاش، كما تأثرن بالتزام السجناء السياسي. وضع سحب فريق الدفاع مسؤولية خاصة على كاهل مانديلا ودوما نوكوي، المحاميان الوحيدان بين الثلاثين. فأصبح عليهما الآن مساعدة الآخرين في تحضير قضاياهم. إلا أن بعضهم تشكى من غياب التمثيل اللائق. وأكد لهم مانديلا أنهم يطرحون نقاشاً أخلاقياً قوياً.

في آب (أغسطس) 1960، بعد خمسة أشهر من القيود، رفعت حالة الطوارئ وعاد المحامون إلى قاعة المحكمة. جاء دور مانديلا للإدلاء بشهادته- الأمر الذي لقي ترحاباً لديه، إذ أنه كان ممنوعاً من الكلام في أي مكان آخر- وعين المحامي الشاب سيدني كينتريدج للدفاع عن مانديلا، وتحضيره للإدلاء بشهادته ومتابعة اتسجوابه، أخفى أسلوب كينتريدج المتواضع عقلانية لا تلين، حملته إلى قمة مهنته في جنوب إفريقية وبريطانية على حد سواء، وأصبح مشهوراً بعد أن استخلص من شهود من الشرطة الأهوال الكاملة لتعذيب ستيف بيكو ووفاته أثناء الاستجواب. وفي قاعة المحكمة في قضية الخيانة، سرعان ما أصبح كينتريدج شديد الإعجاب بمانديلا. ويذكر أنه في ذلك الوقت أيقنت لأول مرة أنه قائد طبيعي للرجال. كان حازماً، دمثاً، يعتمد دائماً على الفكر والعقل. وتبدت ثقافته السياسية الحقيقية من إجاباته عن الأسئلة، لم يكن لديه برنامج عمل خفي، الأمر الذي أصبح في إفادته، تحت الاستجواب المكثف».

ما من شك في أن شهادة مانديلا كشفت عن سياسي أعمق فكراً

مما ظهر من قبل. وتحت ضغط استجوابه والأزمة السياسية العاصفة، واجه التحدي بسيطرة كاملة. وفي تصريحه شرح بدقة تطوره السياسي وفلسفته، فيما كان يؤكد أنها ليست بالضرورة فلسفة الكونغرس. واعتقد أن ذلك كان أقوى خطاب ألقاه. تحدث عن إيمانه المبكر بالقومية الإفريقية ثم تحوله إلى التعددية العرقية. ورسخ تأكيده على اللاعنف، ورفضه مبدأ الثورة بمعنى (قفزات جبارة). وشرح تصوره لتوصل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حق الانتخاب العام من خلال تنازلات تدريجية في التصويت المقيد، مما يؤدي في النهاية إلى الديمقراطية الشعبية. وقال إنه شخصاً يفضل مجتمعاً غير طبقي، مثل المجتمعات التي يعتقد أنها موجودة في هنغاريا والصين وروسيا، إلا أنه سلم بأن الإفريقيين سيكون لديهم، لفترة طويلة من الزمن، طبقات مختلفة من عمال وفلاحين وأصحاب مخازن ومثقفين. وأعرب عن معارضته الحادة للإمبريالية وقال: «من خلال خبرتي الشخصية مع الإمبريالية، يبدو أن هناك القليل القليل الذي يمكن أن يقال عنها.. لقد انطلقت عبر العالم، تخضع الشعوب وتستغلها، تحمل الموت والدمار إلى ملايين الناس». كما قال إنه يعارض الرأسمالية، لكنه ادعى عدم معرفته عن ارتباطها بالإمبريالية. وأصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس له أي توجه حيالِ الإمبريالية، وأن بنود ميثاق الحرية، بغض النظر عن الإطاحة بالاحتكارات التعدينية، لم تتطرق إلى الرأسمالية وتركتها (سليمة معافاة).

أعرب مانديلا عن اعتقاده أن حكومة جنوب إفريقية تتحرك باتجاه الفاشية، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بالعبارة الكزوسية (اندلوفو آيباتوا) إلى - فيل لا يمكن لمسه، وتوقع المؤتمر الوطني الإفريقي ردود فعل أكثر ضراوة: «فالحكومة لن تتردد في تذبيح مئات الإفريقيين». لكن مانديلا كان مازال يبدو متفائلاً- حتى بعد شاربفيل وقال بأن «الحكومة الوطنية أضعف مما كانت عندما بدأنا». وكان يأمل أن تدرك الحكومة أن سياساتها غير مجدية، بالضغط الداخلي والخارجي: فالبلدان التي كانت تدعم السياسات العرقية في جنوب إفريقية قد انقلبت ضدها».

هيلين جوزيف، التي أدلت بشهادتها بشكل عصبي، استمدت الحماسة من ثقة مانديلا الهادئة. فهو قليلاً ما كان يثار لدرجة الغضب، ولاحظت، مثلاً، عندما اقترح القاضي رامبف أن إعطاء حق التصويت لأشخاص غير متعلمين يشبه إعطاء ذلك الحق للأطفال. وتساءل رامبف قائلا: «ما الفرق بين أن يكون لديك أطفال لا يعرفون شيئاً، أو كبار لا يعرفون شيئاً؟». كان مانديلا غاضباً بهدوء، خاصة وأن والده كان أمياً، كما أن اثنين من الرجال المسنين بين المتهمين لم يذهبا أبداً إلى المدرسة. كما واجه متاعب عندما جوبه ببعض الوثائق والخطابات لزملاء أكثر ميلاً إلى القتال. مثل تصريح روبرت ريشا للمتطوعين أنهم إذا طلب منهم أن يقتلوا فإن عليهم أن يقتلوا؟ قال مانديلا إنه كان «مثالاً سيئاً فقد كان يتعلق فقط بموضوع الانضباط». وماذا عن زميله المتهم (ثيمبايل نديمبا) الذي قال: «إذا أتت التعليمات للمتطوعين بأن يقتلوا فإن عليهم

أن يقتلوا؟» قال مانديلا إنها كانت «طريقة غير حميدة لإعطاء مثال عن الانضباط»، لكنها ليست سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. وعندما أطلعوه على إشارة لـ «الاستيلاء على السلطة» من عام 1951 أجاب «لست أرى أي لجوء للقوة أو العنف في هذه العبارة». ولدى سؤاله عن محاضرات أعدها راستي بيرنشتاين فحواها رسالة ماركسية واضحة، قال: «لسوء الحظ أن الطريقة التي عولجت بها ربما أعطت انطباعاً بأنها تحمل بعض السلطة من المؤتمر الوطني الإفريقي».

كان مانديلا قادراً على إثبات أن لا هو ولا أحد سواه من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي نادى بالعنف في أي وقت خلال العقد الماضي، وأنه في الوقت الذي رفض انتقاد الشيوعيين، لم يلتزم بالحزب.

سأله كينتريدج: هل أصبحت شيوعياً؟

أجابه مانديلا: الحقيقة أني لا أعرف إن كنت قد أصبحت شيوعياً. إذا كنت تقصد بكلمة شيوعي عضو في الحزب الشيوعي وشخص يؤمن بنظرية ماركس وانغلز ولينين وستالين، ويلتزم بشكل صارم بنظام الحزب، فأنا لم أصبح شيوعياً.

وعندما سأله كينتريدج لماذا لم يهاجم ستالين بعد أن شجبه خروتشوف عام 1956. أجاب: «لم يكن ذلك من مهامنا السياسية. إن ما فعله ستالين لم يكن موجهاً ضدنا». ونوه كينتريدج بأن مانديلا رأي في الشيوعيين أعداء أعدائه، وبالتالي فهم أصدقاؤه، ولكن بعد مزيد من الاحتكاك بهم كان متأكداً من أنه ليس ستالينياً ولا عضواً في الحزب الشيوعي.

وصف بعض زملاء مانديلا فيما بعد على أنه في تلك الفترة لم يكن يختلف عن الشيوعيين، أو أنه ربما كان عضواً سرياً في الحزب الشيوعي. إذا قال بين توروك الذي كان عضواً في اللجنة المركزية: «إذا لم يكن في الحزب فإن ذلك كان تكتيكاً»، فيما قال راستي بيرنشتاين ببساطة: «بحلول عيد الستين كان صعباً أن أعرف من هو في الحزب ومن ليس فيه».

وصمت الحكومة على اتهام مانديلا بعضوية الحزب، الأمر الذي كان أعداء الشيوعية في الخارج يتبنونه بسرعة. وحتى عام 1966، بعد أربع سنوات في جزيرة روبين، أخبرته وزارة العدل بأن أسمه يدرج كعضو في الحزب. فيكتب مجيباً «بأنه ينكر بشدة أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية بعد 1960 أو في أي وقت آخر». وطلب أن يرى شهادة خطية بقسم وتفاصيل من أي مؤتمر شيوعي كان قد حضره. بعد أربعة أشهر أخبرته الوزارة بأنه تقرر ألا يوضع اسمه في اللائحة «في هذه المرحلة»، والحقيقة أنه كما قال صديقه الشيوعي إسماعيل مير فيما بعد «إن أدق تفتيش لأي نظام أمني حسن التنظيم لم يجد أن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي».

إلا أن التعلق الجنوب إفريقي الخاص بالشيوعية حرف السؤال. كان كثير من شيوعيي جنوب إفريقية والمتعاطفين معهم، مثل مانديلا، (براغماتيين) في دعمهم حتى أن مانديلا قال فيما بعد إنه كان يستخدم الشيوعيين أكثر مما كانوا يستخدمونه وأثبتت الأحداث التالية

ضحالة التزامه بعقيدتهم الأساسية. ولكن في أوائل عقد الستين أظهر الشيوعيون قدراً من الشجاعة تجاوز ما بدر عن حكومة الأبارثيد من بطش، وكانت شجاعتهم محط إعجاب، مثل الشيوعيين الفرنسيين إبان حرب المقاومة ضد النازيين.

وما من شك في أن منع المؤتمر الوطني الإفريقي دفعه بشكل أقوى نحو الحزب الشيوعي، وأجبر الاثنين على العمل السري. وبعد أن رفعت حالة الطوارئ في آب (أغسطس) وأخلي سبيل معظم السجناء تمكن قادة المؤتمر الوطني الإفريقي من الاجتماع سراً ليضعوا خطة للعمل كمنظمة محظورة. وأدرك مانديلا أن الحظر جعل من الضرورة بمكان إعادة تنظيم جدي للمؤتمر الوطني الإفريقي وتشذيب البنية كلها، بحل رابطة الشباب ورابطة المرأة والتركيز على مجموعة داخلية صغيرة.

وكتب مانديلا من السجن قائلاً «أصبحت السياسة بالنسبة لأي عضو عامل خطيرة جداً، ونوعاً من النشاط موقوفاً على النواة الأصلية فقط». لدى عمله في مناخ من اللاشرعية، أدرك الحاجة إلى طرح نفسي جديد هادئ. فعندما حظر الحزب الشيوعي عام 1950، علم بأن الحكومة تستهدف المؤتمر الوطني الإفريقي بقدر ما تستهدف الشيوعيين وقال: «الآن أصبح العدو يستخدم السلاح نفسه».

على الرغم من جميع التحذيرات المبكرة واقتراحات مانديلا بالنسبة للخطة M فقد أخذ الحظر المؤتمر الوطني الإفريقي، والمؤتمر الإفريقي العام، على حين غرة. وقد كتب المؤرخان توم كاريس Tom Karis وغوين

كارتر Gwen Carter إن «مجرد البقاء في وجه مجازر الشرطة أصبح إنجازاً كبيراً بالنسبة لكلا المؤتمرين». وبعد رفع حالة الطوارئ مباشرة شكل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة طوارئ كانت قادرة على العمل إلى أن أصبحت المنظمة غير مشروعة ثانية، ونشرت بياناً ترفض فيه الإذعان للحظر. لكن بعد وقف ألفي شخص وتقييد المؤتمر الوطني الإفريقي بشدة.

أما الحزب الشيوعي، الذي سبق أن حظر لمدة عشر سنين، فقد أصبح أكثر انسجاماً مع العمل السري، وقد لجأ بعض كبار الناشطين، ومنهم صديقا مانديلا موسى كوتاني ومايكل هارميل إلى التواري عن الأنظار. وأثناء سريان حالة الطوارئ أعلن كوتاني وقلة آخرون أن الحزب عاد إلى العمل، وكان قادراً على إصدار بعض الدعاية من خلال جريدته السرية «الشيوعي الإفريقي» التي طبعت لأول مرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1959؛ وكان هذا الظهور للحزب انتقد من قبل كثير من الأعضاء الذين لم يؤخذ رأيهم، ولكنه في الحقيقة جعل العلاقات مع المؤتمر الوطني الإفريقي أكثر بساطة، وأطاح بالمخاوف المتعلقة ببرامج العمل السرية.

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يعاني من ضعف في التنظيم لا يخوله العمل في الخفاء، بتطبيق أجزاء بسيطة من الخطة M للإبقاء على التنظيم بين العامة. كان قادته بحاجة إلى الشيوعيين لمساعدتهم على العمل من وراء ستار.

اتخذ التنفيذي في المؤتمر الوطني الإفريقي احتياطاً واحداً أثبت أنه بالغ الأهمية، ففي حزيران (يونيو) 1959 قرروا أنه في حال الأزمة فإن على أوليفر تامبو مغادرة البلاد فوراً عبر (بيتشوانا لاند) وتأسيس مكتب غانة. وبعد ستة أيام على شاربفيل، يوم 27 آذار (مارس) 1960 غادر تامبو إحدى ضواحي جوهانسبورغ، وكان في وداعه أصدقاء مثل أحمد كاثرادا، ليعبر به الحدود بالسيارة وتابع طريقه عبر دار السلام إلى لندن، وعلى مدى السنوات الثلاثين التالية استطاعت قيادة تامبو والثقة المتبادلة بينه وبين مانديلا في السجن، أن تكون الأساس الذي ارتكز عليه بقاء المؤتمر الوطني الإفريقي. في ذلك الوقت لم يتبين مانديلا المدى الذي ستصله أهمية الجناح الخارجي للمنظمة.

أصبح مانديلا يأخذ الأمور على مسؤوليته أكثر مما سبق، بعد أن فصل عن شريكه الذي كانت حكمته غالية جداً بالنسبة إليه. وترك وحيداً لمتابعة المهمة الشاقة في مكتب محاماة مانديلا وتامبو. وتابع ممارسة المحاماة بمفرده، يعمل من شقة كاثرادا في خولفادهاوس رقم 13، حيث بقي الزبائن يتواردون إلى أن بدأ كاثرادا- الذي حدث حركته بالتذمر بعد طول معاناة. وبعد ذلك بوقت قصير توارى مانديلا عن الأنظار، واضطر إلى ترك مهنة المحاماة إلى الأبد.

بقي عام 1960 عام أزمة. ففي تشرين الأول (أكتوبر) قامت الحكومة بالاستفتاء الأبيض الذي وعد به فيروورد حول مسألة تحول جنوب إفريقية إلى جمهورية. وتمت الموافقة بأغلبية ضئيلة مدهشة-

850.000 صوت مقابل -775.000 إلا أنها كانت بحاجة إلى أغلبية بسيطة فقط. لم يكن مانديلا متحمساً حيال تحول البلاد إلى جمهورية. واعتقد أن ذلك لم يضيف أي وزن لسيادة جنوب إفريقية، ورأي للموضوع بعداً عاطفياً فقط بالنسبة للوطنيين الأفارقة، الذين يتطلعون بحنين إلى جمهورياتهم (شبه الإقطاعية) في القرن التاسع عشر، قبل أن يحط البريطانيون منها. وأمل أن النظام الجمهوري، بإزالته أحزانهم، (سيحل البراغي) التي تشد المثقفين الأفارقة بعضهم إلى بعض. إلا أنه لم يستطع أن يقبل باستفتاء لا يحق التصويت فيه لغير البيض.

وعلى الرغم من استعراض القوة الذي أظهرته الحكومة بعد شاربفيل، كان مانديلا مصمماً على الانطلاق في احتجاج سلمي آخر، إضراب أو (ملازمة المنازل) فما زال معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، يحتفظ بتفاؤل مدهش. ربما أنه تحدث عن تقدم جنوب إفريقية باتجاه الفاشية وتحولها إلى دولة بوليسية، إلا أنه هو ورفاقه كانوا غير مستعدين لذلك التحول عندما حصل. حيث كتب «يصعب تقدير مدى إحساس القادة الإفريقيين وسواهم من المناوئين الراديكاليين للحكومة. بأن اتجاه الأحداث يجري لصالحهم».

الفصل الحادي عشر

# مانديلا وإحداث العنف عام 1961

بنهاية عام 1960 كانت حياة مانديلا المتعددة المجالات في جوهانسبورغ قد بدأت تضيق باضطراد. فقد تداعت مهنته كمحام، وكثير من أصدقائه باتوا في المنفى، والشبكة الاجتماعية في أورلاندو انحلت عملياً. ونوه بأن أسرته كانت مدمرة مادياً. وكانت حياته الأسرية مع ويني تقاطع باستمرار بمهام سياسية. وعندما وضعت ابنتهما الثانية زيندزي، في أخر العام وصل إلى البيت متأخراً ولم يستطع أن يكون معها في الوقت المناسب. تقول ويني: «نادراً ما كنت أجلس معه كزوج. والحق يقال أقسم أني لم أكن أعرفه أبداً».

كانت حياة مانديلا السياسية تتحرك نحو السرية، وكان يقدم صورة أكثر ميلاً إلى الخفاء: فلم يعد الشاب المنفتح للحياة بوجهه الحليق وشعره المفروق من الوسط وإنما أصبح له شارب كث ولحية سوداء قصيرة لدرجة أن عينيه أصبحتا تحملقان من خلال ذقنه الكثيفة وحاجبيه الكثين. إلا أنه كان في الوقت نفسه يقوم بمحاولة أخرى للتنظيم السلمي مع أحزاب أخرى. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1960 اجتمعت مجموعة من 36 من القادة الإفريقيين في مؤتمر استشاري في أورلاندو والتزموا برفع شعار (مؤتمر إفريقية للجميع) الذي بدوره

طالب بميثاق وطني لكل الأعراق. بدا غير واقعي بشكل غريب في ضوء رد الحكومة الوحشي في شاربفيل. «لقد أظهر المؤتمر مدى عدم الاستعداد الثقافي الذي كانت عليه قيادة ائتلاف الكونغرس عام 1961 كي تنطلق في نضال ثوري».

أغارت الشرطة على الاجتماع في أورلاندو وصادرت جميع الأوراق، لكن الخطط نقذت عبر لجنة كان مانديلا أمين سرها. وسافر مانديلا وسيسولو، بين جلسات المراحل الأخيرة من قضية الخيانة، سراً سافرا حول البلاد لإجراء التحضيرات للمؤتمر، حتى إنهما وصلا إلى (باسوتولاند) حيث لجأ العديد من ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي، ومنهم جو ماتثيوز، في البداية عملوا مع بعض الليبراليين، وأيضاً مع المؤتمر الإفريقي العام إذ شجعهم تأسيس (جبهة موحدة) للمؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام، في الخارج، لكن التواطؤ سرعان ما تداعى واتهم الليبراليون المؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين بالسيطرة، فيما قرر المؤتمر الإفريقي العام أن عليهم سحق المؤتمر؛ لأنهم شكوا أن هناك «مخططات جارية لترسيخ مانديلا بطلاً مقابل سوبوكوي»، وهكذا تابع مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي بدعم من الشيوعيين فقط. وأصبح تعاونهم أقوى، في مجموعة متماسكة يتبادل أفرادها الثقة فيما بينهم.

كانت الحكومة تراقب بعين حذرة، فقبل خمسة أيام من انعقاد المؤتمر قامت الشرطة باعتقال عشرة من المنظمين وأرسلت في طلب

دوما نوكوي. إلا أن اللجنة تمكنت من توزيع منشورات «تطالب الشعب الإفريقي في جنوب إفريقية بالاستعداد» لمؤتمر إفريقية للجميع، ليعقد قرب (بيتر ماريتزبورغ) في ناتال يوم 22 آذار (مارس).

كان مانديلا بحاجة إلى تمويل لترتيب المؤتمر، وطلب بجرأة مقابلة هاري أوبنهايمر رئيس الشركة الأنغلو أمريكية. كان أوبنهايمر رجل الأعمال الأول والوحيد الذي قابله مانديلا قبل أن يسجن. لقد تأثر مانديلا بالحركات العمالية، وقال فيما بعد: «في وقت تميز بالعداء السافر لرجال الأعمال». استقبله أوبنهايمر بأدب شديد، كما كان يستقبل الجميع تقريباً. وتذكر مانديلا: «عندما أتينا إلى مكتبه هب واقفاً وكأننا الرئيس أو رئيس مجلس الوزراء في بلد ما، وطلب مانديلا مبلغاً محدداً وقال أوبنهايمر إنه مبلغ كبير من المال. وسأل بأي نفع سيعود عليه. وسأل أسئلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبدا كأنه يقلل من شأن قوته. يذكر أوبنهايمر فيما بعد أن «مانديلا خاطبني بصراحة كما في اجتماع، بعبارات رسمية. كنت جاهلاً بشأن المؤتمر الوطني الإفريقي لكني تأثرت بإحساس مانديلا بالقوة». ولم يحصل مانديلا على المال الذي يريد. وفي 22 آذار (مارس) أظهر مؤتمر ماريتزبورغ دعماً ملحوظاً للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد سنة من حظره، كان هناك 1400 وفد من 145 جماعة مختلفة في جميع أرجاء جنوب إفريقية، ومن ضمنها رابطة كرة القدم الجنوبي الترانسفال، وكنيست صهيون لكن المؤتمر الوطني الإفريقي هيمن بشكل واضح، بشعاراته

وخطبائه وأغانيه، ومنها «انشر بشارة الخلاص أيها الزعيم لوثولي». قالت النيويورك تايمز عن الحدث: أنه «أكبر اجتماع سياسي للإفريقيين يعقد في جنوب إفريقية». وأفردت له الراند ديلي ميل عنواناً رئيساً «الأفريقيون يصرون على مؤتمر قومي».

وفيما يبدو مصادفة، انتهى الحظر المفروض على مانديلا قبل الاجتماع بقليل- الأمر الذي يبدو أن الشرطة لم تلاحظه- وأجلت قضية الخيانة لمدة أسبوع. وهكذا تمكن مانديلا من أن يقفز كالجني من القمقم، بلحيته وبذلته ذات القطع الثلاث ليعطي المؤتمر قمة مؤثرة، وليقدم أول خطاب علني له منذ عام 1952 التهب الجمهور حماسة، ولوحوا بقبضاتهم في الهواء كما لو أنها بنادق وهم يرفعون أصواتهم بالشعار الجديد (أماندلا نغاويثو!) بمعنى (القوة للشعب) - الذي كان مقتبساً من الأغنية (عودي يا إفريقية)- نادى مانديلا ثانية بالوحدة الإفريقية وقال: «يجب أن يشعر الإفريقيون ويتصرفوا ويتحدثوا بلسان واحد... يجب أن نخرج من هذا المؤتمر بكامل التحضيرات لميثاق وطني كامل التمثيل ومتعدد الأعراق».

شعر مانديلا نفسه بمزيد من الثقة مبعثه عامة الناس العاديين. فراقب بزهو شيخاً يلبس سترة قديمة وقميصاً كاكياً وبنطالاً لركوب الخيل يتحدث عن حملته ضد سلطات البانتو ويقول: «سأعود من هنا منتعشاً وكلي ثقة». وكان مانديلا واثقاً بأن الوفود كانت مستعدة «لكفاح عنيد ومديد، يشمل عامة الناس في المدينة والقرية».

طالب المؤتمر الحكومة بأن تدعو إلى ميثاق وطني. وإذا رفضت فإن المؤتمر الوطني الإفريقي سينظم اعتصامات في البيوت متعددة الأعراق. تبدأ يوم 31 أيار (مايو)- اليوم الذي ستصبح فيه جنوب إفريقية (جمهورية) والذي سيكون مانديلا المنسق الرئيسي فيه (في حين كانت الإضرابات في أماكن العمل خارجة عن القانون، فإن الاعتصام في المنازل لم يكن كذلك). اختفى مانديلا من القاعة التي كانت محشوة برجال الأمن فجأة كما ظهر. ولم يظهر على منبر عام في جنوب إفريقية ثانية مدة تسع وعشرين سنة.

عاد مانديلا إلى بريتورية من أجل قضية الخيانة، التي ما زال أمامها عدة أسابيع قبل إصدار الحكم النهائي. ولكن يوم 29 آذار (مارس) قاطع القاضي رامبف المحاكمة ليعلن أن ثلاثة قضاة قد توصلوا إلى رأي جماعي بالبراءة وقال: «يستحيل على هذه المحاكمة أن تخلص إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد اقترف أو تبنى سياسة الإطاحة بالدولة عن طريق العنف» واتفق القضاة على أن الادعاء قد فشل في إثبات أن أيا من المؤتمر الوطني الإفريقي أو ميثاق الحرية كانا شيوعيين، ونوهوا بمقالة مانديلا في حزيران (يونيو) 1956 في مجلة «ليبريشين» التي تكهنت بتقدم برجوازية غير أوروبية في ظل ميثاق الحرية».

احتفل المتهمون الثلاثون بالبراءة ببهجة، والتقطت كاميرا سينمائية هربت إلى داخل قاعة المحكمة مشاهد ضبابية للمتهمين يحملون محامي الدفاع على أكتافهم، وصورة لمانديلا مبتسماً يرتدي بزةً أنيقة

ويشق طريقه بين الحشد. قال مانديلا فيما بعد إنه كان متأثراً لأن القضاة ارتفعوا فوق تحاملهم ليقدموا قراراً عادلاً، لكن الابتهاج كان فوق الواقعية وسط الحظر والاضطهاد. كان مانديلا يعرف أن الحكومة لن تعترف بآلام المؤتمر الوطني الإفريقي المشروعة وأنها سرعان ما تصبح أكثر بطشاً، وتبتكر قوانين جديدة تتجاوز المحاكم.

قرر مانديلا أنه سيلجأ إلى الخفاء. وقد لاحظت (ويني) أنه كان يفكر صامتاً لعدة أسابيع، دون أن يستمع إليها. كما اقتنع وولتر سيسولو بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يكون له قائد واحد في الخفاء يمكنه أن يكون أكثر نشاطاً من لوثولي، المحظور الآن في ناتال.

قبل صدور حكم البراءة في قضية الخيانة وصل مانديلا إلى البيت في أورلاندو برفقة سيسولو ونوكوي وجو موديس، وقال لويني: «حبيبتي جهزي لي بعض الثياب في حقيبة مع بعض الصابون والعطور. سأذهب بعيداً لوقت طويل». رتبت الأشياء وهي تبكي، وطلبت من آلهة إفريقية أن تحفظه، ورجته أن يخص أسرته ببضع دقائق بين وقت وآخر.

قرر زملاء مانديلا أن عليه أن يبقى متخفياً لينظم الاحتجاج المخطط يوم 31 أيار (مايو). لكن كان عليه ألا يعرض نفسه للاعتقال، في الوقت الذي كان يحتاج إلى الترويج للإضراب على أوسع مدى ممكن. والمفارقة أنه، من مخبئه أصبح ناطقاً رسمياً باسم شعبه. وأصبح أكثر في الظل مما كان في أي وقت مضى في ضوء النهار الساطع.

كان مانديلا بحاجة لإقناع الليبراليين البيض والأنصار بدعم المؤتمر

الوطني الإفريقي، ومجابهة دعاية المؤتمر الإفريقي العام، وعلى مدى شهرين كان يظهر فجأة من مخبئه ليتحدث إلى رؤساء التحرير البيض، محاولاً تهدئة مخاوفهم، وبخاصة حيال النفوذ الشيوعي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي جوهانسبورغ تناقش مع (لورانس غاندار) رئيس تحرير الرائد ديلي ميل المتعاطف البعيد عن الأضواء. وفي بورت إليزابيث قام بزيارة (لجون ساثرلاند) رئيس تحرير (الأيفينينغ بوست) الهادئ والليبرالي، الذي كان قلقاً على سلامة مانديلا، لأن مكاتب الجريدة كانت قبالة مخفر الشرطة. شكر مانديلا ساثرلاند بحرارة لدعمه السابق قبل أن ينضم بسرعة إلى غوفان مبيكي وفي كيب تاون تحدث لمدة ساعتين مع (فيكتور نورتون) رئيس تحرير كيب تايمز المحنك. ونورتون، الذي التقى بكثير من قادة العالم، وقال فيما بعد لمحرره السياسي (طوني ديليوس) إنه لم يجتمع أبداً برجل يترك انطباعاً أعمق من مانديلا.

في جوهانسبورغ رأي مانديلا حليفه القديم إبان حملة التحدي، باتريك دانكان، الذي أصبح رئيس تحرير المجلة نصف الشهرية (كونتاكت) الذي كان ينتقد بضراوة قادة المؤتمر الوطني الإفريقي لتأثرهم بالشيوعية، ومشاريعهم بالاعتكاف في البيوت. أخيراً قال مانديلا: «أتعتقد أنني غبي لدرجة أني لا أستطيع إدارة منظمة دون أن أتأثر بالناس الذين تعاملنا معهم؟»..

كان التأثير الشيوعي ما زال يربك الدبلوماسيين الأجانب. حيث كتب

فوستر إلى لندن في كانون الثاني (يناير) 1961: «يجب أن أعترف بأننا لا نعرف إلا النذر اليسير عما يزمع عليه شيوعيو جنوب إفريقية». وفيما بعد ألقى باللائمة على الحكومة لمنعها معتدلين أمثال لوثولي، مما يشجع النشاطات التآمرية (للشيوعيين الجدد) المناهضين. وقال إن «مانديلا برغم أنه أكثر ميلاً إلى الشيوعية من نوكوي، فهو ينتمي إلى مجموعة القادة الشباب ذوي الثقافة العالية في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين بدأوا الآن يسيطرون بشكل فعلي».

كانت الحكومة البريطانية تعيد النظر في علاقاتها مع جنوب إفريقية التي تركت الكومنويلث في آذار (مارس) 1961. وبعد الاقتراع على الجمهورية، تقدم فيروورد بطلب للبقاء داخل الكومنويلث، وبذل ماكميلان قصارى جهده لإقناع الأعضاء السود الجدد وكندا، – التي كان رئيس وزرائها جون دايفنبيكر معادياً بشكل خاص للأبارثيد– بالسماح لجنوب إفريقية بالبقاء. إلا أن فيروود استمر في رفضه قبول مندوب سام أسود في بريتوريه، وتلك كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وفي النهاية سحب طلبه. اكتأب ماكميلان، وكتب إلى السير جون مود قائلاً: «رياح التغيير قد عصفت بنا، حالياً، ولكن السلام سيأتي ذات يوم، ربما بعد كثير من الأسى والمحن». لكن أوليفر تامبو في لندن رأى في إقصاء جنوب إفريقية انتصاراً، وقال فيما بعد أن جنوب إفريقية السوداء لم تترك الكومنويلث أبداً.

بقي مانديلا يعلق الأمل على ضغط الكومينويلث من الأعضاء

الأفريقيين والأسيويين الجدد. واستمد الشجاعة من المعارضة للأبارثيد، أصبحت المعارضة تشعر بأنها غير ملزمة باسترضاء حكومة الأبارثيد بعد أن أصبحت جنوب إفريقية خارج نطاق أسرة الكومنويلث. وبحلول حزيران (يونيو) كان السفير السير جون مود يقترح أن السفارة يجب أن «تحتاط» لاحتمال قيام جمهورية سوداء في المستقبل بإجراء اتصالات سرية مع سياسيين سود، على الرغم من أن هذه الاتصالات لمن تصل إلى شيء يذكر، كما قررت الحكومة البريطانية استخدام استخباراتها للقيام بكل جهد يلزق لاختراق الحصن الأبيض في بريتورية، الذي كانوا يعرفون أنه صعب ودقيق. وهذا ما ثبت، فبعد أربع سنوات أخضع أحد كبار عملاء (إم 16)، الذي يعمل بصفة مسؤول في السفارة، «لاستجواب قاس» حول اتصالاته بالمعارضة البيضاء، ويعد ذلك بوقت قصير أعلن «شخصاً غير مرغوب فيه». لكن المخابرات البريطانية قررت أن إجراء اتصالات مع قادة المعارضة السوداء سيكون فيه مجازفة كبيرة، وربما يؤدي إلى تعذيبهم أو قتلهم.

كان مانديلا في هذا الوقت يؤكد على إضراب (اعتصام في البيوت) لثلاثة أيام يبدأ يوم 31 آيار (مايو). وكتبت لجنة العمل التابعة له إلى الدكتور فيروورد تشرح مطالبتها بمثياق وطني، وفيما بعد قال فيروورد للمجلس النيابي: «لقد وصلت رسالة موقعة من قبل ان. آر. مانديلا» بلهجة متعالية، ولم يرسل أي رد عليها. كما كتب مانديلا إلى السير (دوفيلير غراف) قائد الحزب الموحد، الذي صوت على منع المؤتمر

الوطني الإفريقي عام 1960 . وحذر غراف من أن الجنوب إفريقيين يجب أن يختاروا بين «معالجة الأمر بالمناقشة أم بالمناوشة» وسأله: «أين يا سيدي يقف الحزب الموحد؟ إذا فشل كبار رجال الدولة في قيادة هذه اللحظة، فإن ما هو أسوأ قادم لا شك». والأغلب أن غراف لم يعر الرسالة أي اهتمام ولم يتطرق لذكر مانديلا في مذكراته التي نشرت بعد ثلاثين عاماً.

قبل شهر من عيد الجمهورية ذهب مانديلا إلى دوربان ليناقش الاحتجاج وناقشت بعض الوفود بحدة أن الاعتصام في المنازل لم يعد كافياً في مواجهة غضب الشعب وفضلوا الإضراب العام. وكان واضحاً أن العد العكسي لعيد الجمهورية سيكون فترة اختبار لانضباط المؤتمر الوطني الإفريقي.

وكان مانديلا، وهو يجوب البلاد، مدركاً تماماً نفاد صبر أفراد الشعب، ولا سيما بعد أن أثار مشاعرهم المؤتمر الإفريقي العام. وقد سمع كثيراً من الشكاوي ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي بدعوى أنه من غير الصحيح سياسياً التأكيد على اللاعنف، في حين «يعتمد العدو على استخدام القوة المطلقة».

أما اليسار الأقصى فكان أكثر نقداً. حيث قال المؤرخ الماركسي (باروخ هيرسون) الذي سجن بعد سنوات بتهمة التخريب قال: «اعتقدنا أن هذا كان مطلباً مستحيلاً نفرضه على العمال».

لكن مانديلا واصل توكيد أهمية اللاعنف في-رسائل مؤثرة من

مخبئه. وقبل عشرة أيام على عيد الجمهورية اتصل هاتفياً بصحيفة صنداي اكسبرس في جوهانسبورغ من هاتفه الخاص وقال: «إننا ننفي بشدة أن العنف سيندلع أو أن فترة الاعتكاف ستمدد ثلاثة أيام». كانت حملته تكسبه دعماً محدودا من قبل المحرررين الناطقين بالإنكليزية، الذين كانوا معارضين لجمهورية أفريقانية.

يوم 12 آيار (مايو) قدمت صحيفة ستار الصادرة في جوهانسبورغ نبذة عن شخصية مانديلا لأول مرة، إلى جانب صورة فوتوغرافية يبدو فيها باسماً ومشرقاً. «لقد أخذ موقع الناطق الرسمي باسم الأهالي المحليين» بالرغم من تأكيده أن «القيادة الأهلية قيادة جماعية». كما كان قد بدأ يظهر في الصحف البريطانية «محامياً كبيراً، غير متمرس بالأسفار لكنه واسع القراءة. أنيق الثياب ويتحدث ببطء»، كما وصفته المانشتسر غارديان الصادرة يوم 27 أيار (مايو)، قالت إنه «رجل ضخم وسيم ملتح صوته عميق مدو».

في هذه الأثناء، كانت الحكومة تحضر لاستعراض مرعب للقوة، إذ أخذت تحشد قواتها المسلحة، وتلغي الإجازات وتقوم باعتقالات جماعية، وصبيحة الإضراب أحضرت دبابات وحامت طائرات الهيليكوبتر فوق الرؤوي، وتمركزت القوات عند التقاطعات. قال مانديلا عنها: «أكبر قوة تشهدها جنوب إفريقية وقت السلم». ومما أثار غضب المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام كان يساعد الحكومة بأن يناشد الجميع العودة إلى العمل. وكانت الصحافة الناطقة بالإنكليزية أكثر

قلقاً. حيث كتبت الستار قبل يومين من الإضراب: «الاثنين القادم سيكون شبه طبيعي في جوهانسبورغ مثل أي اثنين آخر» و«اعتقد مانديلا أن الصحافة والإذاعة لعبا دوراً معيباً جداً بإذاعة كل تحذير ضد الاضراب قبل الأوان، والطعن بنجاحه في أول أيامه» سارعت (الراند ديلي ميل) بنشر طبعة جديدة تحت عنوان رئيسي يقول: «يجب العودة إلى العمل، كل شيء هادئ». وعندما اتصل مانديلا هاتفياً بصديقه في «الميل» بنجامين بوغراند، بدأ بوغراند بالاعتذار لأن المقال اشترك فيه مساعد تحرير، إلى أن قاطعه مانديلا: «لا بأس يا بينجي. أعرف أن الخطأ ليس خطأك». والواقع أن بوغراند عندما راجع الموضوع وجد أن «العنوان والتقرير كان فيهما أخطاء مميتة بسبب السرعة وعدم الاتقان».

كان مانديلا ولجنة العمل السري التابعة له في المخبأ، وغير قادرين على مراقبة الأضراب بأنفسهم مما أرهف إحساسهم حيال عناوين الصحف التي يرونها. واتخذوا قراراً مؤلماً بإنهاء الإضراب بعد اليوم الأول. وقد كتب راستي بيرنشتاين «كان قراراً شجاعاً لكن خلف إحباطاً شديداً داخل الحركة».

في الحقيقة كانت مقاطعة القطارات والحافلات أنجح مما تصور المؤتمر الوطني الإفريقي. وكشف الدليل الرسمي في محاكمة ريفونية بعد ثلاث سنوات مدى فعاليته. وقد نوه توم لودج، المختص بالعلوم السياسية، فيما بعد أن درجة المشاركة كانت «عالية بشكل مدهش». ولكن في ذلك الوقت استطاع الدكتور فيروورد أن يدعي مقنعاً أن رفع

الإضراب كان انتصاراً، مما أعطى مانديلا إدراكاً عميقاً لقوة الصحافة. وكان درساً لم ينساه أبداً.

رحب بعض البيض الليبراليين بهزيمة الإضراب لكونها تقدم فرصة للقوميين، وقد كتب (أليستر سباركس) في الراند ديلي ميل «إن أفضل طريقة تستغل بها قوى المعارضة فرصة التنفس هذه، هي أن تبدأ بتنظيم ميثاق وطني متعدد الأعراق بلا تأخير». لكن معظم البيض شعروا بأنهم قادرون على تجاهل الخطر الأسود.

كان مانديلا قد اقتنع بأن سياسة الاحتجاج السلمي لن تجدي، وأدرك أن عليه الانتقال إلى مرحلة جديدة من النضال.. وكانت روث فيرست قد رتبت مقابلة يوم الإضراب يجريها مع مانديلا الصحفي البريطاني برايان وايدليك من أخبار التلفزيون المستقل وذلك لأول مرة، وتبين فيما بعد أنها الأخيرة لحوالي ثلاثين سنة. واقتيد وايدليك إلى منزل قرب بحيرة زو حيث صور مانديلا ووراءه جدار قرميدي كان الجو متوتراً، ولم يكن ظهور مانديلا التلفزيوني الأول مؤثراً: «فقد بدا كالح الوجه ومتعباً ومكتئباً بشكل واضح» كما نوه راستي بيرنشتاين. لم تترك المقابلة أثر محركا في بريطانية، إلا أن ما قاله مانديلا كان بالغ الأهمية بالنسبة لمستقبل جنوب إفريقية. إذ صرح قائلا: «إذا كان رد الحكومة هو أن تسحق بالقوة المطلقة مظاهراتنا غير العنيفة، فإننا سنضطر إلى إعادة النظر بشكل جدي في (تكتيكنا). وأرى أننا في الفصل النهائي من مسألة سياسة اللاعنف». وقد نقد تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي،

فيما بعد، مانديلا لتحديه سياسة اللاعنف، لكنه كان يعتقد «أن الإنسان في بعض الأحيان يجب أن يطرح علنا فكرة تدفع منظمة متأنية في الاتجاه الذي تريده أنت».

في الأيام القليلة التالية واصل مانديلا ظهوره المفاجئ من مخبئه ليقوم بمهمة الناطق الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي. لكن الصحفيين لم يؤخذوا بأسلوبه الصلب. وقد اصطحبت روث فيرست- وسيطة المعتاد- (ستانلي يوز) من جريدة صنداي تايمز الجوهانسبورغية ليرى مانديلا في هليبراو في مقابلة لمدة نصف ساعة. رأى فيه يوز رجلاً متوتراً جداً وعندما اجتمعا ثانية بعد ثلاثين سنة ذكره مانديلا: «لم أترك لديك أثرا يذكر».

كما رافقت (روث باترك دونوفان) من الأويزرفر (وروبرت أوكشوت) من الفاينتشال تايمز، إلى شقة في ضاحية يوفيل البيضاء، حيث وجدوا مانديلا يرتدي قميصاً مخططاً وبنطالاً رمادياً. وصدمت بالجو المريح بمانديلا وبضحكه، لكن أوكشوت اعتبر حديثه الرسمي دون المناسبة. قال مانديلا: إن الضربة حققت نجاحاً هائلاً، وإن اللاعنف هو السياسة الواقعية الوحيدة في وجه دولة صناعية جداً، في حين أنكر أنها سياسة اعتدال وقال: «إن شعورنا تجاه الإمبريالية حاد جداً. أنا أكرهها!». لكن لدى خروجهم عاد ثانية فقال: «إننا نغلق فصلاً حول مسألة سياسة اللاعنف هذه». وكتب دونوفان في الأوبزرفر يوم 4 حزيران (يونيو) أن (تكتيك) المؤتمر الوطني الإفريقي الأخير «لم يفد في أكثر من أن يقدم

للحكومة نصراً مجلجلاً» في هذا الوقت فقط- يوم 7 حزيران (يونيو)- فتحت وزارة الخارجية في لندن ملفاً لمانديلا.

في الحقيقة كان مانديلا يناقش مع رفاقه التخلي عن اللاعنف منذ أوائل 1960، عندما قمعت الحكومة بوحشية حملات إحراق الأذونات. وطالما كانت قضية الخيانة مستمرة، فقد اضطر جميع المتهمين إلى الإصرار علناً على أنهم يدعمون اللاعنف كمبدأ، لكن كثيراً منهم، ومن ضمنهم مانديلا، بدءوا يرون فيها تكتيكاً آن أوان التخلي عنه. كان مانديلا دائماً أضيق صدراً باللاعنف من سيسولو أو تامبو، كما أظهر في صوفيا تاون عام 1953. لكن أصبح عامة الناس ينعتونه بنفاد صبر لم يستطع، كسياسي يستجيب للرأي العام، أن يتجاهله.

معظم الساحة السياسية كانت تطالب بإلحاح بأعمال العنف، غالباً بيأس وجموح، مثل الهجمات التي شنها الثوار في روسيا أواخر القرن التاسع عشر. وفي (بوندولاند) موطن تامبو في الكيب الشرقي، واستولت حركة فلاحية اسمها إنتابا (الجبل) على مناطق كاملة بواسطة أساليب حرب العصابات قبل أن تسحقهم الحكومة. وأصر غوفان مبيكي الذي التقى بقادة الحركة في الغابات، على أن المؤتمر الوطني الأفريقي يجب أن يكون له استراتيجية (خطة شاملة) تعبئ سكان المدن والريف على حد سواء». وسارع المؤتمر الأفريقي العام إلى الخروج بشق إرهابي في الكيب سمي بوكو (وحيد) كان يقوم باغتيال البيض انتقاماً للقمع الوحشي، وقامت جماعة من الليبراليين البيض بتنظيم حركة المقاومة

الأفريقية، التي كانت تهدف إلى تفجير الأبنية. كما كان الحزب الشيوعي يشكل وحداته نصف المسلحة لقطع خطوط الطاقة. حتى إن أعضاء حركة الوحدة في الكيب كانوا يحضرون لحركة التخريب الخاصة بهم، والمسماة نادي يوتشين تشان Yuchin Chan تيمناً بتسمية ماو لحرب العصابات. وقد كتب واحد منهم فيما بعد، هو (نيفيل ألكساندر) كنا كلنا، على اختلاف منظماتنا السياسية أو اتجاهاتنا، مدفوعين طوعاً أو كرهاً، عبر هذا الخط الفاصل، باتجاه النضال المسلح من خلفية اللاعنف، دون أي تحضير مسبق.

وكان كثيراً ما ينقد مانديلا المؤتمر الوطني الإفريقي للتهور وعدم الخبرة في النضال المسلح، لكنهم كانوا مضطرين إلى التحرك بسرعة، لمسايرة نوبة الغضب الجماهيري وإحباط البديل، الذي هو الأعمال الوحشية التي لا يمكن السيطرة عليها. وقد كتب مانديلا فيما بعد «كان العنف سيبدأ سواء بادرنا به أم لم لا. وإذا لم نأخذ بزمام المبادرة، فإننا سنتأخر عن الركب ونصبح تابعين في حركة لم نسيطر عليها.

يذكر راستي بيرنشتاين أن المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي كانا يتحدثان عن العنف بطريقة غير منهجية ودون اجتماعات رسمية. وقال جو سلوفو «عندما تفكر في طريق جديد فإنه لا يأتي في لمحة واحدة يدركها الجميع وكان مانديلا يلعب دورا بالغ الأهمية في هذا السياق». كان الشيوعيون أكثر استعدادا للدفاع عن العنف من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي كان، في ظل رئيسه ألبر لوثولي، ملتزماً

باللاعنف. لكن النقاشات تجاوزت خطوط الحزب، وأبدى كثير من القادة الشيوعيين قلقهم حيال كبح الميول القتالية السوداء.

وبعد شهرين من عيد الجمهورية، قدم مانديلا إلى اللجنة الفاعلة في المؤتمر الوطني الإفريقي اقتراحه التاريخي وهو أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتخلى عن اللاعنف ويشكل جناحه العسكري الخاص.

كان نقاشه مقنعاً وقد استشهد بالمثل الأفريقي «إن الهجوم الوحشي المفترس لا يرد بالأيدي فقط»، ومما أشار دهشته أن موسى كوتان، الشيوعي القديم الأسود الذي كان مقرباً من لوثولي، عارضه فما زال كوتان كان يرى مجالاً لأساليب اللاعنف، وحذر من أن العنف سيحرض المجازر. اتفق سيسولو سراً مع مانديلا على أن لا بديل للعنف، لكنهما لزما الصمت، ثم رتبا فيما بعد موعداً لمانديلا كي يتحدث سراً مع كوتان، الذي أقنعه مانديلا بقبول الكفاح المسلح.

ثم نقل النقاش الحاسم إلى (ستانغر) في ناتال، في اجتماعين مؤثرين برئاسة لوثولي الذي إعترض فوراً وعبر عن مخاوفه المسيحية من مغبة العنف. إلا أنه وافق، بعد تأن، على أنه يجب أن يكون هناك حملة عسكرية بقيادتها المستقلة الخاصة، وتكون منفصلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، على الرغم من أنه في النهاية مسؤول عنها. وجرى الاجتماع الثاني الذي جمع المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حلفائه الهنود والبيض والملونين ليلاً، وقد قوبلت خطة مانديلا بإحداث جناح عسكري بالمعارضة من قبل كثير من الهنود، الذين كان ما زال العديد

منهم متأثرين بغاندي. فيما حذر أصدقاء آخرون، منهم مونتي نايكر ويوسف كاتشاليا، متكهنين بأن الأساليب العنيفة ستسيء إلى العمل الأكثر إلحاحاً، وهو التنظيم السياسي. واعترف مانديلا فيما بعد بأن المؤتمر الوطني الإفريقي ارتكب فعلاً الغلطة عينها قائلا: لقد أفرغوا المنظمات السياسية من الرجال المتحمسين وذوي الخبرة، وأكدوا اهتمامهم بالتنظيم الجديد، وأهملوا «العمل الطبيعي، والمهم هو متابعة التنظيم السياسي الصرف».

كان كثير من الهنود الأصغر سناً قد رفضوا المقاومة السلبية، كما كان مانديلا وسيسولو يحظيان بدعم الشيوعيين البيض، بما فيهم سلوفو وبيرنشتاين.

وما من شك في أن الحزب لعب دوراً رئيسياً في إيجاد قوة عسكرية، لكن الفكرة لم تأت من موسكو، إذ قال خبير روسي في الشؤون الإفريقية هو (أبون دافيدسون): «لقد طرح الأمر كحقيقة، لقد كانت موسكو أحياناً أكثر اعتدالاً من الجماعات التي تدعمها، في فلسطين، والجزائر، وجنوب إفريقية». وكان للمؤتمر الوطني الإفريقي سيطرة متنامية على الجناح العسكري. يقول سلوفو إنه بعد عام 1963 أصبح خاضعاً بشكل كامل تقريباً لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى.

في الصباح الباكر كان الكونغسرسان قد اتفقا على أن يشكل مانديلا مظمة عسكرية جديدة أطلق عليه اسم (إم خونتو وي سيزوري) أو (سهم الأمة) كان بإمكانه أن يختار طاقم العاملين معه وبقيت أم.كي بعيدة

كل البعد عن المؤتمر الوطني الإفريقي، تفادياً لتهديد الوضع القانوني للمؤتمر الوطني الإفريقي (على الرغم من أنه خلال ثمانية عشر شهراً أصبح الارتباط بين إم كي والمؤتمر الوطني الإفريقي معروفاً للجميع عندما أعلنه مثير الفتن روبرت ريشا). وكان ذلك فجراً أسطورياً لمرحلة جديدة من الكفاح.

صار مانديلا ملتزماً التزاماً تاماً بالكفاح المسلح كقائد عام لـ إم. كي. والقي نفسه في دوره العسكري الجديد بمنتهى الحماسة. فقد تحول إلى جندي بين عشية وضحاها. كالفدائيين الإفريقانيين في حرب البوار مثل جان سموتز أو دينيس ريتز، اللذين قرأ عنهما كثيراً. وكان في ذلك انفصال كامل عن تراث المؤتمر الوطني الإفريقي.

وقال مانديلا في بيان صحفي أصدره من خبئه يوم 26 حزيران (يونيو)، الذي أصبح (عيد الحرية) قال: «إننا ننوي أن نجعل عمل الحكومة مستحيلاً»، ولم يشرح كيف سيكون ذلك، ولكنه حذر من «أشكال أخرى من الضغط الجماهيري لإجبار المهووسين العرقيين الذين يحكمون بلدنا الحبيب على التنحي وإفساح المجال لحكومة ديمقراطية للشعب ومن الشعب ومن أجل الشعب». وأصدرت الحكومة مذكرة بالقبض عليه. لكنه ما كان ليسلم نفسه، وقال «يعتبر السعي وراء الاستشهاد الرخيص بتسليم نفسي للشرطة أمراً ساذجاً وإجرامياً» وتابع: «لقد اخترت هذا المسار الأخير، وهو أصعب وينطوي على مخاطر وصعاب أكثر من الجلوس في السجن. لقد اضطررت لأن أفصل نفسي عن

زوجتي وأطفالي الأعزاء، وعن أمي وأخواتي لأعيش حياة الخارج على القانون فوق أرضي، كما اضطررت لإغلاق مكتبي، والتخلي عن مهنتي، والعيش بفقر وشقاء».

في الأسابيع القليلة الأولى كان يختبئ في بيوت العديد من الأسر الهندية في جوهانسبورغ، ويخرج لحضور اجتماعات سرية مع تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي، بما فيهم كاثرادا ودوما نوكوي وألفرد نزو وهارولد وولب، ومعظمهم كان محظوراً عليه الاجتماع بأكثر من شخصين. وكانت هناك جماعة صغيرة معينة بالبحث عن بيوت آمنة وكان بينهم كاثرادا الذي كان يجد مضيفين هنود. وولفي كوديش، وهو صحفي أبيض متحمس يكتب في النيو أيدج.

كانت حياة مقلقة. ففي إحدى الليالي وجد كوديش شقة قرب بيته في (يوفيل) كانت شاغرة مؤقتاً. اجتمع هناك عشرة أعضاء من التنفيذي، بينهم مانديلا، في ثياب التنكر المفضلة لديه كسائق. ولكن عندما وصل سيسولو لاحظ كوديش رجلين مسنين في الممر يمعنان النظر فيه، وسمع أحدهما يقول: «اذهب واتصل بالهاتف». سارع كوديش إلى تحذير الجميع بأن يتفرقوا، لكنهم لم يعرفوا أين يخبئون مانديلا، فاقترح كوديش أن يخبئه في شقته في الشارع الغربي رقم 53. وقال كوديش: «لن يخطر على بال الشرطة أن رجلاً أسود سيكون في منطقة بيضاء مثل تلك المنطقة. حيث سيظهر كالبرغوث في اللبن». وبقي مانديلا هناك لمدة شهرين، القائد الطويل القامة، مع الصحفي القصير القوي الممتلئ

الجسم، ثنائي فريد. يذكر كوديش ليلة مانديلا الأولى هناك قائلاً «أصر على النوم على سرير المعسكر، برغم كل احتجاجاتي. واستيقظت في الرابعة والنصف صباحاً على صوت صرير سرير المعسكر، ووجدت مانديلا يرتدي بذلة رياضية، وقال إنه سيخرج لممارسة رياضة الجري، ولكني رفضت إعطاءه المفتاح، فركض في مكانه لمدة ساعة. وكان يكرر ذلك كل صباح، وانضممت إليه فيما بعد، وأخذت أحس بالتدريج إلى أن أصبحت أجري مع لمدة ساعة كاملة».

كان الخروج خطيراً بالنسبة لمانديلا، لذلك بدأ يقرأ بنهم، من كتب كانت على الرفوف عند كوديش، أو تلك التي يحضرها كاثرادا من المكتبة العامة. قال له كوديش: إن كلوزويتز كان بالنسبة للحرب مثل شكسبير بالنسبة للأدب. فراح مانديلا يلتهم كتب كلوزويتز (حول الحرب). قال كوديش: «لم أر شخصاً يركز مثله. كان يسطر، ويسجل ملاحظات كما لو أنه يحضر لامتحان رسمي». قرأ مانديلا قراءة متنوعة، حتى أعمال الشاعر الأفريقاني أنغريد جونكر Ingrid Jonker (الذي استشهد بأشعاره في خطاب القسم بعد أربعين سنة).

ولكن اهتمامه الأكبر كان بالكتب التي تعنى بالكفاح من أجل التحرير: (ماتوسي تونغ) و(إدغار سنو) عن الصين، وكتاب لويس تاروك/ ولد من الشعب/ عن ثورة الفدائيين في الفلبين وكتاب دينيز ريتز عن حرب البوار (كوماندو). كان يقرأ بعناية واهتمام.

في ذلك الوقت بدا كثير من الثوريين حول العالم منتصرين: ماو في

الصين، وبين بيلا في الجزائر، وكاسترو في كوبا. تمعن مانديلا في دراسة الثورات في إفريقية: في إثيوبية، وكينيا والكاميرون، وخاصة في الجزائر، التي اعتبرها المؤتمر الوطني الإفريقي موازية لنضالهم. لكن الثورة الكوبية هي التي أمدته بالأفكار هو وكثير من رفاقه. كانت نموذجاً خطيراً، نصراً استثنائياً، وقد أثار حميتهم أن كاسترو وتشي غيفارا، مع عشرة فقط من الناجين من سفينتهم الغرانما، جندوا جيشاً من العصابات قوامه 10.000 خلال ثمانية عشر شهراً، وساروا نحو هافانا في كانوا الثاني (يناير) 1959. أبدى مانديلا اهتماماً خاصاً بالقصة كما سردها (بلادس روكا) أمين عام الحزب الشيوعي الكوبي، الذي قال: إن كاسترو، وليس الحزب، هو الذي أدرك أن لحظة الثورة قد أتت. وبقى مانديلا دائماً متعجباً بكاسترو.

في تشرين الأول (أكتوبر) 1961 وجد ماندِيا مخبأ جديداً في مزرعة ليليسليف وهي عبارة عن منزل منعزل مع بعض الأكواخ في ريفونيه، التي كانت وقتها ضاحية شبه ريفية تزرع فيها الخضار لتباع في الأسواق، وفيها بعض الأكواخ خارج حدود مدينة جوهانسبورغ. كان الحزب الشيوعي قد اشترى المزرعة سراً، وموه ملكيتها باسم آرثر غولدريتش، الذي استقر فيها مع أسرته ليظهر واجهة محترمة ونمط حياة تتضمن ركوب الخيل أيام السبت، بدا المكان مخبأ أميناً لمانديلا عندما اصطحبه صديقه مايكل هارميل إلى هناك، وكان -كما شهد فيما بعد في المحكمة- «مكاناً نموذجياً بالنسبة لرجل حياته حياة خارج

على القانون وقال حتى ذلك الوقت كنت مضطراً للبقاء في الداخل أثناء ساعات النهار ولم أكن لأجرؤ على الخروج إلا تحت جنح الظلام. ولكن في ليليسليف استطعت أن أعيش حياة مختلفة، وأن أعمل بكفاءة أكثر».

وفيما بعد كتب من سجنه أنه شعر بالسعادة في ليليسليف لأن «المكان كله ذكرني بأسعد أيام حياتي، أيام الطفولة». استخدمت ليليسليف مخبأ لأعضاء الحزب الشيوعي بالإضافة لمانديلا، برغم أنه هو وعائلة غولدريتش كانوا يعيشون هناك فعلاً. حيث شغل غرفة صغيرة في البناء الخارجي، وكان يعرف باسم دافيد موتساماي David Motsa-mayi. وقال للمحكمة فيما بعد: «إن المزرعة لم تكن مقر القيادة الفعلي (لسهم الأمة) ولا للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكن راستي بيرنشتاين، الذي كان يأتي زائراً، خشي أن المكان بدا وكأنه يتحول إلى مقر قيادة شبه رسمي لسهم الأمة. من ليليسليف كان منديلا يخرج أحياناً متنكراً في الأمسيات ليلتقي بقادة المؤتمر الوطني الإفريقي وسواهم. كان أحياناً يلبس ثوب ميكانيكي، وأحياناً بدل حارس ليلي بمعطف رمادي طويل، ومرة تنكر بزي كاهن يقود جنازة كاذبة من الناشطين المتنكرين. كان يستمتع بالإحساس المسرحي: ففي تشرين الأول (أكتوبر) اجتمعت مجموعة من الناشطين الهنود في منزل فورد سبورغ ودخل رجل يلبس ثياباً قذرة لمحطة خدمة كالكتس، ولم يعرفوا أنه مانديلا قبل أن يقول: «اجلسوا يا رفاق»، وكان أحمد كاثرادا واحداً من مجموعة صغيرة كلفت بالتأكد من أن مانديلا يبدو/ رجلاً جديداً/. وأقنعوه بالتخلي عن ثيابه

الأنيقة، لكنه بقي محتفظاً بغروره، ولم يستطيعوا إقناعه بحلق لحيته التي أصبحت جزءاً من نمطه الثوري».

ساور القلق كثيراً من أصدقاء مانديلا حيال قلة حذره. وقد كتب بيرنشتاين «ربما كان الرجل الأكثر مطاردة في البلاد في ذلك الوقت، وكان يقدم على مجازفات كبيرة. لكن ذاك كان أسلوبه. كان شخصاً يقود من الجبهة. ولم يطلب يوماً من أحد مخاطرة لم يكن هو مستعداً للقيام بها بنفسه». وقلق بيرنشتاين بسبب توسع دائرة الأعوان والسائقين والزوار الذين يعرفون بمخبأ مانديلا في ليليسليف، وأن مسئولية الأمن كانت مقتسمة بشكل خطر بين الحزب الشيوعي ومانديلا نفسه.

زارت ويني مانديلا عدة مرات في ليليسليف، حيث كانت تحمل إليه الخضار ثم تذهب بعد ذلك لزيارة صديقيهما الهنديين بول وأديلايد جوزيف. قال بول: «كنت أرى السيارة ملطخة بالطين، وكان واضحاً أنها قادمة من منطقة زراعية، وكنا نعرف أن بيتنا خاضع لمراقبة دائمة. كانوا كلهم مهملين إهمالاً مرعباً. لكنها كانت الأيام الأولى للحركة السرية، بكل ما يحيط بها». وفي أحد الايام فوجئ آل جوزيف عندما اصطحبهما وولتر سيسولو بالسيارة إلى غرفة صغيرة في فورد سبورغ، قرب وسط جوهانسبورغ وقال «دخلنا لنجد نيلسون هناك. عانقنا، وتحدث في أمور عائلية، وبعد قليل قال: (أنا سعيد لأني رأيتكما) وذاك كل ما في الأمر».

أيام الاختباء ارتحل منديلا في طول جنوب إفريقية وعرضها، دون قلق يذكر. وقد قاد السيارة مرة إلى دوربان ليقيم عند آل مير، فصدمت

فاطمة إذ تلقت اتصالاً هاتفياً من صديق سألها: «هل وصل نيلسون؟». وعندما أقام لمدة أسبوعين في مزرعة سكر في (تونغات) قرب منزل لوثولي، ادعى بأنه خبير زراعي، إلى أن سأله أحد العمال في المزرعة «ماذا يريد لوثولي؟».

لكنه كان مصمماً على مداومة اتصاله بعامة الناس، الذين تأكد تثبيتهم له. وفي منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) دعيت (ماري بنسون) للقائه خارج جوهانسبورغ. كان يرتدي معطف السائق الأبيض، وقد قام بجولة في ناتال والكيب. وقال لها: «لا يمكنك أن تستوعبي تماماً ما لم تبقي هناك مع الناس». وحدثها مازحاً كيف نجا بجلده مؤخراً، وترنم بذكر الأيام الخوالي، ثم أوصلها بالسيارة إلى منزل أختها، وكان يقود سيارة قديمة غريبة الشكل تبقبق باستمرار حتى تقف.

في الوقت الذي كانت قيادة (إم. كي) تخطط لأعمال التخريب، لم يشعر الإفريقيين البيض بما يوحي بالخطر بعد قمع إضراب الاعتصام في البيوت. وكسب الحزب الوطني الحاكم دعم الناخبين البيض بالوعود التي قدمها حول اتخاذ إجراءات أكثر شدة ضد المحرضين. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1961 حدثت أول نوبة تخريب، عندما قُطع أحد الأبراج الكهربائية وحُرق مكتب حكومي، وتبين أن ذلك كان من فعل اللجنة الوطنية للتحرير، وهي فرع من الحزب الليبرالي الذي تطور فيما بعد إلى حركة المقاومة الإفريقية (ARM). وأعلنت إم. كي عدم مسؤوليتها عن أعمال التخريب هذه، التي اعتبرتها «تميل مزاجياً نحو أعمال الجرأة البطولية» لكنهم، في مجالسهم الخاصة، وافقوا على

تنسيق أعمالهم. ولم تفلح أعمال التخريب سوى في زيادة صمود معظم البيض، وفي الانتخابات التي تلت ذلك حقق الوطنيون أكبر فوز لهم. حيث أعطاهم الناخبون- لأول مرة- أغلبية عظمى واضحة.

وافق يوم 16 كانون الأول (ديسمبر) عيد دينغان في ذكرى المجزرة الأفريقانية للزولو عام 1838 ولكنه أصبح يختزل احتجاجات الإفريقيين. ونفذت (إم. كي) أول أعمال التخريب، بانفجارات في جوهانسبورغ وبورت إليزابيث ودوربان تسببت تلك الأعمال بضجة وحماسة وطنية، على الرغم من أن المخربين لم يكونوا أكفاء تماماً: حيث قتل واحد منهم، وهو بطرس موليف ونسفت ذراع واحد آخر، وحاول جو سلوفو تفجير دريل هول في جوهانسبورغ لكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن اكتشفه سيرجنت في الجيش. لكن مخربي إم. كي نجحوا في الهجوم على مكاتب الحكومة ومحول كهربائي.

في الليلة السابقة كان متطوعو المؤتمر الوطني الإفريقي قد وزعوا منشورات وعلقوا ملصقات تعلن عن تأسيس إم. كي وتشرح الحاجة إلى أساليب جديدة إضافة إلى المنظمات التقليدية وقال مانديلا: «يأتي وقت في حياة أية أمة لا يبقى فيه سوى خيارين: الاستسلام أو القتال». وإن إم. كي أملت أن تعيد الحكومة إلى جادة الصواب «قبل أن تبلغ الأمور مرحلة الحرب الأهلية اليائسة». وبحلول الصباح كانت الشرطة قد مزقت معظم الملصقات ولهذا فإن الرسالة لم تصل إلى سوى عدد قليل من الناس. وفيما بعد كتب أحد المتآمرين قائلاً «خلافاً لنوايانا فإن التخريب لم يخلف سوى موجة صغيرة من القلق لدى الحكومة أو في البلاد عامة». لكن مانديلا ورفاقه كانوا في البداية مبتهجين

إذ اعتقدوا أن الجنوب إفريقيين البيض سيدركون الآن أنهم يجلسون على قمة بركان، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي لديه «سهم ماض يحمل النضال إلى قلب القوة البيضاء». وقد كتب مانديلا فيما بعد من السجن «لقد كنا تياهين بنجاحاتنا الأولى. وحتى أولئك الذين شكوا في البداية في حكمة الخط الجديد انجرفوا أيضاً مع موجة الحماس».

أثبت توقيت الانفجارات أنه محرج بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما اعترف مانديلا، فقبل ستة أيام فقط كان رئيس الحزب ألبرت لوثولي قد منح جائزة نوبل للسلام في أوسلو. لكنهم تأكدوا أن لوثولي قد عاد سالماً إلى الوطن قبل أن يحدث التخريب، ولم يكن المؤتمر الوطني الإفريقي مرتبطاً رسمياً بسهم الأمة (إم. كي) لكن لوثولي بقي قلقاً حيال اتجاه العنف. وكان قد قال لدبلوماسي كندي منذ شهرين: إن الأعضاء الأصغر سناً في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يفكرون بالعنف. إلا أنه رأى أنه محاولة الإطاحة بالحكومة عن طريق القوة (حماقة انتحارية).

أعطت جائزة نوبل التي منحت للوثولي، قبولاً دولياً لنضال المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان مانديلا (غاية في السعادة) عندما سمع بأخبار الجائزة من إذاعة ريفونيه.

لكن وزارة الخارجية البريطانية بقيت حذرة حيال الاتصال بلوثولي. وعندما توقف في لندن في طريقه إلى النرويج رأى أحد المسئولين أن الاجتماع به «سيقابل باستياء شديد من قبل حكومة جنوب إفريقية وأنه لن يقدم ولن يؤخر بالنسبة لدعم قضية الزعيم لوثولي في جنوب

إفريقية».

في الحقيقة لم يكن هناك تناقض ظاهر بين انفجارات إم. كي والضغوط السلمية التي ما زال المؤتمر الوطني الإفريقي يمارسها. وبقيت القيادة العليا إم. كي متفائلة بأن أعمال تخريب متتالية سيكون لها فعل (طلقة عبر الأقواس) لتعيد جنوب إفريقية البيضاء إلى وعيها. لكن بعد الانفجارات الأولى بدأت إم. كي تخفف من أعمال التخريب وتفكر أكثر بحرب العصابات. وقد قال بيرنشتاين، الذي كان معنياً بالأمر: «لم يكن هناك قرار رسمي. وإنما تطورت الأمور تلقائياً من فكرة أن التخريب سيؤدي بطريقة أو بأخرى إلى (مرحلة تالية)». وبدأت القيادة العليا تهيئ لسفر القادة المهمين إلى الخارج للتدرب، يتبعهم المتطوعون الشباب.

كان مانديلا قد أصبح قائداً عاماً لقوة مقاتلة واعدة. وله سلطة ومكانة قائد ثوري يجابه نظاماً عسكرياً لا يحظى بشعبية، في عصر الثورات حيث بدت قوات الاضطهاد في تراجع في كامل إفريقية. لقد ترك جميع أدواره السابقة: من ملاكم، وثري متبطل، ومحام، ورب أسرة- وتقمص دوره الجديد قائداً لحركة فدائية سرية. كان تحولاً مفاجئاً وبلا تحضير، من سياسي متعدد الأوجه إلى جندي ملتزم. لقد كتب لمانديلا أن يكون جندياً هاوياً لم يعمر طويلاً إذا قارناه بالثوريين الصينيين والكوبيين. وبقي قبل كل شيء السياسي الذي رأى الحاجة إلى مؤشرات رمزية تقود شعبه إلى نوع جديد من المواجهة».

الفصل الثاني عشر

# رحلات مانديلا عام 1962 واعتقاله

منذ عام 1962 أصبحت إفريقية السوداء تحتل رقعة أكبر على الخارطة، تعد بتأثير جديد على العالم، ودعم قوي للإخوة الإفريقيين في الجنوب. فمنذ أوائل عام 1962، وبعد أول تفجر لأعمال التخريب، قرر أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي وجوب السعي من أجل الحصول على مساعدة من بقية القارة لتقديم المال والتدريب العسكري، وطلبوا من مانديلا أن يجري اتصالات، وأن يتحدث عن لقاء قمة إفريقي في إثيوبية في شباط (فبراير) ليشرح حملة المؤتمر الوطني الإفريقي. وحتي عمر الثالثة والأربعين، كان لم يسبق لمانديلا السفر خارج جنوب إفريقية، فوافق بحماسة كبيرة، إلا أن رحلته الإفريقية- كما كشف في مذكراته الشخصية- كانت مليئة بالنكسات وكانت أصعب بكثير مما توقع هو وزملاؤه.

كان الوقت غير مناسب للسفر عبر القارة. فالدول المستقلة حديثاً كانت تخرج إلى الوجد بتواتر سريع، وكلها آمال بدور إفريقي موحد في العالم. وكان السادة السابقون الإمبرياليون يعرضون عليها المساعدة والصداقة لإبقائها في الفلك الغربي، فيما كان الاتحاد السوفيتي والصين يتنافسان لإغرائها بالاتجاه نحو الشرق.

وكان الأمريكيون، إبان حكم الرئيس كينيدي، يزدادون اهتماماً، خشية أن تتحول الحرب الباردة في إفريقية إلى حرب عرقية، وأن ترص الدول الإفريقية صفوفها ضد ما أسموه (معقل البيض) -جنوب إفريقية وأنغولا وموزامبيق إفريقية الوسطى- وفي تموز (يوليو) 1962 أُرسل تقرير سري إلى كبار صناع السياسة في إدارية كينيدي، ومن ضمنهم ريتشارد هيلمز في السي آي إيه، يقترح أن يقوم الرئيس بزيارة مبكرة إلى إفريقية، وحذر التقرير من أن معقل البيض «لا يكن الحب للتاريخ والنظرية السياسية الأمريكية»، وأن الكتلة الشيوعية ستواصل الصيد في المياه الإفريقية العكرة «كان الجنوب إفريقيون السود يعتبرون لاعبين مهمين، لكن لا يمكن إدراك كنههم». فقادتهم كانت لهم نزوات مع العنف، وأحياناً مع الشيوعية».

وجد مانديلا رأيه الشخصي بإفريقية يبدو فجأة للعيان قبل أن يغلق تماماً أمامه. وقد ذهب قبل مغادرته إلى ناتال ليرى لوثولي رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي وجد معنوياته عالية. وافق لوثولي على رحلة مانديلا، وطلب أن يستشار في عمليات المؤتمر الوطني الإفريقي. بعد ذلك أمضى مانديلا يومين في جوهانسبورغ، حيث إجتمع بأصدقاء قدامى من ضمنهم وولتر سيسولو ودوما نوكوي. وغضب لأن أحد الزملاء الهنود لم يأت إلى الاجتماع لأنه كان «يَسكر». وفيما بعد في بيتشوانا لاند غضب أكثر عندما اعتقل زميل آخر لأنه كان يقود سيارته في حالة سُكر. وكتب في مذكراته «ذاك عمل يعتبر خيانة وينم عن عدم إحساس

مذهل بالمسؤولية»، لكنه بقي سعيداً بالرحلة.

في 10 كانون الثاني (يناير) 1962 ودع ويني وأخذ بالسير عبر الحدود إلى بيتشوانا لاند (بوتسوانا الآن)، التي كانت وقتها ما تزال محمية بريطانية. وكتب فيما بعد أنه رأى إفريقية بحالتها البرية، رأى لبؤة تعبر الطريق. وفكر أنه بعد غياب جوهانسبورغ أصبح في «مركز كوزموبزليتاني» آخر حيث بقاء الأقوى هو القانون الأعلى وحيث النباتات المتشابكة تخفي جميع أنواع المخاطر».

كانت بيتشوانا لاند كثيراً ما تستخدم طريق نجاة للناشطين السود، الذين بدت السلطات البريطانية متسامحة معهم، وكانوا سعداء بإيواء مانديلا الذي (قيل) «إن شرطة جنوب إفريقية تبحث عنه منذ أشهر». لكن المفوضية العليا كانت تراقبه من كثب. وأخبرت لندن أنه وصل بلدة لوباتسي الحدودية يوم 12 كانون الثاني (يناير)، و«معروف أنه يملك مبالغ تقدر بـ600 جنيه».

وتلقى مانديلا «صدمة حياته» في لوباتسي عندما اكتشف أن ضابط الهجرة كان أيضاً رئيس الأمن. وقد ساوره الشك عندما تعرف عليه الرجل وعرض عليه بيتاً آمناً كي لا تختطفه شرطة جنوب إفريقية، لكنه اطمأن عندما عرف أنه ساعد أوليفر تامبو أيضاً قبل سنتين. وكان هناك سبب يدعو إلى الحذر والاحتراس فقد تلقت المخابرات البريطانية خبر عدة زيارات سرية للفرع الخاص بجنوب إفريقية منذ نيسان (أبريل) 1960، ومن ضمنها بعض «اللاجئين السياسيين» الذين

كانوا في الحقيقة عملاء جنوب إفريقيين. كما جندت الشرطة المحلية كثيراً من الأفريقانيين وتبادلت المعلومات مع الجنوب إفريقيين، حسب ما أفاد (جون لونغريغ) من السفارة البريطانية في بريتورية.

من بيتشوانا لاند وضع مانديلا مع صديقه جو ماتثيوز على متن طائرة مستأجرة أقلتهما إلى دار السلام في تانزانية. كانت المخابرات البريطانية تتبع ماتثيوز الذي صار يعمل من باسوتولاند، وكانوا يعتقدون أنه «ربما كان منظراً شيوعياً يعمل متخفياً وراء المؤتمر الوطني الإفريقي»، لكنهم لم يعلموا مَنْ الذي استأجر الطائرة. وعلى الطريق نجحت الطائرة بصعوبة في تفادي الارتطام بجبل. وتلك الحادثة اختبرت ضبط مانديلا لنفسه إلى أقصى حد، و(ذكر أنها أوقفت جو ماتثيوز عن الكلام).

في دار السلام سلطت الأنوار على مانديلا. دهشت (فريني غينوالا)، ممثلة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي التي كانت تعمل كوكيلة سفر للرفاق الهاربين عندما استقبلته. وكان تامبو قد أخبرها بوصول مانديلا مرتدياً بدلة، وأنه يجب أن يوارى بين التانزانيين. لكنه أتى معتمراً قبعة (باسوتو) وبدلة سفاري صيد وحذاء موسكيتو.

ازدهر مانديلا في تانزانية التي حصلت على استقلالها قبل شهر. وابتهج بأسلوب جوليوس نيريري، كرجل من الشعب، بسيارته الصغيرة وبيته المتواضع، وتفقد ببعض الحس مقر قيادة حزب نيريري، حزب الاتحاد الوطني الإفريقي التانغانياكي، الذي يتألف من ثلاثة طوابق ولديه طاقم من المسئولين المتفرغين. لكنه حزن عندما نصحه نيريري بتأجيل

الكفاح المسلح والتنسيق مع سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام، فرد بأفكار معاكسة لما يعتقده نيريري، بأن الاشتراكية طبيعية في إفريقية. وبوضوح ملفت لم يشارك نيريري الرأي بأن الإفريقيين شعب رعوي متنقل ليس فيه تقسيمات طبقية. وأصر مانديلا على أنه قبل وصول الرجل الأبيض بزمن طويل كان الإفريقيون قد طوروا التعدين وعلم المعادن، الذي قدم فائضاً اجتماعياً ومول صروحاً من النيل إلى زيمبابوي.

من تانزانية طار مانديلا لمدة قصيرة إلى إفريقية الغربية، حيث اجتماع بتامبو، الذي أصبح ملتحياً مرسل الشعر، وكان ينظم مكاتب حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في غانة. ثم طار إلى إثيوبية لحضور مؤتمر الحرية الإفريقي في أديس أبابا. الذي نظمه هيلا سيلاسي، ذلك الحاكم الأسطوري الذي حرك مشاعر مانديلا عندما كان يافعاً في السابعة عشرة إذ سمع لأول مرة كيف وقف صامداً في وجه قوات موسوليني النازية. لم يكن سياسي اشتراكياً ولا ديمقراطياً لكنه كان يحكم الدولة الإفريقية التي كانت دائماً مستقلة، وصار ينصح بشدة ويشجع بدهاء قادة الدول الجديدة الأخرى. كتب مانديلا: «هذا هو البلد الذي كان يحكم من قبل الإفريقيين، على الرغم من أنه لم يكن لديه مؤسسات ديمقراطية وقال مانديلا: كل بنية رأيتها هناك كانت نتيجة مبادرة ومهارات إفريقية». وتأثر مانديلا بألق الملك الصغير في لباسه الشعبي، وهو يستمع بصلابة وينحني للجمهور بإيماءة من رأسه، وقد سره أن يرى خبراء عسكريين يتلقون الأوسمة وينحنون مثل أي شخص آخر.

كان دخول مانديلا إلى المؤتمر مؤثراً، حيث تخلى عن اسمه المستعار (دافيد) وألقى خطاباً أعده بعناية وفق نصيحة تامبو وروبرت ريشا. وصف مانديلا الاضطهاد الوحشي الذي يتعرض له السود في جنوب إفريقية في «أرض تحكم بالبندقية». وشكر الدول الإفريقية الأخرى لاستمرارها بالمقاطعة والعقوبات. لكنه أصر على أن شعبه يجب ألا يبحث عن خلاصه وراء الحدود «لأن نقطة ارتكاز الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية في جنوب إفريقية، موجودة داخل جنوب إفريقية نفسها». وتحدث عن هشاشة الحكومة وتنامي المناهضة فقال «الرأس الذي يلبس التاج لا يعرف النوم المريح». وعن مستقبل حملة التخريب التي بدأت في الشهر السابق. قال مانديلا: «يجب أن تسدد ضربات قاسية وخاطفة بكامل ثقل جماهير الشعب»، إلا أنه لم يتخل كلياً عن اللاعنف في الاحتجاج وقال: «إن أيام العصيان المدني، والاضطرابات والتظاهرات الحاشدة لم تنته، وسنلجأ إليها مرة إثر مرة». وقد قال لجريدة جوهانسبورغ ستار إن الأشهر العشرة الأخيرة من حياة التخفي كانت «الفترة الأكثر إلهاماً في حياتي ففي كل مكان كنت أستمد الإلهام من المشاعر الدافئة.. ومقدار الثقة التي وجدتها بين الجماهير الإفريقية».

كان الخطاب الأكثر أهمية في حياة مانديلا المهنية حتى ذلك الوقت، ولكن لم تنقل منه الصحف في جنوب إفريقية ما يذكر. وفي لندن كتبت الأوبزرفر أنه وجه «تحذيراً خطيراً من أن الوضع في جنوب إفريقية متفجر». وفي مقابلة مع المانشستر غارديان نفى أي ارتباط بسهم الأمة

(إم. كي)، لكنه قال إنه يعتقد أنها رفعت معنويات الشعب، وأعطت قوة لأنواع أخرى من الاحتجاج وقال: «هذه المنظمة تستطيع أن ترد الصاع صاعين انتقاماً للهجمات التي تشنها الحكومة على الناس الأبرياء». والواقع أن حديث مانديلا ضمن بوضوح الارتباط بين المؤتمر الوطني الإفريقي وإم. كي، مثيراً غضب قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في البلاد الذين يريدون أن يبقى الفصل القانوني بين المنظمتين.

كان مانديلا قلقاً حيال التوترات بين القادة الإفريقيين، خاصة العداء تجاه «وفود الإخوة العرب». وكان الإفريقيون في شرق ووسط إفريقية يرفضون إدخال الشمال إفريقيين في منظمتهم «حركة الحرية الإفريقية شرقي ووسط إفريقية بافميكا PAFMECA/ حتى الجزائريين، الذين كانوا يخرجون للتو من حربهم ضد فرنسا. وعندما احتج مانديلا نبح في وجهه أحد الوفود «في شمال إفريقية هناك إفريقيون ليسوا إفريقيين»، فأمر إليه تامبو ملاحظة تقول (اخرس) لكن مانديلا سرعان ما نجح في إدخال الشمال إفريقيين وكسب امتنانهم. كما ساعد في إقامة روابط بين الجنوب إفريقيين السود والشمال، واتسعت حركة الحرية الإفريقية لشرق ووسط إفريقية لتشمل جنوب إفريقية، وغير اسمها إلى (بافميكسا)، وبعد سنة زادت توسعاً لتشمل غرب وشمال إفريقية وتصبح منظمة الوحدة الإفريقية.

كان مانديلا قلقاً بسبب مفهوم الانفصال (اللاوحدة) في جنوب إفريقية السوداء، وحيال تنافس المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر

الإفريقي العام. وقد سبق خطابه أمام المؤتمر متحدث أكثر فصاحة هو (بيتر مولوتسي) من المؤتمر الإفريقي العام، الذي تحدث عن الأبهة التي كانت عليها إفريقية «وعن روعة حضارة (آزانيا) الغابرة، وهو الاسم الذي أعطاه المؤتمر الإفريقي العام لجنوب إفريقية». وفوجئ مانديلا إذ وجد صديقه القديم مايكل سكوت- الذي انضم مرة إلى الجاثمين (احتجاجاً) في سويتو- في المؤتمر، إلى جانب مؤتمر إفريقية العام فيما يبدو، لكنه لم يبد أنه على علاقة جيدة مع وفد المؤتمر الإفريقي العام، لذلك جالسه مانديلا وعرفه على قادة سود. كان المؤتمر الإفريقي العام ينشر قصصاً حقودة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي في الدول الإفريقية، مطلقاً عليه اسم (جيش كزوسا القبلي) وأنه مخترق من قبل الشيوعيين البيض. كان مانديلا يحاول إظهار جبهة موحدة، كما كان يحاول تفادي إثارة عداء المؤتمر الإفريقي العام. وتحدث مع الشاب (فيليب كوسانا) بطل مسيرة كيب تاون للشباب التي نظمها المؤتمر الإفريقي العام عام 1960 «في لقاء مع طلبة الجامعة ولكنه فشل في إقناعه بالانضمام إليه».

سرعان ما تبين لمانديلا أن تحالف المؤتمر الوطني الإفريقي مع البيض والهنود باعد المسافة بينهم وبين القومية السوداء في بقية القارة. كانت نضالية المؤتمر الإفريقي العام قد دخلت لب إفريقية، الأمر الذي لم يستطعه المؤتمر الوطني الإفريقي. ووصلت الأخبار إلى تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ بأن مانديلا يواجه بعض

المصاعب في أديس أبابا. وارتبكوا إذ تبينوا أن المؤتمر الإفريقي العام فاز بدعم خارجي أكبر مما كانوا يظنون. فكتب بيرنشتاين أن «مصداقية المؤتمر الوطني العام في إفريقية لم تكن تتناسب مع أداء قادته السياسي التافه في التداخل وإنما مع خطاباتهم الراديكالية. لقد وقفوا في صف واحد مع الموضوع الإفريقي العام الذي يتعلق بوضع الزنوج وحولوه إلى سلاح ضد برنامج المؤتمر الوطني الإفريقي غير العرقي».

هنا أظهر مانديلا (براغماتيته) وحساسيته السياسية. وفي تقرير مهم للمؤتمر الوطني الإفريقي تحدث عن «الشعور المنتشر المعادي للاستعمار والمعارضة الشديدة لأي شيء يبدو شركة بين الأبيض والأسود». كان الاعتقاد السائد هو أن المؤتمر الوطني الإفريقي «منظمة يهيمن عليها الحزب الشيوعي»، بينما انطلق المؤتمر الإفريقي العام بمزايا هائلة بسبب أيديولوجيته، و«المعارضة التي أحسن استغلالها للبيض والشراكة». خشي مانديلا أن تكون جائزة نوبل التي منحت للوثولي «قد خلفت انطباعاً بأن لوثولي قد تم شراؤه من قبل البيض»، وأن سيرته الذاتية/ التي ساهم في كتابتها الكاهن الأبيض الأب (تشارلز هوبر)، وامتدحها (آلان باتون) أيضاً جعلته يبدو (أضحوكة البيض)، وذكر مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي «قد ساعد في ترسيخ الانطباع بأن النفوذ الأبيض متنام بالتعاون مع البيض في المستوى الأعلى، ولكن ليس بين أوساط العامة». وقال اللوهولي جميع هذه الأشياء جعلت المؤتمر الوطني العام يبدو الأمل الوحيد للشعب الإفريقي، ويجب التذكير

بأن مجرد الادعاء بأنك أضحوكة ديماغوجي كاف لأن يجرد المؤتمر الوطني الإفريقي من مصداقيته. وأن طبيعة الاتهام الذي نوجهه للمؤتمر الإفريقي العام يجعل منهم أبطالاً بشكل أو بآخر. إذ لا يضير أي سياسي إفريقي في إفريقية أن يقال «إنه عنصري أو معاد للبيض». لم يكن مانديلا يطالب بالعودة إلى المجد الإفريقي الأسود السابق، وإنما بنوع جديد من المجتمع المتعدد الأعراق لا مثيل له في إفريقية كلها. ولأول مرة كان يواجه القوة الكاملة للقومية الإفريقية والعداء للشيوعية.

حرص مانديلا في بقية جولته على الحديث عن منجزات المؤتمر الإفريقي العام وسياساته بالإضافة إلى منجزات وسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، كي لا يفاجأ الإفريقيون عندما يلتقون بالمؤتمر الإفريقي العام فيما بعد. حتى أن وزير الدفاع التونسي تذمر وقال لمانديلا «إذا كان كل ما تقوله عن سوبوكوي حقيقياً، ماذا تفعل أنت هنا إذاً؟». كان مانديلا يلاقي صعوبة دائماً في تبرير أفعال الإفريقيين المعتادين على نضال مباشر ضد الإمبريالية البيضاء. واعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بطيئاً جداً في مجابهة الدعاية المعادية للشيوعية التي يشنها المؤتمر الإفريقي العام وقال «لقد كان شبابنا معتدلين بعض الشيء في مهاجمتهم.. إن أمامنا كثيراً من العمل هناك كثيرون يقولون إنهم نشطاء لكنهم المنظمة الوحيدة في جنوب إفريقية هي التي تواكب بقية إفريقية».

أكدت بقية جولة مانديلا الإفريقية شكوكه وقلقه. ففي القاهرة

تذمر رسميون مصريون من أن صحيفة نيو أيدج الأسبوعية اليسارية التي تصدر في جوهانسبورغ انتقدت الرئيس عبد الناصر لمهاجمته الشيوعيين. أكد لهم مانديلا أن صحيفة النيو أيدج لا تمثل بالضرورة سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي ووعد بأن يعالج الموضوع لدى عودته. وتابع طيرانه إلى تونس حيث عرض عليه الرئيس بورقيبة التدريب و5000 جنيه إسترليني ثمن أسلحة. ثم انطلق إلى المغرب، مركز حركات التحرير الإفريقية، بما فيها الموزامبيقية والأنغولية، وقبل هذا وذاك الجزائرية.

في وحدة قرب الحدود الجزائرية راقب مانديلا الفدائيين يقومون بعرض احتفالاً بعودة قائدهم أحمد بن بيلا، الذي أطلق من سجنه وسرعان ما أصبح أول رئيس للجزائر المستقلة. وشرح ابن بيلا، بخطاب قصير، أن حرية الجزائريين لا معنى لها طالما أن إفريقية ما زالت بين براثن الإمبريالية. دهش مانديلا باحتشاد الجماهير، وكتب في مذكراته أنها «حماسة محيرة، ومع ابن بيلا راقب جيشاً في أتون المعركة الحقيقية»، أثر فيه أكثر من أي عرض عسكري في إثيوبية. وكتب من السجن بعد أربعة عشر عاماً «شعرت بالثقة وقتها، كما أشعر الآن، بأن وحداتنا، التي تعمل من أرض صديقة، بمجرد أن تطأ أقدامها ترابنا، فإنها ستزداد علماً وستنمو قوتها الضاربة بسرعة.

من المغرب قام مانديلا بزيارات طائرة إلى الدول السوداء الجديدة في إفريقية الغربية. وفي مالي حذره وزير الدفاع ماديبرا كيتا من

مغبة «عمل عاجل قد يكون وقعه كارثياً». وأضاع فرصة رؤية الرئيس السينيغالي سيكوتوري لكنه لم يجتمع بالسير ميلتون مارغاس رئيس وزراء سيراليون ورئيس ليبريا توبمان وكانت الزيارة الأكثر إحباطاً هي عودته إلى غانة، حيث اجتمع ثانية بتامير وحاول رؤية الرئيس كوامي نيكروما آملاً أن يتمكن من مجابهة القبضة القوية للمؤتمر الإفريقي العام. وقد لقي وتامبو تشجيعاً من بعض الوزراء، إلا أن وزير الخارجية (آكو آجي) أسمعهما محاضرة حول كون المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة قبلية، وقال إنهما لن يتمكنا من مقابلة الرئيس. أدرك مانديلا أن نيكروما لم يقل له الحقيقة حول المؤتمر الوطني الإفريقي، واضطر إلى الاكتفاء بتسليم مذكرة. حتى أن الغانيين لم يدفعوا حسابه في الفندق. لكنه حظي بوقت للاسترخاء وأمضى عدة أمسيات بصحبة هيلاري فيلغ التي أدارت صندوق الدفاع في قضية الخيانة في جوهانسبورغ.

من غانة استقل مانديلا الطائرة إلى لندن في زيارة لمدة عشرة أيام. كان لديه إذن بالسفر من طانجانيكا لكنه أمضى وقتاً عصيباً مع ضابط الهجرة الذي سأله عن الغرض من زيارته. قال مانديلا إنه يؤلف كتاباً عن تطور الفكر السياسي في إفريقية وأراد زيارة المتاحف والمكتبات. وسرعان ما أدرك أن معلومات الضابط كانت أكثر دقة وأنه على دراية بارتباطه بتامبو (الذي كان يقف في نسق آخر) لكنه في النهاية سمح له بالدخول.

في لندن لم يحاول مانديلا أن يرى أحداً من أعضاء حكومة ماكميلان، وقال فيما بعد: «كنت ثورياً فجاً». كان هدفه الأول هو مزيد من الحديث

مع تامبو الذي كتبت زوجه أديلايد لمانديلا تحذره من أن مرض الربو يزداد سوءاً على تامبو بسبب ضغط العمل. وقد منعه من الذهاب إلى الأمم المتحدة في نيويورك. كان تامبو قد عومل بجفاء من قبل وزارة الخارجية في لندن. التي كانت قلقة حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالشيوعية، وكانت الوزارة تولي مزيداً من الاهتمام للمؤتمر الإفريقي العام. وفيما بعد رد المؤتمر الوطني الإفريقي بإرسال روبرت ريشا المتحمس في صوفيا تاون الذي قال سيسولو إنه «يتحدث لغة المؤتمر الإفريقي العام».

استمد تامبو شجاعة كبيرة من حماسة مانديلا والتزامه التام بالنضال. تذكر أديلايد تامبو أنه «مهما كانت الحالة خطيرة فإنه كان دائماً في مستوى المسؤولية، كما لو أنه كان يعرف أن عليه إبقاء الروح المعنوية للشعب عالية».

كما تابع مانديلا اتصالاته البريطانية فقد أقامت ماري بنسون حفلة عشاء لتامبو في شقتها الصغيرة في سانت جون وود. لكنها دهشت عندما رأته يدخل بصحبة مانديلا، مرتدياً بزة نظيفة، وراح يجوب ألواح الأرضية التي تصر لوقع خطواته جيئة وذهاباً وهو يتحدث بحماسة حتى الواحدة والنصف صباحاً عن الإحساس بالحرية خلال جولته الإفريقية.

ورتبت له لقاء مع دينيس هيلي السياسي العمالي الذي كان صديقاً لها من أيام الجيش في مصر الذي وجده مانديلا مفيداً جداً. يذكر مانديلا عنه: «حدثني أنه اشتهر في الجامعة بأنه كان ماركسياً، لذلك

فهو لا يخاف أن يتحدث معي.

رتب تامبو لزيارة دافيد أستور، رئيس تحرير الأوبزرفر، الذي كان معه مايكل سكوت وكولين ليغوم الخبير في الشؤون الإفريقية لدى الصحيفة. دخل مانديلا الغرفة يتحدث بصوت عال ومشرق وقال: «أتيت لأشكركم لكل ما فعلت صحيفتكم من أجل شعبنا» برغم أنه في الحقيقة كان قلقاً بشأن الأخبار الموالية التي تنشرها الأوبزرفر عن المؤتمر الإفريقي العام. وكتب مانديلا فيما بعد في مذكراته: «كانت المناقشات ودية جداً وكل يدلي بملاحظات ملهمة وتدعو إلى الاعتزاز». صدم أستور بحضور مانديلا الهائل وثقته في تمثيل شعبه، ورتب له لقاء مع قائدي العمال والليبراليين هيو غيت سكيل وجو غريموند الذي كان واضحاً أنه لم يسمع به من قبل نصحه آستور أن يقيم في واشنطن بدل أن يعود إلى جنوب إفريقية ويعتقل. لكن مانديلا أصر على البقاء قرب شعبه.

أتيح لمانديلا في لندن بعض الوقت للفسحة والاسترخاء: فاصطحبته ماري بنسون إلى مجلس النواب وإلى ويستمينستر آبي. حيث التقطت له بضع صور- برفقة فريدا ليفسون (التي تولت صندوق الدفاع في قضية الخيانة لبعض الوقت) وزوجها ليون، الذي تناول معه طعام الغداء في تشيلسي. وقام بزيارة مفاجئة لصديقه الأولاندي القديم تود ماتشيكيزا، مؤلف كينغ كونغ، الذي كان يعيش في المنفى في شقة صغيرة في بريمروزهيل مع زوجته أسماء وعندما وصل تامبو، مصطحباً مانديلا، كان مانديلا بادي الارتياح بينما ظهر تامبو متوتراً. تذكر ذلك أسماء

التي قالت: «لن أنسى أبداً منظره تلك الليلة. شعرت فعلاً أنه ملهم روحاني، لا يمت إلى عالم المادة بصلة. وبنظرة الواسع العظيم لم ير حتى السرير المجعد».

وصف كيف أن شرطة جنوب إفريقية مصممة على الإمساك به. فسألته أسماء: «لماذا تعود إذاً؟ يجب أن تبقى هنا». فأجاب: «القائد يبقى مع شعبه». في وجه جميع الأخطار، كان مصمماً على تحدي العدو في الداخل، بالرغم من احتمال اعتقاله. كان يبدو مستعداً للشهادة.

في لندن بدا مانديلا سيد نفسه، كان بالغ الثقة بسلطته الشخصية، ومصمماً على دفع المؤتمر الوطني الإفريقي نحو موقع إفريقي أكثر. كان اللقاء الأكثر إيلاماً مع يوسف دادود، صديقه الشيوعي القديم الذي صار يعمل في لندن. رآه الاقتصادي فيلا بيلاي الذي أصبح صلة الوصل بين الشيوعيين داخل جنوب إفريقية وخارجها. وكان مانديلا وتامبو قد سمعا تذمراً في طول إفريقية وعرضها من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يبد إفريقياً عندما مثله في الخارج شيوعيون بيض أو هنود. وقال مانديلا لدادو وبيلاي إن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر نفسه كقوة مستقلة، وأن لا يمثل في المؤتمرات الدولية، إلا من قبل إفريقيين. يذكر بيلاي قائلاً: «كان الوضع صعباً جداً، ومتوتراً جداً، فقد كان مانديلا صلباً، ولم يبد عليه أن يصغي إلينا. وقد أصبحت خطاباته في إفريقية أقرب إلى لهجة المؤتمر الإفريقي العام، لكن ربما كانت تلك مرحلة ضرورية». احتج دادو بأن مانديلا كان يغير سياسة المؤتمر

الوطني الإفريقي، لكن مانديلا أصر على أن التغيير في الصورة فقط. «وأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر إفريقياً حقيقياً. لقد ضاع بين منظمات ضبابية تمثل الجميع».

وعاد مانديلا إلى إثيوبية في حزيران (يونيو) في مهمة أكثر تنظيماً وهي البدء بدورة تدريب عسكري مدتها ستة أشهر لتحضيره ليكون قائداً لسهم الأمة (إم. كي).

وعلى تل خارج أديس أباب أمسك لأول مرة في حياته ببندقية أوتوماتيكية ومسدس. وفي 29 حزيران (يونيو) سجل في مذكراته: «الدرس الأول في التدمير (القنابل المدمرة). أطلق مدفعية الهاون، وصنع قنابل، وذهب في مسيرات متعبة عبر غابات، وتعلم قتال العصابات مستمتعاً بالتحدي الجسمي والانضباط العسكري. وباسترجاع ذكرى تلك الأيام تبدو محاولة التحول المفاجئ إلى قائد حرب عصابات (رومانتيكية) ولا علاقة لها بالواقع في مواجهة جيش جنوب إفريقية الحديث الجيد التنظيم. ولكنه كان منسجماً مع الجو الثوري المندفع الذي ساد إفريقية أوائل عقد الستين.

في جنوب إفريقية أصبحت الحكومة أكثر تصميماً على قمع المعارضة السوداء، وتتبع مانديلا. وتذمرت ويني من أن الشرطة، فتشت بيتها، كل يوم تقريباً خلال الأسابيع الثلاثة من شهر حزيران (يونيو)، كانت الشركة تسألها: أين مانديلا. وفي تموز (يوليو) أقر البرلمان مشروع قانون التخريب، الذي سمح للمحاكم بإنزال عقوبة الإعدام بالمخربين

لأعمال تخريب صغيرة. كانت الشرطة تزداد كفاءة، ولم تعد تضيع وقتاً طويلاً في غارات المشروب أو الأذونات. وقد قال سيسولو أوائل تموز (يوليو) «إن الناس يواجهون ترسانة عسكرية محكمة. ويجب أن يحضروا أنفسهم للدفاع عن النفس. والحديث عن اللاعنف لم يعد يليق بهذا الزمن» كان المؤتمر الإفريقي العام يعد بثورة مبكرة، مع حملة رئيسية في العام التالي، وقال نائب رئيسهم زيف موثوبينغ في سويتو: «لقد قلنا للناس أن يتوقعوا التحرك عام 1960، ووفينا بوعدنا، كانت القيادة العليا لـ إم. كي تتحرق شوقاً أيضاً إلى عمل أكثر جرأة، ومن مخبئهم في ريفونيه كانوا يدفعون خططاً أكثر طموحاً. كانوا بحاجة ماسة إلى عودة مانديلا إلى جنوب إفريقية، ومنتصف تموز (يوليو) تسلم مانديلا برقية تطلب منه العودة فوراً لتولي القيادة.

غادر مانديلا إثيوبية يحمل هدية هي مسدس حديث ومائتي طلقة، وعاد بالطائرة عن طريق الخرطوم ودار السلام، وقد امتلأ حماسة إذ وجد عشرين مجنداً في سهم الأمة إم. كي على الطريق من جنوب إفريقية إلى إثيوبية. للتدريب. وعندما وصل إلى ببيتشوانا لاند حذره القاضي البريطاني من أن الشرطة الجنوب إفريقية تعرف بعودته الوشيكة. وكان كاثرادا وسيسولو هناك قبل أسبوعين لاتخاذ الترتيبات، واستقبله سيسيل وليامز، وهو شيوعي أبيض مدير مسرحي أتى بسيارته الأوستين ديستمينيستر الجديدة من جوهانسبورغ ليصطحبه. وانطلقا ليلاً عبر الحدود المفتوحة، ومانديلا كان ما زال في لباسه (الكاكي)

الذي كان يلبسه في أثناء التدريب في إثيوبية. ووصلا مزرعة ليليسليف في ريفونيه فجر 24 تموز (يوليو)، حيث أقام مانديلا في البيت المسقوف بالقش.

في اليوم التالي أتتويني والأولاد لرؤيته في اجتماع وجيز. وغادرت تتنازعها هواجس الشر، في ذلك المساء وصلت معظم اللجنة العاملة في المؤتمر الوطني الإفريقي إلى ليليسليف، وبينهم سيسولو وكوتان ومبيكي وماركس ونوكوي ودان ثلوم، وهو ناشط آخر في المؤتمر الوطني الإفريقي، لمناقشة حاسمة حول (الاستراتيجية). وتحدث مانديلا عن الدعم المالي والعسكري الذي قدمه له القادة الإفريقيون، ووصف مخاوفهم حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالهنود والبيض. ونادى بإعادة تنظيم تحالف الكونغرس بشكل يعطي المؤتمر الوطني الإفريقي قيادة أوضح، كما اتفق هو وتامبو في لندن. ووافق سيسولو على أن (تكتيكهم) يجب أن يعدل، لكنه حذر وقال: «يجب ألا ننسى حساسية الجماعات الأقلية الأخرى». فأجاب نوكوي متحمساً: «نحن أسرى خطايانا. لقد سمحنا لأنفسنا بالانجراف. أعتقد أن التعاون قد مضى شوطاً أطول من اللازم». قال مانديلا: «إن ما ينقصنا هو المبادرة. يجب أن نغير مواقفنا ونجهد أنفسنا. يجب أن يفهم أصدقاؤنا أن المؤتمر الوطني الإفريقي هو ربان النضال».

أراد مانديلا الذهاب فوراً إلى ناتال ليحدث لوثولي بالمشكلة، خاصة وأن المؤتمر الإفريقي العام كان ينشر شائعات بأن مانديلا قد اصبح من

أنصار إفريقية، وأنه انضم إلى المؤتمر الإفريقي العام. اقترح كاثرادا ومبيكي تأجيل الزيارة إلى أن يتأكدوا أن الدرب آمن، لكن الاقتراح رفض. وهكذا في الليلة التالية غادر مانديلا ليليسليف إلى دوربان مع سيسيل ويليامز، متنكراً بزي سائق ويليامز وكانا- باستهتار- يستخدمان السيارة الجديدة الرائعة نفسها التي لاقاه ويليامز بها في بيتشوانا لاند، وكان مانديلا يحمل مسدسه.

في دوربان رأى إسماعيل وفاطمة مير، والتقى مونتي نيكر من الكونغرس الهندي. وحاول إقناعهم بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتحرك إلى المقدمة، وذكر لفاطمة كيف أن أحد القادة الإفريقيين، عندما سمع أن ميثاق الحرية كتبه أناس بيض، مزقه من على الجدار. لكن الهنود لم يقتنعوا. بعد ذلك قاد السيارة إلى غروتفيل ليطرح القضية أم لوثولي. اعترض رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي على إضعاف الجبهة غير العرقية للمنظمة بناء على طلب قادة أجانب. وقال مانديلا إن الوضع خطير. وإن عليهم أن يتأكدوا من أن الدول السوداء لم تحول دعمها للمؤتمر الإفريقي العام. لكن لوثولي أراد أن يناقش الأمر باستفاضة أكثر مع الأصدقاء.

عند ذلك رتب مانديلا لمقابلة مخربي سهم الأمة (إم. كي) من القيادة الإقليمية في منزل آمن في دوربان. بدا مانديلا مؤثراً في أسلوبه العسكري الجديد، بلحية وقميص وبنطال (كاكيين)، وحياهم بالطريقة العربية «سلام» اعتقد روني كاسريلز، وهو أحد المخربين بأنه قائد

بكل معنى الكلمة لكنه متوتر جداً ومتجهم: لم يبتسم أبداً. بينما تأثر بيلي نير، وهو من المجموعة أيضاً كثيراً بسلطة مانديلا على المسائل العسكرية وقال: «كان مبهجاً ذا خبرة رائعة». وحتى برونو متولو، قال: «لم يكن بحاجة إلى التباهي ليثبت أنه قائد. كان ذلك واضحاً للجميع. كان صادقاً في كل ما يجب عمله، وطلب أن ينفذ بطريقة بسيطة». وفي وقت متأخر من المساء انضم مانديلا، بلا تبصر، إلى جماعة كبيرة في بيت جي. آر نايدو G.R. Naidoo المصور الصحفي المضياف من صحيفة درام، وكان في الجمع الكثير من الضيوف غير المألوفين. لم يبد الاكتراث على مانديلا، الذي كان يرتدي (الكاكي)، لكن أصدقاءه شعروا بالقلق. كان يبدو كأنه يطلب أن يعتقل.

بعد ظهر اليوم التالي، الأحد 5 آب (أغسطس) انطلق مانديلا برداء السائق الأبيض عائداً إلى جوهانسبورغ مع سيسيل ويليامز، وكانا يناقشان التخريب على الطريق. وبمجرد عبورهم هوويك Howick وراء بيتر ماريتزبورغ أدركتهما سيارة شرطة، مع سيارتين أخريين خلفها، وأشارت إليهما بالتوقف. سارع مانديلا إلى إخفاء مسدسه ودفتر ملاحظاته بين المقعدين الأماميين. واستجوبه سيرجنت في الشرطة كان يعرف تماماً محدثه. فكر مانديلا لحظة بالقفز وراء السد ومحاولة الهرب، ولكنه لم يكن يعرف المنطقة. اقتادته الشرطة هو وويليامز إلى بيتر مارتيزبورغ وسجنهما كل في زنزانة منفصلة. عرف مانديلا أن هذا آخر عهده بالعمل السري، بعد سبعة عشر شهراً فقط من خطابه

الأوجي في البلدة نفسها وبعد ثلاثين سنة عاد، كرئيس، ليتلقى/ في حرية هوويك/، وقال إن زيارة الموضع الذي اعتقل فيه جعلته يشعر بالشوق للحصول على/ الحرية/).

من الذي أدلى بالمعلومات للشرطة؟ السؤال ما زال مطروحاً. فالشرطة، بعد تعتيم يومين على خبر القبض على مانديلا نشرت معلومات مضللة عن الضربة الموفقة. وفي 8 آب (أغسطس) وصفت الراد ديلي ميل كيف أطبقت دورية على منزل كان مانديلا يختبئ فيه. وبعد أربعة أيام كتبت الجوهانسبورغ صنداي تايمز: «وقع مانديلا ضحية الخيانة. وأصابع الاتهام تشير إلى الحمر».

ونشرت الصحيفة «رواية مشوقة تزخر بالتآمر والخيانة». استتشم جو سلوفو «رائحة يهوذا بين صفوفنا لم نتمكن من تحديد هويته»، لكن كان هناك أيضاً متهمون أجانب.

وبعد أربع وعشرين سنة نشرت النيويورك تايمز خبرا مفاده أن عميلاً متقاعداً تفاخر بأن السي آي إيه زودت مخابرات جنوب إفريقية بالتفاصيل الكاملة لتحركات مانديلا. وهذا قابل للتصديق: فالأمريكيون بحاجة إلى عون بريتورية العسكري، كما هم بحاجة إلى اليوارنيوم الموجود في جنوب إفريقية، ويمكنهم أن يقدموا معلومات موثوقة بالمقابل. لكن الادعاء لا يمكن إثباته. ربما أن الجنوب إفريقيين تتبعوا مانديلا من خلال موظفين أفارقة في شرطة بيتشوانا لاند. وربما رأوا سيارة سيسيل ويليامز الرائعة عندما التقطته في بيتشوان لاند، وعندما

ذهبت إلى ريفونية ودوريان. بغض النظر عمن أدلى بالمعلومات فإن مانديلا لم يتوخ الحذر في دوريان، وقد ترك وراءه آثاراً كثيرة تدل عليه. ولم يظهر مانديلا أي اهتمام بمعرفة المجرم فيما بعد: «لم أر أي دليل موثوق يشير إلى الحقيقة».

بعد فترة بسيطة من الإنكار واجه مانديلا ورطته ببسالة. فقد اقتيد إلى جوهانسبورغ واحتجز في مخفر للشرطة. كان سيسولو في زنزانة أخرى، وحدثه عن اعتقاله. في اليوم التالي مثل أمام محكمة القضاة، حيث شجعه أن يلاحظ الاستياء البادي على القاضي والمحامين. قال وولف كوديش، الذي كان حاضراً يراقب: «حدق مانديلا في القاضي الذي كان مثبتاً مثل نمس ينظر إلى ثعبان. ولم يتمكن القاضي من استعادة قوته قبل مرور دقيقتين».

كانت لحظة حقيقة بالنسبة لمانديلا، الذي شعر أنه يكتسب قوة معنوية جديدة «كنت رمز العدالة في محكمة الطاغية، ممثل المثل العليا في الحرية والقانون والديمقراطية في مجتمع يهين تلك القيم». ولاستغلال سلطته لأقصى حد ممكن قرر الدفاع عن نفسه، معتمداً على جو سلوفو كمستشار قانوني. وقد اتهم رسمياً بالتحريض على الإضراب وبمغادرة البلاد بلا جواز سفر، وأراحه أنه لم يتهم بالتخريب. وأجلت جلسة الاستماع إلى تشرين الأول (أكتوبر) بانتظار المحاكمة في الحصن، حافظ مانديلا على تفاؤل باد وطلب من رجل الدين آرثر بلا كسال الذي زاره ثلاث مرات، أن يحضر له بعض كتب القواعد

الأفريقانية، وكان يبدي تقديراً لبلاكسال إذ يختتم زياراته بصلاة.

وعندما سمع أن صديقته الإنكليزية القديمة هيلين جوزيف قد وضعت تحت الإقامة الجبرية في منزلها -وهي الشخص الأول الذي واجه هذه المحنة المريكة- كتب إليها يشجب «النظام القاسي الجبان» لكنه كان واثقاً بأن شجاعتها لن تخونها، بما أن «جميع الدلائل تشير حتماً إلى قرب هزيمة جميع الأنظمة التي تعتمد على القوة والعنف».

بانتظار المحاكمة سمح لمانديلا بكتابة رسائل وقراءة كتب، وكان قد بدأ برنامجاً تعليمياً سيتابعه ويوقفه على مدى العقود الثلاثة التالية. وبمساعدة كتب زوده بها دافيد آستور بدأ يدرس بالمراسلة للحصول على شهادة/ بكالوريوس في الحقوق/ LLB من جامعة لندن، التي ستمكنه من ممارسة المهنة كمحام في المحاكم العليا. كما تمكن آستور من إرسال كتب سياسية إليه بواسطة السفير البريطاني سير جون مود، وأكد لمفوض السجون فيكتور فيرستر Victor Verster أن الكتب ليست مؤيدة للشيوعية: «وستملأ عقل مانديلا ببديل غربي». وكان بين الكتب الستة الأولى تاريخ إفريقية الوجيز تأليف رولاند أوليفر وجي دي. فيدج وكتاب تاريخ أوروبا وكتاب التركيب البنيوي لبريطانية تأليف أنطوني سامبسون. كتب مانديلا كتابة ودودة جداً للسير جون مود وكان ذلك أول اتصال له مع دبلوماسي بريطاني، شاكراً الصديق المجهول للهدية القيمة.

وفيما بعد كتب اللورد دانروسيل زميل مود، الذي كان دائماً محترساً من المؤتمر الوطني الإفريقي، إلى وزارة الخارجية البريطانية قائلاً:

«في المدى البعيد ربما نحصل على بعض النية الطيبة من مانديلا لأننا ساعدناه».

لم يكن أعتقال مانديلا مفاجأة للمؤتمر الوطني الإفريقي حتى إنه هو نفسه كان يتوقع ذلك منذ عودته من الخارج. لكن السرعة التي تم بها الاعتقال كان لها فعل الصدمة. وقد كتبت ويني لصديقتها أديلايد تامبو في لندن في أيلولو (سبتمبر): «كان هذه ضربة قاصمة توقيتها خاطئ. كنا نعرف أن هذه الضربة قادمة ولكنها أتت مبكرة قليلاً».

وقد استمدت ويني الشجاعة من الدعم الذي لقيه مانديلا في لندن «كل يوم نبحث بشوق في صحفنا لنرى ما الذي ستفعله بعد ذلك». وأدركت أن نيلسون سيمضي بعض السنوات في السجن، وقد حثها برام فيشر وآخرون على مغادرة البلاد للدراسة في الخارج، الأمر الذي كانت تقاومه. كان القلق يساور بعض أصدقاء ويني حيال بعض صداقاتها غير الحميدة، وأرادوا إبعادها عن الطريق.

وفي الوقت الذي كان مانديلا في /الحصن/ وزع المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يعمل في الخفاء منشورات تقول: «مانديلا في السجن، والشعب مربط بالسلاسل». وتنادي باجتماع جماهيري قبل أن يقدم للمحاكمة. أظهرت المنشورات مانديلا بصورته الجديدة كخارج على القانون لا يعرف المساومة، والمحارب المتفرد الذي يرمز إلى وحدة الشعب: «نيلسون روليهاهلا مانديلا هو القائد المقاتل السري للنضال من أجل الحرية. إنه يشق طريق الحرية بالتضحية والإقدام والشجاعة.

أساليب النضال السياسي الجديدة». وحيته صحيفة إفريكان كوميونيست/ الشيوعي الإفريقي/ في تشرين الأول (أكتوبر) 1962 قائلة:

ظهر في جنوب إفريقية قائد من نوع جديد القائد الذي رفض الاستسلام بخنوع لإرهاب فيروورد، أو الخضوع للاعتقال أو الهرب من البلاد، واختار حياة الخارج على القانون، عاش النضال. وطورد وعمل في الخفاء وبرغم ذلك بقي مع شعبه. إن بروز مانديلا في موقع الصدارة في جنوب إفريقية كان عن طريق الكفاح الموحد للشعب ووحدة جميع الإفريقيين، ووحدة جميع الجماعات الوطنية، ووحدة الشيوعيين وغير الشيوعيين في القتال من أجل الحرية. لقد عاش حياته في ذلك الجو.

ابتكر جو سلوفو وزملاء آخرون خطتين مختلفتين لإخراج مانديلا من /الحصن/: الأولى تقضي بالهرب من قاعة المحكمة بمفتاح منسوخ، متنكراً بشعر مستعار ولحية كاذبة، الخطة الثانية قضت رشوة الكولونيل المسؤول في السجن، الذي عرض السماح له بالهروب مقابل 6.000 جنيه. ولكن عندما حان وقت مثول مانديلا أمام المحكمة نقلت المحاكمة إلى بريتورية، مما أبطل الخطتين.

وفي سجن بريتورية التقى مانديلا ثانية وبشكل خاطف بسيسولو الذي حكم عليه بست سنوات في السجن لتحريضه على إضراب. وبدعم من مانديلا طلب الإفراج عنه بكفالة فيما هو ينتظر الاستئناف، ثم زاد الكفالة فجأة زيادة كبيرة كي يتابع التخطيط للتخريب. أما مانديلا نفسه فلم يطلب الكفالة: كانت سياسته أن يجسد التحدي.

كان آلان يلعب دوراً أكثر توهجاً، جاعلاً من محكمة القضاء الأعلى مسرحاً له. وأتى إلى افتتاح محاكمته يوم 22 تشرين الأول (أكتوبر) 1962 يرتدي (كاروس زوسي) من جلد النمر، «أحمل على ظهري تاريخ وثقافة وتراث شعبي». بدأ بقمة التحدي قائلاً إنه سيقوم بالدفاع عن نفسه، وطلب إزاحة القاضي بسبب استحالة المحاكمة العادلة: كان يواجه قاضياً أبيض محاطاً بمدع عام أبيض، وأتباع من البيض بيض. لم يحاول مناقشة الدليل الذي قدمه حوالي مئة من الشهود الذين شهدوا على تحريضه وعلى مغادرته البلاد بلا جواز سفر.

وقد لاحظ اللورد دانروسيل الذي كان يشهد المحاكمة لصالح السفارة البريطانية، أن مانديلا كان «خارج ممارسة مهنة المحاماة بشكل لا لبس فيه». وأحياناً كان يحتاج مساعدة المدعي العام في استجوابه. ولكن عندما شهد سكرتير فيروورد السيد بارنارد عن رسالة مانديلا إلى رئيس الوزراء قبل ثمانية عشر شهراً يطالب فيها بميثاق وطني، استجوبه مانديلا بحماسة، قائلاً: «إن من غير اللائق ألا يجيب فيروورد عن رسالة تطرح مواضيع بتلك الأهمية». قال برنارد: «إن رسالة مانديلا كانت عدائية وفظة، ولم تكن صياغتها تطلب تعاون فيروورد الودي». أنكر مانديلا ذلك، ولكن بعد أربعة عشر عاماً في السجن كتب: «ربما كان في ادعائه بعض الحق».

وعندما انتهى مانديلا من نقاشه، اقترب منه المدعي العام السيد بوش وقال له على انفراد «لأول مرة في حياتي العملية أكره ما أنا فاعل.

ويؤلمني أن علي أن أطلب من المحكمة إيداعك السجن».

شد مانديلا على يده، وأكد له أن سيتذكر كلماته دائماً. ولكنه كان يخفي مفاجأة! فقد قال للقاضي إنه سيطلب العدد نفسه من الشهود الذي يطلبه الادعاء، لكنه في الحقيقة لم يحضر أي شاهد لمعرفته بأنه مذنب في القضية المنسوبة إليه. وبدل الشهود حضر طلباً فصيحاً لتخفيف الحكم. كان في الحقيقة خطاباً سياسياً دام ساعة كاملة.

ذلك الصباح كانت قاعة المحكمة مطوقة بالشرطة، ومحشوة بالإفريقيين بينهم ويني ترتدي ثوباً قبلياً على طراز بوندو. دخل مانديلا القاعة رافعاً قبضته. وهو يصيح /أماندلا!/ فقويلت صيحته برد عال /نغاويثو!/ كان خطابه تبريراً شخصياً لتحديه القانون، مبتدئاً بتطوره السياسي الخاص. بدأ بوصف الحياة البيتية الهادئة في مجتمع القبيلة التي سمع عنها كثيراً عندما كان طفلاً، حياة «ليس فيها طبقات، ولا غني ولا فقير ولا استغلال للإنسان من قبل الإنسان». «وخلص إلى أن ذلك المجتمع كان فيه كثير من البدائية وعدم الأمان». لكنه قال عنه: «كان يضم بذور الديمقراطية الثورية التي لا تسمح باستبعاد أحد أو استغلاله». كانت النسخة الأولى من الخطاب تتضمن: «أنا ورفاقي نقاتل من أجل مجتمع كهذا في بلادنا». إلا أنه عدلها إلى عبارة أكثر حذراً «هذا هو التاريخ الذي ما زال حتى اليوم يلهمني ورفاقي في نضالنا السياسي». ثم ناقش النزاع بين الضمير والقانون، مستشهداً بالفيلسوف البريطاني براتراند راسل الذي حكم عليه بالسجن لاحتجاجه ضد

الأسلحة النووية، وأعاد إلى الأذهان كيف كانت التظاهرات السلمية في جنوب إفريقية تقابل بالعنف من جانب الحكومة. وختم حديثه بلهجة لا تنازل فيها «الأجيال القادمة ستقول إني كنت بريئاً وإن المجرمين الذين يجب أن يقفوا أمام هذه المحكمة هم أعضاء الحكومة».

كان بياناً سياسياً متحدياً، ومنذ ذلك الحين يستشهد به المؤرخون، لكنه في ذلك الوقت خضع لرقابة الصحف في جنوب إفريقية، وقد حذر وزير العدل جون فورستر John Vorster أن الخطابات من قبل أشخاص ممنوعين أمام المحكمة يجب ألا تسمح لهم «بخلق منير». وبالتالي فقد حذفت الجوهانسبورغ ستار عبارات مانديلا الأكثر جرأة.

يوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1962 أدلى القاضي بحكمه: السجن ثلاث سنوات للتحريض، إضافة إلى سنتين لمغادرة البلاد بلا جواز سفر. ونوه مانديلا بأن ما مجموعه خمس سنوات كان أقسى عقوبة فرضت حتى تاريخه في جنوب إفريقية، من أجل مخالفة سياسية. لكنها لم تكن غير مسبوقة في إفريقية. فقبل ثمانية أعوام حكم على القائد الكيني جومو كينيانا بالسجن سبعة أعوام (من قبل قاض تلقى رشوة من الحاكم السير إيفلين بارينغ وهو الآن على وشك أن يصبح رئيساً لوزراء كينيا المستقلة. وجد مانديلا بعض العزاء من ملاحظة أن الحكم صدر بحقه في ذكرى ولادة أول دولة اشتراكية في روسيا، دعمت حركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وأن محاكمته تزامنت مع الأزمة حول كوبا، عندما واجه كاسترو كينيدي بالصواريخ السوفياتية. وقبل هذا وذاك

شجعه أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة صوتت، قبل إصدار الحكم عليه مباشرة، على فرض العقوبات على جنوب إفريقية لأول مرة.

إلا أن الحكومات الغربية بقيت غامضة تماماً في مواقفها تجاه مانديلا والمعارضة السوداء، وتقدم السجلات المحفوظة في لندن وواشنطن حالة تستحق الدرس لمحدودية الدبلوماسيين في مواجهة حكومة أجنبية خطيرة لكنها قيمة. وبعد أ تركت جنوب إفريقية الكومنويلث، والبريطانيون يخشون دعم الجواد الخاسر -الأبيض أكثر من الأسود- وفي حزيران (يونيو) 1962 عندما كان مانديلا مطارداً زار السفير السير جون مود لندن لإجراء محادثات مع مسؤولي وزارة الخارجية. وكان هو يعتبر فيروورد /كريهاً بود/، لكنه كان يعتقد أن فيروورد كان يرى بريطانية الصديق الثابت الوحيد لجنوب إفريقية، وكان من أنصار/ اللعب على حبلين/ باتخاذ موقف «مؤيد وودي» تجاه بريتورية لحماية المصالح البريطانية، في الوقت الذي يدرك أن استمرار قوة الحكومة الوطنية لم يكن في مصلحة بريطانية. ولم يكن لسياسة التغطية التي يطبقها مود (بإجراء اتصالات سرية مع السياسيين السود) كبير أثر. فقد لاحظ المسؤولون في لندن أن أياً من غير البيض لم يدع إلى الحفلة التي أقامتها السفارة بمناسبة عيد ميلاد الملكة، في العام السابق. وفسر مود الأمر، تفسيراً غير قابل للتصديق، قائلاً: «لم يكن هناك كثير من غير الأوروبيين المناسبين في منطقة كيب تاون». ووعد بأن يكون لحفلة العام التالي «نكهة أكثر تعددية عرقية»، وقام ببداية مترددة

باستقباله مجموعة مختلطة من الفتيات المرشدات - الكشافة-.

وكانت حكومة جنوب إفريقية تراقب عن كثب. وعندما أقام مود فعلاً حفلاً متعدد الأعراق في حزيران (يونيو) 1963 تلقى توبيخاً شديداً لمدة نصف ساعة من قبل الدكتور فيروورد في مقابلته الوداعية.

ادعى مود بأن الدبلوماسيين الأمريكيين أكثر حذراً من البريطانيين في مجال تطوير اتصالاتهم بالسود، ولكن الحقيقة هي أنهم كانوا أكثر مخاطرة لبعض الوقت، كما كانوا في أجزاء أخرى من العالم.

في كانون الثاني (يناير) 1959 قال السكرتير الأول الأمريكي في كيب تاون للبريطانيين إنه يستقبل كثيراً من السود في منزله، وإن مكتب المعلومات الأمريكي في جوهانسبورغ فيه غرفة مطالعة فريدة متعددة الأعراق (ولم يذكر ارتباطها، عبر آلة تصوير المستندات بالـ PAC)، كانت الإدارة الأمريكية أيام كينيدي أكثر قلقاً حيال أخطار الأبارتيد، وكانت تفكر جدياً بفرض عقوبات، مما أثار فزع البريطانيين. وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تحث على مزيد من الاتصالات بالإفريقيين في حال كانت الثورة السوداء قادمة. وبحلول عام 1963 كانت سفارة الولايات المتحدة تعلن بصخب عن حفلة متعددة الأعراق بمناسبة عيد الاستقلال يوم 4 تموز (يوليو). قالت السفارة البريطانية في واشنطن إن ذلك كان بهدف إرضاء مشاكلهم العرقية المحلية الخاصة.

كان السفير الأمريكي (جوزيف ساترثويت)- الذي كان مسؤولاً سابقاً عن السياسة الإفريقية في واشنطن- يتابع من كثب علاقة مانديلا

بالشيوعيين. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1962 حدث وزارة الخارجية الأمريكية عن زيارة مانديلا لدروبان قبل اعتقاله مباشرة. عندما ابتعد بالمؤتمر الوطني الإفريقي عن حلفائه البيض والهنود. قال ساتر ثويت، دون أن يقدم أي دليل على ادعائه: «إن جميع الأعضاء العاديين في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يعرفوا أن هذا (التكتيك) الجديد قد أملته منظمة الشعب الملون في جنوب إفريقية واعتقدوا أن مانديلا يبتعد عن هيمنة الشيوعيين البيض على ائتلاف الكونغرس». والحقيقة هي أن سفارته لم يكن لديها ارتباط مباشر مع مانديلا.

كان البريطانيون دائماً أكثر حرصاً على عدم إزعاج بريتورية، لكن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1962، بعد الحكم على مانديلا، قاموا بمخاطرة محسوبة. كما أبلغت السفارة لندن بالسماح لدبلوماسي مستثمر صغير هو ماركوس أدواردز (هو قاض الآن) بالاجتماع بالسياسيين السود الشباب. وذلك لتناول الشراب مع بعض صحفيي المؤتمر الإفريقي العام، وبينهم دافيد سيبكو، وهو قائد مستقبلي سيقتل، فأكدوا له أنهم ليسوا «عصبة من المؤخرات السوداء» وقالوا إن المؤتمر الإفريقي العام سيقفز قريباً إلى العمل. بعد أسبوع تحدث إدواردز عن لقائه مزيداً من أعضاء المؤتمر الإفريقي العام، الذين كانوا مشاكسين، يضحكون ويصيحون، لكنهم أظهروا «جديتهم وتطرفهم». وقال إنهم جميعاً بحاجة إلى «رجل واحد، صوت واحد، وحزب واحد».

وقد قام دبلوماسي بريطاني آخر، مغفل الاسم باتصالات سرية مع

المؤتمر الوطني الإفريقي بواسطة جو ماتثيوز في باسوتو لاند. أوضح ماثيوز أن التزام مانديلا بالعنف قد رفع مكانته خارج جنوب إفريقية (وأشار إلى شعار مانديلا في عروته) قائلاً: «إن اعتقال مانديلا زود المؤتمر الوطني الإفريقي بشهيد». وقال: «إنه هو ورفاقه في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يشعروا بالتعاطف مع /الإفريقية الشاملة/ واحتقروا الوزراء ذوي التعليم السيئ والأصوات الحادة في جنوب إفريقية». أما الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فقد قال ماثيوز (برغم أنه من الأعضاء البارزين): «إنه فشل في أن يصبح حركة جماهيرية لأن السود اعتبروه جسماً غريباً، ولم يستطيعوا تقبله عاطفياً». خلص الدبلوماسي إلى أنه يصعب تصديق أن ماثيوز كان «رجل موسكو الثابت على المبدأ».

استساغت وزارة الخارجية في لندن هذه المقبلات من الأخبار السارة فطلبت بإصرار المزيد من المعلومات حول المعارضة السوداء. لكن السفارة رفضت القيام بمزيد من/ المخاطرات المحسوبة/ التي شعرت أنها ستشجع /السود الطائشين/ على التفاخر بارتباطهم بالبريطانيين. وقد كتبت الدبلوماسية هيلاري يونغ «من المتوقع أن تعترض حكومة جنوب إفريقية بعنف، إذا وجدت أن أعضاء من طاقم العاملين لدى السفير يجرون اتصالات بمنظمات محظورة مثل المؤتمر الإفريقي العام والمؤتمر الوطني الإفريقي خاصة وأن الهدف المعلن لتلك المنظمات هو الإطاحة بالحكومة الحالية». وخلصت يونغ إلى أن «هناك نزاعاً سياسياً بين هدفنا في المدى القصير بالحفاظ على علاقات ود وصداقة مع

الحكومة الحالية وهدفنا في المدى البعيد تطوير علاقات صداقة مع هؤلاء الناس الذين قد يخلفونهم». والواقع أن المدى البعيد أهمل، ولم تقم الحكومة البريطانية بأي اتصال مع القادة السود الكبار قبل أن يودعوا السجن. وقد قال لي مانديلا بعد أن أصبح رئيساً: «لا أذكر أني ذهبت إلى السفارة البريطانية أو الأمريكية. ولا أذكر أنهم كانوا يعرفون بوجودي».

انتهت مهنة مانديلا الوجيزة كقائد حرب عصابات ورجل دولة إفريقي بالسرعة التي بدأت بها، دون ان يتلقى أية تعزيزات عسكرية واضحة أو أي دعم دبلوماسي من الغرب. وسينتقد فيما بعد لعدم براعته، وتصرفاته المسرحية، وعجزه عن تنظيم قوة عسكرية جدية. وسيقبل بعضاً من هذا النقد. لكن الطريقة الوحيدة لتقديم تهديد خطير لجنوب إفريقية البيضاء كان ممكناً من خلال حملة إرهاب مدنية، كما في الجزائر، تتسبب في غارات مرعبة وخسارة في الأرواح.

الأمر الذي لم يكن هو ولا سهم الأمة (إم. كي) ليقبلا التفكير فيه. ولم يتصور أبداً أن الكفاح المسلح بحد ذاته، دون عقوبات أو ضغوط أخرى، قد أجبر جنوب إفريقية البيضاء على تغيير سياساتها، لكن تقديمه نفسه بلبوس القائد العسكري ثم المضحى به كان بحد ذاته رسالة سياسية واضحة، رسخته كالقائد المبذول الذي تحدي النظام، ولوحق وعمل في الخفاء ولكن بين ظهراني شعبه».

# الخاتمة وباقي الحكاية

* مكث مانديلا 27 عاماً في السجن، أولاً في جزيرة روبن آيلاند، ثم في سجن بولسمور، وسجن فيكتور فيرست. وبالموازاة مع فترة السجن انتشرت حملة دولية عملت على الضغط من أجل إطلاق سراحه، الأمر الذي تحقق في عام 1990 وسط حرب أهلية متصاعدة، صار بعدها نيلسون مانديلا رئيساً لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ونشر سيرته الذاتية وقاد المفاوضات مع الرئيس دي كليرك لإلغاء الفصل العنصري وإقامة انتخابات متعددة الأعراق في عام 1994 وهي تلك الانتخابات التي قادت فيها نيلسون مانديلا إلى رئاسة البلاد.

* انتخب نيلسون مانديلا رئيساً وشكل حكومة وحدة وطنية في محاولة لنزع فتيل التوترات العرقية.

* أسس مانديلا دستوراً جديداً ولجنة للحقيقة والمصالحة للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان في الماضي واستمر شكل السياسية الاقتصادية الليبرالية للحكومة وعرضت إدارته تدابير لتشجيع الإصلاح الزراعي ومكافحة الفقر وتوسيع نطاق خدمات الرعاية الصحية.

* دولياً توسط بين ليبيا والمملكة المتحدة في قضية تفجير الطائرة البريطانية بانام 103 وأشرف على التدخل العسكري في ليسوتو، وامتنع عن الترشيح لولاية ثانية فقد ظل في منصب رئيس جمهورية

جنوب إفريقية من 9 مايو 1994 حتى 14 يونيو 1999 أي مدة 5 سنوات وشهر واحد وخمسة أيام وخلفه نائبة تابو اميريكي ليصبح فيما بعد رجلاً من حكماء الدولة، وركز على العمل الخيري في مجالات مكافحة الفقر وانتشار الإيدز من خلال مؤسسة نيلسون مانديلا للأعمال الخيرية ويوصف بأنه (أبو الأمة).

* توفي نيلسون مانديلا في 5 ديسمبر 2013 محاطاً بعناية عائلته وذلك في منزله في جوهانسبرج وأعلن وفاته الرئيس الجنوب إفريقي جاكوب زوما من خلال بيان وأعلن الحداد في البلاد لمدة 10 أيام.

* وحظي مانديلا بجنازة رسمية ومراسم جرت في 10 ديسمبر 2013 في ملعب سوكرسيتي في جوهانسبرج.

# فهرس المحتويات